الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر - باتنة 1

كلية اللغة والأدب العربي والفنون

قسم اللغة والأدب العربي

تقنيات السَّرد في الرّحلة الورثيلانية

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه ل م د في الأدب العربي

تخصص أدب عربي

إعداد الطالب: عيسى طهاري

إشـــراف: أ. د. جمـــال سعادنة

لجنة المناقشة

د/ شراف شنّـــاف	أ.م	جامعة باتنة1	رئيسا
أ.د/ جمـــال سعادنة	أ.ت.ع	جامعة باتنة1	مشرفاً
د/ دليـــلة مكســـح	أ.م	جامعة باتنة1	عضوا
أ.د/ رزيـــقة طـاوطاو	أ.ت.ع	جامعة أم البواقي	عضوا
أ.د/ علـي بخـــــوش	أ.ت.ع	جامعة بسكرة	عضوا
د/ عبد المالك مغشيش	أ.م	جامعة خنشلة	عضوا

السنة الجامعية 1440هـ / 1441هـ الموافق 2019 م/2020م

بسم الله الرحمن الرحيم
اطہر جاوید

مقدمـــــة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسّلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه الكرام الغر الميامين وبعد:

كانت الرّحلة - وإلى وقت قريب- تُعدّ من كتب التّاريخ والجغرافيا، ينظر إليها الباحثون على أنّها وثائق تاريخية، ينهل منها المؤرخون، وخرائط جغرافية يهتدي بها الرّحالة والمسافرون، أمّا في وقتنا الحاضر، فقد شدَّت انتباه دارسي الأدب ونقاده، وأصبحت تأخذ حيزاً كبيراً في مجالات الدّراسة والبحث وفق مناهج نقدية حديثة، نظراً لما فيها من عناصر أدبية، وظواهر فنية تضفي عليها جمالية خاصة، وتُدخلها في دائرة الأدب، وتُؤهلها لأن تكون فناً أدبياً بامتياز، فهي تتميز عن غيرها من الفنون، بثراء مضامينها، وبتنوع موضوعاتها، واختلاف مستويات أسلوبها.

وعليه، فإنّ أدب الرّحلة في جوهره هو وصف لكل ما انطبع في ذهن الرّحالة، وهو يجوب الأمصار، يطيل المكوث في بعضها، ويمرّ على بعضها الآخر إلى أن يحط رحاله بالأرض التي رحل إليها، وكذلك الحال عند عودته إلى البلاد التي انطلق منها، فبين الذهاب والإياب يلاحظ ويعاين، يوثق وينقد، يتعرف ويكتشف، ينفعل ويتفاعل، ثم تراه قد يصف حيثيات الرّحلة بموضوعية وتجرد تارةً، وقد يتمكن منه الانفعال فيصفها من منطلق الإحساس بها تارة أخرى، وبذلك تكون الرّحلة متناً أدبياً لتدافع الحقيقة والخيال، والذاتية والموضوعية، تحضر فيه الحقائق العلمية والتّاريخية، كما تحضر فيه الوجدانية والخيال في أسلوب أدبي قصصي، يمنح الرحلة قيمتها العلمية والتاريخية والأدبية.

وتأسيساً على ما سبق، فإنَّه أصبحَ من الضروري خدمةً للأدب ونقده، وحفاظاً على موروثنا الثقافي العربي الاتجاه نحو الرّحالة الذين خاضوا تجربة الرّحلة ممارسةً وكتابةً ونذكر منهم: ابن عمار الجزائري، ابن حمادوش، والورثيلاني...، وغيرهم، والاطلاع على نصوصهم الأدبية القديمة، من أجل مقاربتها، ومحاولة البحث فيها ودراستها، وضمن هذا السّياق يأتي الاهتمام برحلة **الورثيلاني** الموسومة بـ: **" نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"**، التي تُعدّ واحدة من

تلك الرّحلات المهمة، لأنّ الرّحالة خاض تجربته بوعي العالم والفقيه والمتصوف الذي يتمتع بدقة الملاحظة، وعمق الوصف والفهم والتّحليل، كما أنّها من أبرز الرّحلات التي ميزت المنجز السَّردي للأدب الجزائري خلال القرن الثامن عشر من الفترة العثمانية، وهي تُعدّ مدونة مهمة في التاريخ والثقافة والاجتماع والجغرافيا ... وكل هذه الاعتبارات تمنح ـ حسب تقديري ـ البحث في هذا الموضوع قيمة مضافة.

ورغم القيمة الأدبية والعلمية والتّاريخية لرحلة الورثيلاني إلاّ أنّها - وفي حدود ما أعلم- لم تنل حقها من الدّراسة المفصلة ولم يُفرد لها بحثٌ مستقلٌ يتوخى الدقة والعمق، بخاصة فيما يتعلق بمكوناتها السَّردية: الزَّمان والمكان والأحداث والشَّخصيات والسَّارد، لذلك جاءت هذه الدّراسة الموسومة بـ: **"تقنيات السّرد في الرّحلة الورثيلانية"**، لتسلط الضوء على احدى الرَّحلات الجزائرية التي بالرغم من بعض الدّراسات القيمة التي أنجزت حولها إلا أنّها لا تزال ـ حسب تقديري ـ بحاجة إلى دراسات أخرى وفق المناهج النّقدية الحديثة من خلال أساليب اشتغال تقنيات السّرد في بنائها باعتبارها نصا سرديا يتميز بطابعه الواقعي التّوثيقي، كما يتفاعل فيه الواقعي بالتّخييلي في نسق يسهم في بناء دلالة خاصة.

ويعود سبب اختياري لهذا الموضوع إلى تضافر عدة دوافع اتسمت في مجملها بالتّكامل والتّناسق من حيث الغاية والمقصد الأساسي:

- ميولي إلى هذا النوع من الأدب السّردي عامة، وشغفي بالأدب الرّحلي خاصة، نظرا لجاذبيته المعرفية ولكونه مجالاً للبوح، وسرداً للحكاية، خاصة بعد اطلاعي رحلة **الورثيلاني**، حيث مارست عليَّ إغراءً مع بداية تعاملي مع نصها، فولدت بداخلي رغبةً في دراستها، وإعطائها صبغة سردية في هذا الجهد المتواضع، تمهيداً لباحثين آخرين يمكنهم اتخاذها نقطة انطلاق في دراستهم لجوانب أخرى.

- إيماني بتميز الرّحالة **الورثيلاني** فهو يعدُّ بحق من أدباء الرّحلة، لذا فدراستي هذه تأخذ بعد الواجب الوطني ليس لانّ كاتبها رحالة جزائري فحسب، بل

لأنّه كان عالماً وفقيها وأديبا، فوظف كل ما يملكه من علوم دينية ومعارف اجتماعية وتاريخية ومواهب أدبية ليبدع رحلته هذه، فتجاوز بها التاريخ والجغرافيا، ليلج بها عالم الأدب السّردي.

- ومما تمم الدّافع لديّ أنَّ هذه الرّحلة رغم قيمتها الأدبية وأهميتها العلمية، لم تُفرد لها دراسة مستقلة تمنحها حقها من البحث المفصل الملم الذي يتوخى الدّقة والعمق، بخاصة فيما يتعلق بمكوناتها السّردية، لذلك يمكن اعتبار خوض البحث فيها وتناولها بالدراسة والتّحليل هو عمل يستحق العناء.

وعليه فهذه الدراسة تهدف إلى:

- الإسهام في خدمة التّراث الجزائري وإبرازه، ومنحه ما يستحق من الدراسة العلمية الأكاديمية.

- بما أنّ الرّحلة نقلة في المكان والزّمان، فهي تقدم لنا صورة العصر في مختلف الأمصار، لذلك أردت أن تكون الرّحلة **الورثيلانية** نافذةً نطل عبرها على عصر الرّحالة، ونتعرف على أوضاع الأمصار التي زارها ومرّ بها، وعادات أهلها.

- تتبع البنية السَّردية لهذه الرّحلة، وتوضيح ما يميزها عن غيرها من أنواع السّرديات الأخرى، وتقييمها وفق معايير فن السّرد وتقنياته.

- إبراز العناصر الفنية التي تمنح هذا المتن أدبيته وقيمته الجمالية، وتبيين ما يتضمنه من قيم إنسانية واجتماعية وتاريخية وثقافية.

لا تخلو هذه الدّراسة من عدة تساؤلات، فهي تقوم على **إشكالية** محورية تتعلق بتدافع الواقعي والمتخيل في أدب الرحلة، سواء أكان على مستوى الرّحلة عموما أم على مستوى رحلة **الورثيلاني** خصوصا، فالرّحلة تنهل من التّاريخ والجغرافيا كمجال للحقيقة، وفي الآن ذاته تعتمد السّرد كمجال للتخييل، وعليه كيف يمكن للقارئ أن يعرف أن ما كتبه الرّحالة هو حقيقة صرفة نقلها بتجرد وموضوعية، أم أنّها حقيقة تلونت بمشاعره وانفعالاته حين وصفها من منطلق الإحساس بها فجنح بها إلى الخيال؟

ولأنَّ الرّحلــة تعتمــد الخطــاب الاســتذكاري، فهــل اســتطاع **الــورثيلاني** أن يقــدم الماضــي فــي صــورته السّــابقة؟ ذلــك لأنّ لحظــة الكتابــة؛ أي زمــن السّــرد لــيس نفســه هــو زمــن الحــدث، فلحظــة الكتابــة تفــرز وعيــا مغــايرا، عــن الــوعي القــديم المــرتبط بلحظــة الحــدث، وعليــه فالرّحالــة قــد يصــور الماضــي مــن وجهــة الحاضــر، وكيــف وظــف **الــورثيلاني** مكونــات السّــرد؟ وكيــف أدى وظيفتــه كســارد؟ وكيــف رســم صــورته السّــاردة وصــورة القــارئ المســرود لــه فــي رحلتــه؟ وأيــن تكمــن خصوصــية هــذا المــتن السّردي التي تعبر عن عبقرية صاحبه وتفرده في الابداع؟

وللإجابــة عــن هــذه التســاؤلات وغيرهــا وجــدتني أضــع هــيكلاً مــن مقدمــة وثلاثــة فصول وخاتمة.

أما **الفصل الأول [الرحلة وأدب الرحلة]** وقسمته إلى قسمين أساسين هما:

القســم الأول (أدب الرّحلــة والتــراث) وقــد خصصــته لدراســة الرّحلــة عمومــاً، مــن حيــث علاقــة العــرب بالرّحلــة، قبــل وبعــد الإســلام، ثــم بينــت أهميتهــا، لأصــل إلــى التمييــز بــين الفعــل والخطــاب فــي الرّحلــة، والقســم الثــاني **(الرّحلــة الورثيلانيــة بواعثهــا، تــدوينها، مســارها)** عرضــت فيــه أهــم البواعــث التــي دفعــت **الــورثيلاني** لرحلتــه، ثــم بينت الطريقة التي اعتمدها في تدوينه لرحلته، وبعدها حددت مسارها ذهاباً وإياباً.

الفصل الثاني [مكونات السرد في الرحلة] وقسمته إلى ثلاثة أقسام:

واخــتص القســم الأول (**الســرد فــي الرحلــة**) بالتّشــكيل السَّــردي للرّحلــة أولاً، ثــم بينــت أهــم خصــائص السّــرد فــي الرّحلــة، أمــا القســم الثــاني **(السّــارد فــي الرحلــة)** فقــد حددت فيه أهم الوضعيات السَّردية للرَّحالة، ثم وضحت أبرز وظائف السَّرد.

واخــتص القســم الثالــث **(المســرود لــه فــي الرحلــة)**، بتحديــد مفهــوم المســرود لــه وبعدها درست أهم تشكلاته في الرّحلة.

الفصل الثالث [بنيات السَّرد في الرّحلة] وقسمته إلى قسمين:

القســم الأول **(بنيــة الــزمن فــي الرحلــة)** ودرســت فيــه الــزّمن الطبيعــي مــن حيــث زمــن الحــافز، وزمــن السّــفر، وزمــن التّقييــد، ثــم بينــت المفارقــة السَّــردية، وبعــدها وضحت الحركة الزَّمنية في الرّحلة.

القسم الثاني **(الفضاء في الرحلة)** وضحت فيه أولاً إشكالية المصطلح، ثم بينت كيف يتأسس فضاء الرّحلة، بعدها قسمت أماكن الرّحلة وفق ثنائية الإقامة والانتقال.

وكانت نهاية البحث محطة أوجزت فيها أهم النّتائج والملاحظات التي توصلت إليها وهي نتائج – فيما أعتقد – تجيب عن العديد من الأسئلة التي قد تطرح فيما يتعلق بالرحلة أولاً وبتقنيات السرد فيها ثانياً.

ونظراً لطبيعة النّص الرّحلي باعتباره نصاً شاملاً، يستوعب عدداً من العلوم والفنون والمعارف، فهو قابل للانفتاح على شتى المقاربات، وهذا ما جعل اعتماد منهج واحد يكاد يكون مستحيلاً، لذا حاولت أن اعتمد أكثر من منهج لأكشف الجوانب الاجتماعية والنّفسية والجمالية في رحلة **الورثيلاني**، فالحديث عن الرَّحالة والرّحلة يقتضي بعض المناهج السّياقية كالمنهج التاريخي والاجتماعي والنَّفسي، على أساس أنّها الأصلح للإحاطة بالمؤثرات والسّياقات الخارجية والداخلية المحيطة بالرّحلة وبالأخص حياة **الورثيلاني** ودوافع ارتحاله.

أمّا الاقتراب من الرّحلة باعتبارها نصاً سردياً له مكوناته، فيقتضي منا دراسته وفق الدراسات السّردية الحديثة، مع الحفاظ على خصوصيته باعتباره نصاً رحلياً، وأقرب المناهج النسقية لهذا هو المنهج البنيوي.

ولابدَّ من الإشارة إلى أنّ دراستي هذه كانت مسبوقة بجملة من الدراسات الأكاديمية والأبحاث التي تناولت أدب الرّحلة من زوايا مختلفة نذكر منها:

- **فن الرحلة في الأدب المغربي القديم** لإسماعيل زردومي، دكتوراه دولة، جامعة باتنة، 2005م.
- **الرحلة الجزائرية في العهد العثماني**، بناؤها الفني، أنواعها، وخصائصها، للطاهر حسيني، دكتوراه علوم، جامعة ورقلة، 2013م.

وهذه الأبحاث في عمومها أبحاث قيمة، إلاَّ أنَّها تُبقي البحث في هذا الموضوع مفتوحاً؛ وذلك لأنَّ أصحابها إمّا أنّهم درسوا الرّحلة في الأدب المغربي عموماً وكانت رحلة **الورثيلاني** واحدةً من الرَّحلات المشمولة بالبحث، وإمّا أنّهم درسوا

الرّحلة الجزائرية، وأفردوا أبحاثهم لرحالة آخرين من غير **الورثيلاني**، لذلك يُعدّ بحثي هذا محاولة لتقديم إضافة للجهود السّابقة؛ حيث حاولت أن أفرد لهذه الرحلة دراسة مستقلة، ولعل هذا هو الجديد أو الإضافة التي أروم تقديمها في دراستي هذه.

أما فيما يخص أهم المصادر والمراجع التي استعنت بها، والتي من دونها ما كان لعملنا هذا أن يُنجز، حيث كانت عونا لي في إتمامه وإخراجه بهذه الصّورة بما حوته من معلومات ذات قيمة كبيرة، وتتمثل في مجموعة هامة من الكتب في مختلف الدراسات النقدية الفنية، وبعض الكتب التّاريخية، كما استعنت بعدد من المقالات والأبحاث والدراسات المنشورة في الدوريات، نذكر أهمها:

أدبية الرحلة لـــ عبد الرحيم مودن، والرحلة في الأدب العربي لـــ شعيب حليفي، وأدب الرحلة لـــ حسين نصّار، وأدب الرحلة في التراث العربي لـــ فؤاد قنديل، وغيرها من الكتب الأخرى.

وبقدر ما كان هذا البحث مفيداً، فإنّ صعوبات جمة واجهتني بدايةً من صياغة الإشكالية وإعداد الخطة إلى جمع المادة وتصنيفها وتوظيفها في الصياغة النهائية للبحث، وهذا أمر طبيعي حين نعلم أنّ البحث يخص متناً سردياً مرت عليه عقودٌ من الزَّمن، ودراسته وفق تقنيات السّرد الحديثة، خاصة في ظل نقص التّنظير الرّحلي، وقلة الدّراسات المتعلقة بهذه الشّخصية إذ أنّه لم ينل حظه من البحث والدّراسة رغم مكانته الدينية والعلمية والتّاريخية، لاسيما إذا قورن بغيره من الرّحالة الآخرين.

وفي الأخير لا يفوتني أن أتقدم بالشّكر الجزيل والاعتراف بالجميل إلى أستاذي المشرف الدكتور **"جمال سعادنه"**- حفظه الله ورعاه - الذي وافق على هذا الموضوع، وتعهده منذ البدء بالعناية العلمية الجادة توجيها وإشرافا، وعلى ملاحظاته القيمة وإرشاداته السّديدة وتوجيهاته التي أفادني بها، فكان نعم العون لي، فهو من شجعني وشد من أزري وتحملني كل هذه السّنوات حتى أنهيت بحثي، فله مني أسمى عبارات الاحترام والتقدير وجعله ممن يدخل في قوله تعالى: **﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾** صدق الله العظيم.

والله ولي التوفيق

الفصل الأول: الرّحلة وأدب الرّحلة

أولاً: أدب الرّحلة في التّراث.

1) - العرب والرّحلة.
2) - أهمية الرّحلة.
3) - الرّحلة بين الفعل والخطاب.

ثانياً: الرّحلة الورثيلانية بواعثها، تدوينها، مسارها.

1) - دواعيها.
2) - تدوينها.
3) - مسارها.

أولا: أدب الرّحلة في التّراث

1) ـ العرب والرّحلة:

خلقَ الله الإنسان وكرّمه عن سائر مخلوقاته، بأن خصه بنِعم كثيرة من بينها العقل، فهو المخلوق الوحيد الذي يطرح الأسئلة ولا يكف عن ذلك، كيف؟ ولماذا؟ هي رغبة فطرية جامحة، لا سبيل لإشباعها إلا بالتنقل والحركة، بحثاً عن إجابات لها، هذه الحركة تقتضي بالضرورة جسماً قوياً ورشيقا يعينه على الانتقال من موضع إلى آخر، وفي الوقت نفسه تقتضي عقلاً يلاحظ ويتأمل ووجداناً يتفاعل وينفعل.

في حقيقة الأمر إنّ الحركة سمةٌ أساسيةُ في تركيب الإنسان، فهو منذ لحظة ولادته وحتى لحظة حلول أجله، في حركة دائمة لا تتوقف، فهو إذن في رحلة تنطلق بخروجه من رحم الأم لحظة الولادة وتنتهي بولوجه رحم الأرض ساعة الوفاة، فهو رحالة بطبيعته، ميال إلى المعرفة، ومحب للاكتشاف، يسعى في محاولات دائبة لفهم الحياة وكشف أسرار الكون الخارجي المحيط به، وفي الآن نفسه يسعى لاكتشاف ذاته الإنسانية والإجابة عن السُّؤال الوجودي الذي يؤرقه، ما الهدف والغاية من خلقه؟

ليس عجيباً أن نقول: إنّ البشر عرفوا الرّحلة مذ وُجدوا على الأرض، فأبونا آدم، وهو أول مخلوق بشري في الكون، يجسد الرّحلة مع أُمنا حواء على أرض الواقع، من خلال رحلته التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**﴾ [1] فحين أكل آدم من الشجرة المُحرمة، من بعد أن وسوس لهما الشَّيطان، كانت تلك الخطيئة سبباً في نزولهما من جنة الخلود، بأمر من الله، ومن الواضح أنَّ الإشارة لأهم رحلة في

1) ـ سورة البقرة، الآية 35- 36.

تـاريخ الإنسـانية، لـيس بغـرض سـرد أحـداثها، وإنّمـا لمحاولـة معرفـة أسـبابها؛ ولعـل الفضـول والتّسـاؤل همـا الـدّافع الأسـاس وراء أكـل آدم مـن شـجرة الخلـود، فـالمنع هنـا ومـن دون سـبب يعلمـه ـ طبعـا لحكمـة أرادهـا الله ولا يعلمهـا إلاَّ هوـ جعلـه يبحـث عـن جواب له، ولا سبيل أمامه هنا إلاّ الاكتشاف والتّجريب.

كانـت أولـى محـاولات الكـائن البشـري فـي اكتشـافه عالمـه الخـارجي، مـع هبـوط آدم وزوجـه إلـى الأرض، كمـا أنَّ الله ﷻ لـم ينزلهمـا منـزلاً واحـداً، وإنّمـا فـرّق بينهمـا، لكـي يسـعى كـل منهمـا للقـاء الآخـر، كـذلك الأمـم لـم يخلقهـا الله لتعـيش فـي مكـان واحـدٍ، بـل فرّقهـا وجعـل بينهـا مسـافات، «**يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ إِنَّـا خَلَقْنَـاكُم مِّـن ذَكَـرٍ وَأُنثَـىٰ وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِـلَ لِتَعَـارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنـدَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِـيمٌ خَبِيـرٌ**» [1]، فسـنة الله ﷻ فـي خلقـه، ألّا يجمـع مقـدرات العـيش كلهـا فـي بقعـة واحـدة، أو أن يخصـها بقـوم معينـين، بـل اقتضـت حكمتـه أن تكـون متفرقـة بـين عبـاده، حتـى يحتـاج هـؤلاء لأولئـك، مضـطرين للتواصـل والتعـارف وتبـادل المنـافع، ولا سـبيل إلـى ذلـك سـوى عـن طريـق الرّحلة والسّفر.

ومـن هـذا المنطلـق، فـأمر طبيعـي أن تتعلـق الرّحلـة بحيـاة الأفـراد والأمـم، ولا ضـيرَ هنـا فـي الحـديث بشـكل مختصـر عـن دور الأمـم السّـابقة مـن البـابليين والفراعنـة واليونـان، ثـم التّوجـه بعـد ذلـك بالحـديث المسـتفيض عـن دور العـرب فـي هـذا المجـال لنتعرف على تطوره لديهم من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث.

تكشـف كتـب المـؤرخين وبـاحثي الاثنوغرافيـا عـن العديـد مـن الشّـواهد الهامـة التـي توضـح صـلة الرّحلـة بحيـاة الأمـم القديمـة، فقـد اعتبـرت ملحمـة جلجـامش، ـ وهـي أول نمـوذج وثقـه الإنسـان لرحلـة ـ ، وثيقـة إنسـانية كونيـة بامتيـاز، تبـرز أحـداثا متعـددة، وتعـرض رحـلات بطلهـا **جلجـامش** مـع صـديقه **أنكيـدو** المتـوحش، عـدوه الـذي خلقتـه الآلهـة لـرد كيـده والتّصـدي لظلمـه، ولكـن نتيجـة لتـأثره بالمدنيـة فقـد وحشـيته، وانقلبـت عـداوتهما إلـى صـداقة؛ صـورت الملحمـة مغـامرات البطلـين ومـا لاقيـاه مـن مصـاعبَ وأهـوال، فكـان قتلهمـا للـوحش **خومبابـا** حـارس غابـة الأرز، أول

1) ـ سورة الحجرات، الآية 13.

مغامراتهما، مما استجلب عليهما غضب الآلهة فأرسلت ثوراً سماوياً للانتقام منهما، غير أنّ جلجامش وصديقه تمكنا من قتله، وكان موت **أنكيدو**، المنعرج الحاسم في حياة جلجامش، واضطره لبدء رحلته بحثاً عن الحياة الأبدية، بعد خوضه لمغامرات شاقة، وجد ضالته في نبتة الخلود، فقرر العودة إلى مدينته، وفي طريقه توقف ليستحم في أحد الجداول، وإذْ بحية تسرق النبتة وتتوارى في غفلة منه، سارقة بذلك من جلجامش والبشرية جمعاء أمل الخلود [1]

ومن جهة أخرى، فإنّ هناك دلائل تشير إلى رحلة بحرية رسمية في عهد الملكة **"حتشبسوت"**، وهذا في إحدى كتابات الباحث الفرنسي **"مودوي"**، الذي يؤكد: «أنّ الرحلة التي قام بها القدماء المصريون عام 1493 قبل الميلاد تعد من أقدم الرحلات التجارية والاثنوغرافية على الاطلاق، ذلك حين أبحر في النيل، صوب جنوب مصر، أسطولاً مكوناً من خمسة مراكب، وعلى كل متن مركب واحد وثلاثون فرداً، وذلك بهدف تسويق بضائعهم النفيسة التي شكلت آنذاك، البخور والعطور» [2]

كما يرى أغلب الدارسين أنّ ما كتبه الشّاعر اليوناني **هوميروس (HOMERIC)** هو أيضاً من الشَّواهد الوصفية للرّحلة لدى الأمة الإغريقية، وهذا ما يتجلى في **الأوديسة**، وهي ثاني ملحمة لهذا الشاعر بالإضافة **للإلياذة**، حيث تُقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول، تعرض لرحلة **تيلماك** للبحث عن أبيه **أدويس**، أما الثاني فيقدم تفاصيل رحلة **أوديس** ومغامراته، وما لاقاه في البحر والجُزر من عوائقَ ومخاطرَ منذ مغادرته طروادة؛ وأما القسم الثالث والأخير وهو نهاية الملحمة، يعرض رجوعَ **أوديس** إلى بلاده، وتخلصه من منافسيه على زوجته، واسترداد مُلْكه [3]

1) ـ ينظر: جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984م، ص 425.
2) ـ حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 138، شوال 1409هـ/حزيران 1989م، ص 18- 19.
3) ـ ينظر: جبور عبد النور: المعجم الأدبي، ص 624.

أ. الرحلة قبل الإسلام:

إذا كان الإنسان عند أغلب الأمم السَّابقة قد عرف الرّحلة والأسفار، والأمثلة على ذلك بارزة وشاخصة في التاريخ، كما أسلفنا الذكر، فالأجدر بالإنسان العربي أن يكون كذلك، لأنّه رحالة بالطبع وبالفطرة، والدارس لحياة العرب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في فترة الجاهلية، والممتدة حسب المؤرخين أكثر من 150 سنة، و«تبدأ عام 450 ب. م، وتنتهي عام 610 ب. م، أي عند ظهور الدعوة الإسلامية»[1]، ليجد أنها قائمة على الحل والتّرحال، نظراً للبيئة الصّحراوية في شبه الجزيرة العربية، وقلة مصادر الرّزق اضطر الإنسان العربي لحياة البداوة، فكان في رحلة مستمرة بحثاً عن الماء ومنازلَ يَرعى فيها أغنامَه وإبلهُ، أو سعياً منه لصيدٍ أو غَزوٍ أو تِجارةٍ.

وتَرْوي كُتب المؤرخين الكثير من الأخبار، وما كان للعرب ما قبل الإسلام من «تجارة نشطة، سافروا لها خارج أوطانهم براً وبحراً، وأغلب الظن أنهم عرفوا الملاحة والإبحار قديما، وقد اشتهروا بالتّجارة مع شعوب أفريقية في شمالها وشرقها وأيضاً في شرق الجزيرة حتى الهند وما وراءها»[2]، ودأبت القبائلُ العربية على هذه الرّحلات التّجارية، حتى تنامت وأصبحت أكثر تنظيماً، من حيث المسالك والمواسم، وأشهرها رحلتا الشتاء والصيف، كانت الأولى صيفاً نحو بلاد الشام والأخرى شتاءً نحو بلاد اليمن، وقد ورد ذكرهما في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**[4]﴾ [3]، لم تشكل هاتان الرحلتان التجاريتان اللتان ألفتهما قريش، أهمية دينية واقتصادية لها فحسب، إنما أهميتهما فيما خلفه التّجار العرب من أوصاف للمسالك والطرق التجارية المؤدية إلى الشام واليمن، وقد «يرد فيها بالإضافة إلى ذكر الأماكن ذكر أهم الآبار وموارد المياه

1) – جبور عبد النور: المعجم الأدبي، ص444.
2) – فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، جمادى الأولى 1431- يوليو2010، ص 25.
3) – سورة قريش، الآية 1 - 4.

والجبال والقبائل التي يخترق الطريق أراضيها» [1] وقد شكل هذا رصيداً معرفياً هَاماً في الجغرافيا الوصفية استفادتْ منه الأجيال التي تلت.

وليس غَريباً أن تتبوأ الجزيرة العربية هذه المكانة الاقتصادية الهامة، وذلك لموقعها الجغرافي المُمَيز، الذي يتوسط العالم القديم، فأدت دور الوسيط في المبادلات التجارية، فمن جهة بين الهند وشرق افريقيا، ومن جهة ثانية بلاد الرّافدين والامبراطورية الرّومانية، فقد كان تجار العرب «يجمعون حاصلات إفريقيا الشرقية والهند، ثم يرسلونها على ظهور الإبل شمالاً من مأرب إلى مكة فالشّام ومصر؛ اجتناباً لأهوال السّفر في البحر الأحمر» [2]، فاحتكروا بذلك التّجارة الشّرقية والقادمة بحراً عن طريق جنوب شبه الجزيرة العربية، ولم تقتصر سيطرتهم على المسالك البرية فقط، وإنّما كانوا يسيطرون أيضاً على البحر الأحمر، والدليل على امتلاك العرب للمسالك البرية والبحرية في ذلك العصر، ما ورد في معلقة الشاعر الجاهلي **عمرو بن كلثوم (ت 39ق هـ/ 584م)**، إذ يقول في أحد أبياتها مفتخرا بقومه:

مَلَأْنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا * وَظَهْرَ الْبَحْرِ نَمْلَؤُهُ سَفِينَا** [3]

ولعل تعدد ذكر لفظة **"الفلك"** في القرآن الكريم، ما يؤكد أنَّ المجتمعات البشرية قد امتلكت السّفن وخاضت بها عباب البحر، فتاجرت وانتفعت بخيراته، يقول تعالى:﴿ **رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾[4] وفي قوله أيضا:﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ**﴾[5].

---

1) ـ أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفيسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة لجنة التأليف، ج1، القاهرة، 1963، ص40.

2) ـ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، 1970، ص 384 - 386، نقلا عن فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ج 2، ص27.

3) ـ عمرو بن كلثوم: الديوان، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1411هـ - 1991م، ص 91.

4) ـ سورة الإسراء، الآية 66.

5) ـ سورة البقرة، الآية 164.

إذا كـان للتجـار رحلاتهـم التـي جـابوا بهـا الـبلاد طُـولاً وعرضـاً، فـإنَّ للشُّـعراء الجـاهليين أيضـا رحلاتهـم، سـواء أكانـت هـذه الـرّحلات داخليـة فـي محـيط شـبه الجزيـرة العربيـة أم خارجيـة قـد تصـل إلـى الحيـرة والفـرس ودمشـق وبـلاد الـروم، فإنَّهـا قـد ارتبطـت بفـن القـول لديـه ارتباطـاً وثيقـاً، فأشـاروا فـي العديـد مـن أشـعارهم إليهـا ومـا جرى معهم فيها؛ ومن هؤلاء الشّعراء نذكر **الأعشى** (ت 7هـ/ 628م) إذ يقول:

كَـــأَنِّي وَرَحْلِي وَالقْنَانَ وَنُمْرُقِـــــي * على ظَهْرِ طَـأْوٍ أَسْفَعِ الخَـــدِّ أَخْثَمَا** (1)

وقول **النابغة الذبياني** (ت 18ق هـ/ 605م):

كَـــــــأَنّـي شَـــدَدْتُ الـرَّحْـــــــلَ * على قَـــأْرِحٍ مِمَـــأْ تَضَمَنَ عَـــــاقِلُ** (2)

وفي كثيرٍ من الأحيان يتعرض الشّـــاعر لذكر المواضـــع الجغرافية التي مرَّ بها أو شـاهدها، مما يجعل منها ظاهرةً مطردةً في الشّعر القديم، فها هو الشـاعر **لبيد بن أبي ربيعة** (ت 41هـــ/ 661م) وهو ليس حالة استثنائية بين شـعراء عصـره، يذكر في احدى قصـائده الأماكن المحيطة بالمدينة إذ يقول:

لِـــــهِنْدٍ بِأَعْـــــلَامِ الأَغَـــــرِ * إِلَـــــى أَحُـــــدِ كَـــــأَنَّهُنَّ وُشُـــــوُمُ**

فَوقَـــفٍ فَسُـلِّى فَأَكْنَـــافِ ضَـلْفَعٍ * تَرَبَّـــعُ فِيْـــهِ تَـــــــارَةً وَتُقِيْـــــمُ**

بِمَـــــأْ قَـــــدْ تَحُـــلُّ الـــوَادِيَيْنِ * زَنَانِيْـــرُ فِيْهَـــــا مَسْكَـــنٌ فَتَـدُوْمُ** (3)

ويتضـح أنّ هـذه الـرحلات لـم تتخـذ شـكل أدب الرّحلـة، وإنّمـا كانـت تشـكل أحـد العناصـر الأساسـية فـي بنـاء القصـيدة الجاهليـة، «فقـد كـان القسـم الأول منهـا يفـرد عـادة لـذكر المحبـوب و((الأطـلال))، حيـث كانـت تنـزل قبيلتهـا وقبيلـة الشـاعر مـن وقـت لآخـر» (4)، لـذا دأب الشّـعراء علـى توظيـف الرّحلـة فـي شـعرهم، حتـى أصـبحت طقسـاً مـن الطُقـوس، لـه قواعـد خاصـة، تبـدأ قصـة الرّحلـة بتصـوير مشـهد «ردّ الجمـال مـن المرعـى أو زمّهـا اسـتعدادا للرحيـل، ووقـوف الشـاعر وحيـداً أو مـع بعـض أصـحابه يرقـب هـذه الظعـائن (...) فيصـورها ويسـمي مـا تتنكـب مـن ميـاه وأمـاكن، وقـد يصـف

1) ـ ميمون بن قيس، الأعشى الكبير: الديوان، تح: محمد حسين، مكتبة الآداب جماميزت، مصر، د ت، ص295.
2) ـ زياد بن معاوية، النابغة الذبياني: الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1416هـ - 1996م، ص 153.
3) ـ لبيد بن ربيعة العامري: الديوان، دار المعرفة، بيروت، ط1 ،1425هـ - 2004م، ص 117.
4) ـ أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفيسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 43.

حاجبها أو حاميها الذي تسير في ظله... ويمضي معها إلى آخر المطاف فيصور وصول هذه الظعائن إلى الماء وتخييمها عليه، وفي كثير من الأحيان يرقب الشاعر هذه الظعائن طرفاً من الوقت، ثم يودعها في بعض الطرق، ويلتفت إلى نفسه وقد ألمّ به الحزن والجزع» [1] وكثيراً ما تقترن الرّحلة بغزل المحبوبة «وفي أحيان كثيرة أخرى يندفع الشاعر خلف هذه الظعائن ... فإذا لحق بها وقف على مقربة من نسائها ينازعهن الحديث، ويقول فيهن ما يقول العشاق في محبوباتهم كلاماً طيباً جميلاً، وربّما غلبه الشّوق وجار عليه فاتجه إلى إحداهن بالخطاب، وانقطع إليها يتحدث عنها ويبرز مفاتنها ويحاورها حواراً يرق ويلين أو يعنف ويقسو، لكنه ـ في الحالتين ـ يتقرب به إليها، ويتلمس وُدها ورضاها، ويختلف حديث هذه الرحلة، فيقصر أو يطول، باختلاف مواقف الشعراء بل باختلاف مواقف الشاعر نفسه» [2].

لقد سلك أغلب شعراء الجاهلية هذا السّبيل، فكان ديدنهم الذي بَرعوا فيه، لكنَّنا لا يجب أن نقع في المغالطة التي تصف هذا السّلوك بالسطحية والسّذاجة، بل بالعكس فقد كانت «رحلة الشّاعر في الصحراء صورة رمزية خصبة لرحلة الحياة نفسها في هذا العالم، وما يختلف على المرء فيها من خوف وأمن، وعدوان وظلم، وضيق وضر، وفرج ويسر، وخيبة مرة وأحلام باسمة عريضة، إيمان عميق بهذه الحياة، وإصرار عنيد مقدس على الكفاح في سبيلها والدفاع عنها، والحفاظ عليها نقية خصبة فاتنة، وكانت قصص حيوان الصّحراء ـ من ثور وحمار وظليم ـ ميداناً شعرياً فسيحاً سمح للشعراء بالتّصدي لمشكلات هذه الحياة الكبرى التي تؤرق الإنسان الجاهلي»[3]، وهكذا يتضح لنا أن الذهنية العربية قد جمعت في طياتها الرغبة في الرحلة مع اتساع في الرؤيا والفكر، فقد جعل الشاعر من الرّحلة لوحةً فنيةً رائعةً وبديعةَ الرّسم تنم عن ذوق فني رفيع، هذا من جهة ومن جهة أخرى دوّن فيها حياته ومعاناته وكفاحه ضد عدوان الدّهر وقوى الطبيعة.

---

1) ـ حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص 87. نقلاً عن: وهب رومية: الرحلة في القصيدة الجاهلية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 3، 1982م، ص 22.

2) ـ حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص 88.

3) ـ نفسه، ص 88.

ب. الرّحلة بعد الإسلام.

رغم ما في لغة الرحلة في العصر الجاهلي من حيوية وازدهار، سواء بما كان لهم من رحلات تجارية موسمية نحو الجنوب تارةً، ونحو الشّمال تارةً أخرى، أو بما عُرف به شُعراؤهُم من رحلات داخل الجزيرة أو خارجها، فإنَّهُ لا مجال لمقارنته بالعصر الذي تلاه، من حيث تطور الرّحلة وازدهارها.

لقد أحدث بزوغ نور الإسلام على الجزيرة العربية انقلاباً جذرياً، مَسَّ جَميع نواحي الحياة العربية، بل امتدَّ أيضاً ليشمل الأمم والشُّعوب المجاورة، وكان القرآن الكريم مُعجزةَ الإسلام الكبرى، وقد لعب دوراً كبيراً في إذكاء عزائم الناس في مواطن متعددة، وذلك بغيةَ حملهم على اقتحام غمار البراري والبحار، واكتشاف المناطق النائية البعيدة، واستطلاع أخبارها، ونذكر من ذلك قول الله ﷻ:﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**﴾[1]، وكذلك قوله: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾[2] وقوله أيضاً:﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[3] وفي قوله سبحانه: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾[4]، من الملاحظ أنّها دعوة صريحة من الله ﷻ للمسلمين للسّعي والسّير في الأرض، ومن الملاحظ أيضا أنّ أفعال الخِطاب القرآني جاءت بصيغة الأمر في أغلب الآيات، للتأكيد على أهمية القيام بالشيء، فهي دعوة للحركة والسّفر مع إلحاح في الطلب، مُقترنة في الوقت ذاته بضرورة تسلحهم بالنظرة الدقيقة وبالتالي إعمالهم العقل والبصيرة، حتى يتمكنوا من استخلاصِ العِبر والدُروس.

---

1) ـ سورة النمل، الآية 69.
2) ـ سورة غافر، الآية 137.
3) ـ سورة غافر، الآية 82.
4) ـ سورة الملك، الآية 15.

إنّ هذه الدعوات التي تحث المسلمين على الحركة والتّنقلِ من مكان إلى آخر، ليست عبثاً، وإنّما جاءت «تشجيعا لهم على تحمل مشاق السّفر، انتفاعاً ـ في البداية ـ بالخيرات ثم بعد ذلك تدريباً على حمل الرسالة ونشر الدعوة» [1]، وتبليغها لكافة خلق الله ﷻ في جميع أنحاء العالم.

لم تنل الرّحلة المكانة المستحقة لها في بداية الدعوة المحمدية، على الرغم مما أحيطت به من اهتمام بالغ من القرآن الكريم، والسّبب أنّ الصحابة كانوا في «شغل بالرّسالة وإرساء قواعدها وتثبيت أقدامها في الجزيرة العربية أولاً»[2]، فهذه المعركة تَطلبت منهم الالتفاف حول النبي ﷺ ومساندته في مواقفه وغزواته، فجاءت الرّحلةُ على نطاق ضيق يكاد لا يذكر، ومع هذا يمكننا «اعتبار الهجرة الأولى، التي قام بها نفرٌ من الصحابة إلى الحبشة، على رأسهم جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه رحلة، وكذلك الهجرة الثانية، وهي الهجرة الكبرى التي خرج بها الرسول ﷺ ومعه أبو بكر من مكة إلى المدينة حماية للدين ودعما له، فإنها تعد رحلة أيضا» [3].

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ من الرّحلات القلائل التي تمت في عهد النبي ﷺ، وقد حفظت لنا الكتب رحلتين اثنتين: تعود **الأولى** إلى الصَّحابي الجليل **تميم الداري**(40هـ - 661م)، وهو شخصية معروفة في التَّاريخ الإسلامي، ومختصر رحلته التي رويت على لسانه، أنّه خرج مع صحبه في سفينة، فتلاطم بهم البحر شهراً، حتى أرفأوا بجزيرة مهجورة، كانت مسرحاً لأهم أحداث الرّحلة، التي رأوا فيها **المسيح الدجال** رأي العين بعد أن كانوا قد التقوا بـ **الجساسة** وهي دابة كثيفة الشّعر، ستظهر في أخر الزمان، رغم ورود هذه الرحلة في صحيح مسلم[4] إلاّ أنّ كثيراً من الشّكوك تحوم حولها، ولسنا هنا بصدد الخوض فيها.

---

1) ـ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص 30.

2) ـ نفسه، ص 32.

3) ـ نفسه، ص 32.

4) ـ ينظر: مسلم بن الحجاج، القشري النيسابوري: صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412هـ - 1991م، ص 2262 - 2264.

أمـا **الرحلـة الثانيـة،** فتعـود إلـى الصـحابي الجليـل **عبـادة بـن الصّـامت** (ت 34هـ - 654م)، وقـد ذكـر أحـداثها يـاقوت الحمـوي فـي رحلتـه، وهـذه الرحلـة قـد رويـت أيضـاً عـن لسـان صـاحبها، الـذي خـرج فـي بعثـة سـنة 632 م إلـى الـروم، بغيـة دعـوة ملكهـا إلـى الإسـلام، وأحـداث القصـة تتعلـق بزيارتـه للـرّقيم الـذي يرقـد فيـه "أهـل الكهـف"، وكـذلك هـو الشّـأن حـول صـحة هـذه الرّحلـة التـي تعـددت فيهـا الرّوايـات، ممـا جعـل صـاحب كتـاب تـاريخ الأدب الجغرافـي العربـي، الرّوسـي **اغنـاطيوس كراتشكوفيسـكي (Ignatio Kratchkovski)** يشكك في صحتها بل ينفي وجودها من الأصل [1].

ومـع بدايـة عهـد الخلفـاء الراشـدين، وبعـد أن قويـت أعمـدة الـدّين الجديـد فـي شـبه الجزيـرة العربيـة، انطلقـت جيـوش المسـلمين برايـة الإسـلام إلـى مـا جـاورهم مـن بلـدان يفتحونهـا، فـدخلوا فـارس والشّـام ومصـر التـي كانـت بـوابتهم إلـى إفريقيـا، لكـن ورغـم مـا للعـرب مـن سـابق معرفـة بهـذه الأقطـار عـن طريـق التجـارة، إلاّ أنّ الرّحلـة فـي هـذا العصـر كـانت «هـي البطـل الأول فـي التمهيـد لهـذه الفتوحـات، ومـا كانـت الجيـوش الإسـلامية قـادرة علـى طـي القفـار، أو صـعود الجبـال وعبـور الأنهـار لـدخول الأقطـار والأمصـار إلاّ بفضـل الرّحالـة والتّجـار والملاحـين وهـواة الأسـفار» [2]، إن هـؤلاء وعلـى اخـتلاف طبقـاتهم كانـت نفوسـهم قـد امـتلأت بحـب الأسـفار إلـى الأمصـار والآفـاق البعيـدة، لاكتشـافها والوقـوف علـى مـا فيهـا مـن غرائـب وعجائـب، كـانوا عنـد عـودتهم يقصـون مشـاهداتهم أو يـدونون بعضـها فـي ملاحظـات، التـي تكـون ذخـراً للجيـوش الفاتحة.

من المؤكد أن دور الرحلة في بداية الفتوحات كان سابقاً للفتح، لكن هذا سرعان ما تبدل ليصبح تالياً للفتح، فبعد أن انضوت أقاليم كثيرة تحت لواء الدولة الإسلامية، اتسعت رقعتها، مما تطلب على القائمين عليها في «مسـألة إدارتها التّعرف التّام عليها لضـبط شـؤونها المالية والإدارية بتنظيم الإدارة والبريد والخراج خصـوصـاً وأنّ ذلك يرتبط بالطريقة التي تمّ بها الفتح ليتقرر على أسـاسـها مقدار الجزية والخراج، ومن ثمّ تحمل المؤرخون من أصـحاب

1) ـ أغناطيوس كراتشكوفيسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 55 - 56.
2) ـ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص 33.

السّير والمغازي مَهمة وصف المُدن وسُكانها وأحوالهم» [1]، مما انعكس إيجاباً على الرّحلة، فبلغَت ذروتها وارتفع شأنها وقيمتها، فبدأت المصنفات والمؤلفات بالظهور، على غرار كتاب المسالك والممالك **لابن خرداذبة** (820م – 912م) مع بداية القرن الثاني للهجرة.

ج. مسار تاريخ الرحلة.

إنّ المتتبع للرّحلة في التّراث العربي الإسلامي، يجدها قد مرت بفترتي ازدهار أساسيتين، تفصل بينهما فترة ركود، أما الفترة الأولى فتبدأ مع اتساع نشاط الفتوحات الإسلامية، أي مع بداية القرن الثالث الهجري (التاسع ميلادي)، لتمتد بذلك لحوالي ستة قرون، منتهية مع القرن التاسع الهجري (الخامس عشر ميلادي)؛ أما الفترة الثانية فكانت انطلاقتها مع بداية حركة النهضة الأدبية الحديثة مع مطلع القرن الثالث عشر الهجري الموافق للتاسع عشر ميلادي، لتستمر حتى الوقت الحالي [2].

المرحلة الأولى: لعل هذه المرحلة هي الأهم في تاريخ أدب الرحلة، إلاّ أنَّ أغلب الرّحلات ضاعت أو لم يدونها أصحابها، ولم تصلنا أخبارها إلاّ عن طريق شذرات ذُكرت في بعض الرّحلات التالية لها، فمع مطلع القرن الثالث الهجري تبرز كوكبة من الرحالة «الذين يمكن أن نطلق عليهم الرحالة الشفهيين» [3]، من أمثال **"سليمان التاجر"** و**"أبو زيد السيرافي"** و**"ابن وهب القرشي"** و**"محمد ابن موسى المنجم"**، هذا الأخير الذي قد كلفه الواثق برحلة إلى آسيا الصغرى لفحص كهف الرقيم الذي لجأ إليه مجموعة من الشباب، عرفوا باسم "أهل الكهف".

أما **"ابن خرداذبة والبلاذري وابن رستة وابن الفقيه والجيهاني"** فكانت معهم البداية الحقيقية للرحلة، فقد اهتموا بتقييد تجاربهم وتدوينها، وكان على رأس هؤلاء **"اليعقوبي"**، «الذي قام برحلات كثيرة امتدت شرقاً إلى الهند، وبلغت أقصاها غرباً برحلته إلى بلاد المغاربة والأندلس» [4] ليطوف بعدة أقطار مثل الهند

1) ـ حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1403هـ / 1983م، ص 10.
2) ـ ينظر: حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص 94 ـ 95.
3) ـ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص 72.
4) ـ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص117.

وأرمينيا والعراق والشام وفلسطين وشبه الجزيرة العربية ومصر والمغرب، فألف فيها كتابه " **البلدان**"، الذي تحرى فيه الأمانة والدقة والابتعاد عن ذكر الغرائب والعجائب، فكان بحق أبو الجغرافية العربية.

لم يؤثر الصّراع السّياسي والانقسام الداخلي في الدولة الإسلامية خِلَالَ القرن الرابع الهجري على النّشاط الرّحلي، بل إنّنا نجده من حيث حركة التأليف يمثل فترة النضج التام، إذ «تم في هذا القرن تشكيل ما يسمى بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية (...) وقد بلغ عدد الرّحالة في هذا القرن حداً كبيراً» [1]، نذكر منهم على سبيل المثال: "**ابن حوقل** و**المقدسي** و**الإصطخري** و**أبا زيد البلخي** و**المسعودي** و**ابن فضلان**".

وإذا أردنا أن نعرض لبعض هؤلاء، فإنّ **ابن فضلان** (ت 960م) هو المثال الأبرز للرحالة في القرن الرابع الهجري، فرحلته التي كانت في إطار بعثة «أرسلها الخليفة المقتدر عام 921م إلى بلاد البلغار حين كان ملكها قد طلب بعثة دينية بسبب دخول كثير من البلغار في الاسلام» [2]، لم تحتل هذه المكانة البارزة لسبقها في تقديم معلومات جغرافية ووصف دقيق لملامح الحياة في هذا العالم الجديد وحسب، بل وأيضا «بفضل السّرد التّحليلي للسمات الاثنوجرافية والانثروبولوجية لهذه المناطق»[3]، فضلاً عن قيمتها الأدبية، التي لا يمكن انكارها، فكانت نموذجاً رائعاً ورائداً للكتابة في أدب الرّحلات، «بأسلوبها القصصي السّلس ولغتها الحية المصورة التي لا تخلو بين آونة وأخرى من بعض الدعابة» [4]، فأصبحت بذلك مرجعاً لكل من جاء بعده، ورغب أن يحيط علماً بهذه البلاد.

كما يعدُّ **المسعودي**(283هـ /ت 346هـ) من بين أعظم الرّحالة أصالةً في زمانه، فقد قام منذ بداية القرن بعدة رحلات إلى الشرق تارةً، وإلى الغرب تارةً أخرى، فزار كلا من فارس والهند وبومباي ومدغشقر وعمان ومصر والشام وفلسطين...، مستغرقاً نحو نصف قرن من الزمن، لتمده هذه الأسفار بمادة معرفية

1) ـ أغناطيوس كراتشكوفيسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 177.
2) ـ حسني محمود حسين: الرحلة عند العرب، ص 11.
3) ـ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص 165.
4) ـ أغناطيوس كراتشكوفيسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 186.

غزيرة ساعدته على وضع الكثير من المصنفات الجغرافية، التي لم يحفظ منها إلاّ القليل، ولعل أبرزها مؤلفاته **"مروج الذهب ومعادن الجوهر"** الذي يقول في سبب تأليفه: « فإنّا صنفنا كتابنا في أخبار الزّمان، وقدمنا القول في هيئة الأرض، ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وأنهارها وبدائع معادنها وأصناف مناهلها، وأخبار غياضها، وجزائر البحار، والبحيرات الصغار، وأخبار الأبنية المعظمة، والمساكن المشرفة، وذكر شأن المبدأ، وأصل النسل، وتباين الأوطان... »[1]، الذي يعد اختصاراً لكتابين سبق له وضعهما، وهما: **"أخبار الزمان"**، والكتاب **"الأوسط"**، وكانا لا يوفران للقارئ الوقت أو الجهد أو المال للاطلاع عليهما لضخامتهما [2]، وهذا مما ينبئ باتساع أفقه وغزارة معارفه وخصوبة فكره.

ولم يكن القرن الخامس الهجري أقل شأنا من سابقه، فقد شهد العديد من الرحلات، وأول من يفتتحه من الرّحالة الطبيب **ابن بطلان البغدادي**(ت458 هـ) عام 404هـ، ويليه **البيروني**(362 هـ - 440 هـ) بكتابه الذي بلغ به ذروة التّميز وهو **"تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"** الذي يصفه المستشرق **"روزن"** بأنه «أثر فريد في بابه لا مثيل له في الأدب العلمي القديم أو الوسيط سواء في الغرب أوفي الشرق» [3]، وعلى الرغم من جغرافية هذا الكتاب إلا أنه لا يمكن «اعتباره كتابا جغرافيا بالمعنى الضيق للفظ ... فالمكانة الأولى عنده تحتلها الحضارة الروحية للهند ، وقليل من فصوله الثمانين يمس موضوعات جغرافية بحتة»[4]، إذن فالكتاب يتضمن آراء حول الديانة والحياة الفكرية للهند، فضلا عن المادة الجغرافية التي يحتويها من أنهار الهند ومنابعها وجبالها ووصف أقطارها المختلفة.

إنّ ما يميز أدب الرحلة في هذا القرن، شروع بعض المغاربة في دخول عالم الرّحلة، بعد أن كان حكراً على المشارقة، ومن هؤلاء **أحمد بن عمر العذري** (393

1) ـ أبو الحسين علي بن الحسين، المسعودي: مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة مصر، ط2، 2002م، ص 117.
2) ـ ينظر: فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص 216.
3) ـ أغناطيوس كراتشكوفيسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 245.
4) ـ نفسه، ص 255 - 256.

هـ - 478هـ)، الذي خلف رحلة بعنوان **"ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك"** [1]، **وأبو عبيد عبد الله البكري الأندلسي** (404 هـ - 487هـ) وقد خلّف مؤلفات مُهمة في مجال الجغرافيا المسالك والممالك، ومعجم ما استعجم من أسماء الأماكن والبقاع [2]

لقد تميز القرن السادس الهجري بقوة وأهمية الآثار التي خلفها الرحالة، ولعل أكثرها قيمة دون منازع في هذا المجال رحلة **ابن جبير**(540هـ - 614هـ)، الذي «اكتملت على يديه ملامح أساسية لأدب الرّحلة العربية، حيث حرص على تدوين مذكراته ومشاهداته يوماً بيوم، وتجنب ذكر الغرائب والعجائب التي كان غيره يميل إليها» [3]، ليتسع انتشار هذا النمط، ويصبح أكثر قبولاً عند الجمهور، فلم يعد الرّحالة مهتماً بتسجيل الجوانب الجغرافية المتعلقة بالبلدان التي زارها، على هيئة كتب المسالك، بقدر اهتمامه بسرد تجربته وذلك « بذكره لكثير من خصوصياته، ومشاعره، أفكاره، انتقاداته، مع تحول في الطابع الأسلوبي للكتابة كذلك، إذ أصبح أسلوباً سردياً، قصصياً، يتسم بالبساطة والسلاسة، وبهذا انتقلت الرحلة من الطابع العلمي إلى الطابع الأدبي» [4]، تنحو في اتجاه شكل السيرة الذاتية، إلاَّ أنّ **ابن جبير** لم يكن الأول من الناحية الزمنية في هذا الفن، بل الرحالة **أبو بكر محمد بن العربي**(468هـ - 543هـ) «فأول من وضع الأساس لهذا الفن حسب علمنا، وكان ذلك قبل نصف قرن من ابن جبير»[5]، باستخدامه لفظ رحلة في عنوان مؤلفه، الذي سماه **"ترتيب الرحلة"** ممهداً الطريق لمن يأتي بعده.

وإذا تجاوزنا القرن السادس الهجري، فإنّ العديد من مؤلفات المشارقة تلفت انتباهنا مثل: **"الإفادة والاعتبار" لعبد اللطيف البغدادي**(557هـ ــ 629هـ) و**"تاريخ المستبصر"**

---

1) ـ ينظر: نوال عبد الرحمن الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية (حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1427هـ - 2007م، ص 55.

2) ـ نفسه، ص56.

3) ـ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص 75 - 76.

4) ـ سميرة انساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، عين مليلة، دط، 2009م، ص 42.

5) ـ أغناطيوس كراتشكوفيسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 298.

ليوسف ابن يعقوب الدمشقي (601 هـ - 690 هـ) و**"عجائب المخلوقات" لزكريا القزويني**(605هـ - 682هـ)، ولعل أبرز إنجاز في هذه الفترة هو كتاب **"معجم البلدان" لياقوت الحموي** (574هـ - 622هـ)، وأهمية هذا المعجم حسب المستشرق **كراتشكوفيسكي** الذي يعده أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربي للعصور الوسطى، لأنّه «جامع للجغرافيا في صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضا، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والاثنولوجيا (Ethnology علم الأجناس والفصائل البشرية) والأدب الشعبي (Folklore) والأدب الفني»[1]، مما يكشف موسوعية هذا الرحالة.

أما الرحالة المغاربة الذين نافسوا المشارقة في التأليف، فنجد منهم الأديب الفقيه **محمد العبدري** (ت 700هـ) بمؤلفه **"الرحلة المغربية"** أو **"الرحلة العبدرية"** الذي «يصف فيه المغرب العربي ومدنه وطرقه وسبل عيشه وبعض طبائع أهله، كما يتناول علماءه وينقل للقراء بعض أخبارها كما كان سائدا في عصره» [2]، إذن فهذه الرحلة تحتوي بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مؤرخ، أو أديب أو جغرافي يريد أن يدرس هذه الفترة المهمة من القرن السابع الهجري.

وهكذا فقد شهدت القرون التالية رحالة كُثراً، أغنوا الأدب العربي بما كتبوه من رحلات من أمثال شمس **الدين الدمشقي**، و**رشيد الفهري** و**محمد التجاني** و**أبو الفداء**، والملاحظ عن هذه الرحلات أنها لم ترق إلى مستوى ما سبقها من رحلات، لاعتماد أصحابها على النقل من كتب الغير أكثر من التأليف.

إن كانت بداية هذه المرحلة المزهرة في حياة الرحلة على أيدي رحالة مشارقة، فإن خاتمتها كانت على أيدي أهم الرحالة المغاربة:

أولهم الرّحالة **ابن بطوطة** (703هـ - ت779هـ) الذي قطعت معه الرحلة شَوطاً كَبيراً على المستوى الأدبي، فضلاً عما احيطت به من اهتمام علمي.

---

1) ـ أغناطيوس كراتشكوفيسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 335.

2) ـ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص 465 - 466.

ومما لا شك فيه أنّ **ابن بطوطة** كان ينوي أداء فريضة الحج فقط، ولم يدر أنه لن تكتب له العودة إلى أرض الوطن إلا بعد مرور أكثر من ربع قرن، قاطعاً بذلك ما يجاوز مائة وخمس وسبعين ألف ميل [1]، جاب فيها الأقطار شَرقاً وغَرباً، مشكلاً بذلك رصيداً علمياً، ساعده على إنجاز وثيقة هامة عن حياة الأمة الإسلامية وأحوالها خلال القرن الثامن الهجري، لم تتضمن إلا ما رأى وما سمع وعاين فلم «يكن نقالة اعتمد على كتب الغير بل كان رحالة انتظم محيط أسفاره عدداً كبيراً من الأقطار» [2] إلاّ صفحات قليلة وسبب ذلك «أن وصف رحلة ابن بطوطة المعروفة باسم "تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ليس من تصنيف ابن بطوطة نفسه بل يمثل صياغة أدبية لروايته عملها الكاتب ابن جزي» [3]، إذن فمبنى الرحلة بمعظمه يعود إلى **ابن جزي**، أما مضمونها بما فيه من أفكار وسرد روائي يرجع بكليته إلى **ابن بطوطة**، فانعكس هنا دور **ابن جزي** في تحرير الكتاب ومحاولته جمع قصص **ابن بطوطة** المتفرقة في وحدة متماسكة، ووضعها في صورة فنية أقرب إلى النصوص الأدبية.

أما الثاني فهو العالم والسياسي والمؤرخ **عبد الرحمن ابن خلدون** (732هـ/808هـ) وتعد رحلته التي دونها في مؤلفه **"التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا"** آخر الرحلات المهمة في هذه الفترة، رغم أنّ الرّحلة في هذا الكتاب شغلت فيه المركز الثاني، بينما حاز استعراضه لسيرته الذاتية أغلب اهتمامه، ويظهر هذا جلياً من العنوان، حيث جعل عنوان الكتاب تالياً للتعريف بصاحب الرّحلة، إلاّ أنّ هذا لا يمنع من اعتباره «نصاً جيداً في أدب الرّحلة العربية ، إذ تعددت وتنوعت وكثرت مخاطرها، ولم تخلُ من الملاحظات الدقيقة الذكية ، التي لا نكاد نعثر عليها لدى غير هذه الشخصية»[4].

1) ـ ينظر: أغناطيوس كراتشكوفيسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 422.
2) ـ نفسه، ص 421.
3) ـ نفسه، ص 425.
4) ـ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص 80.

لقد استمر تفوق العرب في ميدان الرحلات حتى نهاية القرن الثامن الهجري، لتبدأ خلال القرنين التاسع والعاشر هجريين (15 و16 م) في الانحصار والتقلص تدريجياً، و«توقفت تقريبا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (17 و18م)»[1]، ليغرق العالم العربي في فترة من التأخر والرّكود الذي شمل جميع الميادين، ممتدة لأزيد من ثلاثة قرون، و نكاد لا نذكر من الرّحلات إلا **رحلة عبد الله العياشي** (980هـ/1051هـ) المسماة " **ماء الموائد**"، ورحلة **أحمد بن عمار** "**نحلة اللبيب في أخبار الحبيب** " ورحلة الحسين بن محمد الورثيلاني[2] المسماة "**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**" ، التي تعد بحق «موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر ميلادي (18هـ)» [3]

---

1) ـ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص 80.

2) ـ **الورثيلاني:** هو الحسين بن محمد السعيد الشريف بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف الورثيلاني، ولد عام خمسة وعشرين من الثاني عشر(1125هـ)، (1713م)، بقرية "**أنُــو**" من قرى بني ورثيلان، وهي قبيلة بالمغرب الأوسط قرب بجاية التابعة للجزائر، حفظ القرآن الكريم في زاوي جده، أخذ العلم عن والده وأشياخ وطنه، شد الرِحَال في طلب العلم، فزار بجاية، والجزائر، تلمسان، مليانة، البليدة، المسيلة، بسكرة، سيدي عقبة، سيدي خالد، عنابة. ثم قام بثلاث رحلات إلى البلاد المقدسة لأداء فريضة الحج والاتصال بالعلماء والفقهاء، فيما بين 1153هـ و1179هـ.

الحجة الأولى عام 1153هـ (1740م-1741م).

الحجة الثانية عام 1168هـ (1754م-1755م).

الحجة الثالثة عام 1179هـ (1765م-1766م).

وقد كتب الورثيلاني وألف في عدد من الأغراض والمظان، وشرح وعلق على مؤلفات غيره، **ومنها:** شرحه على المنظومة القدسية للإمام المحقق الشيخ المدقق عبد الرحمان الأخضري في التصوف، **ومنها:** شرحه على وسطى الإمام السنوسي، **ومنها:** شرحه على محصل المقاصد للإمام أبي العباس أحمد بن زكريا التلمساني، ومنها حاشية على كتاب المرادي، **ومنها** رسالة في شرح قول بعض الأولياء: وقفت على ساحل وقفت الأنبياء رداً على أسئلة طلبة تدلس، **ومنها**: ورسالة في شرح لغز صوفي للشيخ أحمد بن يوسف الملياني، نسجت برنساً من ماء وغطيت به من الأرض إلى السماء، الذي أرسله إلى علماء فاس فعجزوا عنه، **وله** قصيدة فيها خمسمئة بيت في مدح النبي ﷺ كالهمزية لكنّها ميمية، وأهم هذه الملفات كلها كتاب في الرّحلة، الموسوم بـ : نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار".

توفي في شهر رمضان عام ثلاث وتسعين من القرن (1193هـ) (1779م) وبعضهم قال: عام أربع وتسعين (1194هـ) (1780م)، بمسقط رأسه "أنو" ودفن في مقبرتها، على هذا عاش الورثيلاني ثمانية وستين أو تسعاً وستين سنة. **ينظر:** يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1995م، ص 44.

3) ـ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 (1500 - 1830)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م، ص398.

وستكون هذه الرّحلة - إن شاء الله - موضوع دراستنا في هذا البحث، وخلافاً للمرحلة التي سبقت، فإنّ الرّحلة في هذه الفترة قد «اقتصرت إلى حد كبير على زيارة استنبول عاصمة الخلافة العثمانية أو على الحج وزيارة الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية» [1] بعدما كان الرحالة في السّابق يجوبون الأوطان للعلم والاتصال.

لقد كانت بداية القرن التاسع عشر ميلادي (13 هـ) شاهداً على انبعاث الأمة العربية، معلنةً بذلك بداية حركة النهضة العربية، التي كانت رد فعل على حملة **نابليون بونابرت** (**Napoléon Bonaparte**) على "مصر" سنة (1798م)، فقد أحدثت هذه الحملة صدمة في الذهنية العربية، لما كشفت عنه من تطور الغرب في جميع المجالات، وتخلف العرب على كافة الأصعدة، ولعَلنا لا نبالغ إذا قلنا أنّ بداية بزوغ النهضة كانت بعد عودة الرّحالة المحدثين الذين «ارتحلوا من عالمهم الإسلامي إلى الغرب؛ وهكذا قصدوا أوروبا بغية الكشف عن سر تقدمها، والتّدبر في أمر ما يمكن أخذه عنها بما يساعد الأمة على النهوض من كبوتها والاستيقاظ من غفوتها الطويلة بهدف مواكبة العصر الحديث»[2]، ومن بين من ولى وجهه وجهة الغرب نذكر، **رفاعة رافع الطهطاوي** و**أحمد فارس الشدياق**، أمّا الأول فقد قيد رحلته في كتابه **"تخليص الإبريز في تلخيص باريس"** بعد أن «زار باريس وأقام بها مدة خمس سنوات كأحد أفراد أول بعثة علمية أرسلها محمد علي حاكم مصر ضمن برنامجه الإصلاحي الذي كان قد تبناه بعد خروج جيش نابليون من مصر» [3].

أمّا الثاني فقد ألف كتابين في الرّحلة، عندما سافر «إلى جزيرة مالطة وإلى فرنسا وبريطانيا، وقد أقام في الأولى مدة أربعة عشر عاما، وقضى أكثر من تسع سنوات في باريس ولندن، فوضع في رحلته الأولى الوساطة في معرفة أحوال

1) ـ حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص 15.
2) ـ حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص 95.
3) ـ حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص 69.

مالطة وفي سياحته الثانية كتاب "كشف المخبأ عن فنون أوربا"» [1]، ليحذو حذوهم فيما بعد كوكبة من الرّحالة المشارقة أمثال: شهاب الدين الألوسي، عبد الله فكري، سليمان البستاني وغيرهم كثير.

أمّا من جهة المغرب فتعد رحلة **"أقوم المسالك في معرفة أحول الممالك" لخير الدين التونسي** من الرّحلات الأبرز باتجاه أوروبا، التي بالرغم من باعثها السّياسي، إذ «أرسله أحمد باي تونس (من 1837 إلى 1900) إلى باريس سنة 1853 ليدافع عن مصالح الحكومة التّونسية في الدّعوى التي قد رفعتها على اللواء محمد بن عياد، وعاد خير الدين إلى تونس عام 1857» [2]، إلا أنّه استطاع أن يكشف الفجوة السّحيقة بين العالمين الغربي المتقدم والشّرقي المتخلف؛ وقد تزامنت هذه الرّحلة مع بعض الرّحلات في الجزائر مثل رحلة **محمد بن الحسن بن الفكون القسنطيني** إلى فرنسا، التي جاءت «ضمن تقليد جرت عليه سياسة الاحتلال في إشراك بعض الأعيان الجزائريين من مختلف المقاطعات في بعض المهرجانات الدولية في (فرنسا) والاحتفالات الوطنية الكبرى لتأثير عليهم، كي يكونوا رُسلها في كسب ود مواطنيهم لها» [3].

وعندما نصل إلى القرن العشرين فإنّنا نجد الرّحلة قد أصبحت أكثر نُضجاً والرّحالة أكثر عدداً، ومن أبرز هؤلاء:

حسين فوزي: ومن مؤلفاته في الرّحلة: سندباد مصر، سندباد في رحلة الحياة، سندباد في سيارة، سندباد عصري....

محمود تيمور: ومن مؤلفاته في الرّحلة أبو الهول يطير، الأيام المائة...

أنيس منصور: ومن مؤلفاته: حول العالم في 200 يوم، أطيب تحياتي من موسكو...

---

1) ـ حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص 85.

2) ـ نازك سابا يارد: الرّحالون العرب وحضارة الغرب (في النهضة العربية الحديثة)، نوفل، ط2، 1992م، ص 20.

3) ـ عمر بن قينة: اتجاهات الرّحالين الجزائريين في الرّحلة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون ـ الجزائر، 1995م، ص 247.

أمين الريحاني: المغرب الأقصى، الرّيحانيات، هذا إلى جانب رحلات طه حسين، توفيق الحكيم، فاروق خورشيد، صبري موسى... [1]

لم تكن الرّحلة الجزائرية في هذه الفترة في منأى عن الرّحلة العربية، فهي أيضا عرفت العديد من الرّحلات سوء أثناء فترة الاستعمار أو بعد الاستقلال ونذكر منها: **رحلة في القطار** لمحمد بن الحسن بن الشيخ الفكون القسنطيني، **في ثنايا الجنوب الوديع** عمر بن قينة، **رحلتي إلى الأقطار الإسلامية** للبشير الإبراهيمي، **ورحلتي إلى الجزيرة العربية** لأبي القاسم سعد الله، ولا ننسى أيضا محمد بوزوزو، وأحمد رضا حوحو، وتوفيق المدني ... إلخ

ولعل وقوفنا عند بعض رحلات القرنين التّاسع عشر والعشرين ميلادي (13هـ - 14هـ)، لم يكن إلاَّ على سبيل التّمثيل، لأنّنا إذا حاولنا أن نذكر كل رحلات هذين القرنين لاستشكل علينا الأمر وطال، مهما اجتهدنا في ذلك.

2) ـ أهمية أدب الرحلة:

إذا كان كل فن من الفنون القولية عند العرب ينقل لنا مجالاً من مجالات الحياة، فإنَّ الرّحلة كنمط يتعرض إلى جميع مجالات الحياة، وبهذا يكون الرّحالة العرب قد أدوا مهمةً سامية للأجيال القادمة، إذ تتضمن رحلاتهم مادة وفيرة ومتنوعة تهم الجغرافي والمؤرخ وعالم الاقتصاد والاجتماع وطلاب الأدب والدّين، فالرحلة معينٌ خصب لشتى العلوم، لذا «فلقد أثار هذا الأدب اهتماماً بالغاً بسبب تنوعه وغنى مادته، فهو تارةً علمي وتارةً شعبي، وهو طوراً واقعي وأسطوري على السّواء، تكمن في المُتعة كما تكمن فيه الفائدة، لذا فهو يقدم لنا مادةً دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها في أدب أي شعب معاصر للعرب» [2] وبهذه المميزات المتعلقة بأسلوب الرّحلة كفن قولي، وموضوعاته الشّمولية الغنية بما

1) ـ بيسمينة شرابي: الموروث الثقافي في أدب الرحلة الجزائري (نماذج من رحلات القرن العشرين)، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة البويرة، 2012م - 2013م، ص 50.
2) ـ اغناطيوس كراتشكوفيسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 25.

يوجد فيها من علم وأدب يمكننا اعتبار أنَّ للرحلات قيمتين عظيمتين: قيمة علمية وأخرى أدبية.

أ. القيمة العلمية

إنّ الكم الهائل من العلوم والمعارف الجغرافية والتّاريخية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية المدونة في الرحلات، هي خلاصة اتصال مباشر للرحالة بالطبيعة والناس وحياة، الأمم والأقاليم، فهو بذلك ينقل الكثير من الصور الجميلة والمشاهد المميزة لها ولطبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية، ملقياً الضوء على تاريخ هذه البلدان والممالك والدول وأفكار سكانها وعاداتهم وتقاليدهم التي قد تختلف، وقد تتفق مع عادات المنطقة التي جاء منها، فكانت بذلك مرجعاً رئيساً بين يدي المؤرخ والجغرافي على السّواء، فمثلاً عندما يصف الرّحالة الأقاليم والمدن والمسالك، ويتحدث عن مناخها وتضاريسها وعن توزع السّكان فيها، مما يعد من صميم الدراسات الجغرافية، فمن هذه الناحية يعد مرجعاً أساسياً للعالم الجغرافي المهتم بتلك الموضوعات وكذلك الأمر في بقية العلوم، ومن هذه الناحية تبرز أهمياتها والمتمثلة في «صقل المنهج، وتأكيد المشاهدة والمعاينة، الأمر الذي أوثق المرئيات وأكد حدوث الوقائع، هذا علاوة على ما وسعته الرّحلة من أفق ومدارك كل من الجغرافي والمؤرخ بسبب اتساع دائرة اتصالها بالبلدان والأقوام»[1].

إذن ليس من المبالغة في شيء، عندما نقول: إنَّ الرّحالة العرب قد قدموا خدمة جليلةً في دراسة أحوال البلاد العربية، لكن ماذا عن إفادتهم عن أخبار البلاد الأجنبية؟ إن ما يتفق عليه المؤرخون في كون «للرحالة العرب في العصور الوسطى فضل كبير قدموه للإنسانية كجغرافيين، ويتجلى في حفظهم ودراستهم للمادة الجغرافية الهائلة التي أورثها العلماء اليونان من أمثال **إسترابون** و**بلينيوس** و**بطليموس القلوذي** وغيرهم، للعصور الوسطى، واستفادتهم من هذه المادة استفادة كبيرة» [2] ويؤكد هذا القول ما كتبه المستشرق الرّوسي **فلاديمير مينورسكي**

1) ـ حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص 87.
2) ـ حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص 08.

(1877م-1966م): إنَّ «جغرافيي العرب ملأوا الفراغ، وسدوا الفجوة الزمنية بين عهد بطليموس العالم اليوناني وعهد ماركو بولو العالم البندقي» [1].

ب. القيمة الأدبية:

قد يختلج في ذهن أحدنا السّؤال التالي: ما هي الأساليب الفنية التي يوظفها الرحالة حتى يجعل من رحلته ذات قيمة أدبية؟ من الواضح أنَّ الإجابة عن هذا السّؤال تستدعي البحث عن أهم الدّوافع التي جعلت دارسي هذا الفن يصنفونه ضمن فنون الأدب.

إنَّ مضمون أي رحلة يكاد لا يخلو من «الأساطير والخرافات، وبعض المحسنات البلاغية، وجمال الأسلوب، وحسن التعبير، وارتقاء الوصف، وبلوغه حداً كبيراً من الدقة، علاوة على ما يستعين به ـ أحيانا ـ من أسلوب قصصي سلس، مشوق، وهذا هو الذي يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرّحلة ضمن فنون الأدب العربي»[2] ومعنى هذا القول أن الآلية الفنية التي تعتمدها الرّحلة في عرضها لمادتها هي التي تشكل قيمتها الأدبية الأولى، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تنويعها آلية العرض وأسلوبه، يخضع لتنويع الموضوعات وتعددها، وهذا ما يؤكده **حسني محمود حسين** في إطار حديثه عن هذا الموضوع إذ يقول: «برغم ما يتسم به أدب الرّحلات من تنوع في الأسلوب من السّرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره، فإنّ أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السّرد المشوق، بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى»[3] من الواضح أنّ الذي يعطي للرحلة قيمةً أدبية هو اعتمادها على عناصر أساسية واضحة في الأدب، وتتمثل في الحوار والوصف والسّرد، التي «ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترتقي بها إلى مستوى الخيال الفني» [4].

1) ـ حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص 98.
2) ـ سيد حامد النساخ: مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب للطباعة، القاهرة، د ت، ص8.
3) ـ حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص 8 ـ 9.
4) ـ نفسه، ص 8.

تعترض الرّحالة -في كثيرٍ من الأحيان-أحداثٌ ومواقفٌ أثناء سفره، فيعمد إلى ذكرها في مدونته، وتستدعي منه هذه العملية - لامحالة - الاستعانة بأسلوب السّرد، الذي يتيح له إعادة انتاج تلك الأحداث والوقائع التي عاشها على أرض الواقع، في شكل أدبي، فهو يعمد إلى تحويل المرئي والمحسوس بالنّسبة له إلى تصوير، وتصيير الغائب إلى ضرب من الحضور، فهو بالسّرد يقيم علاقة بينه وبين المتلقي، لتجعله مشاركاً للرّحالة في رحلته، فالقارئ يحس ويتفاعل ويشاهد ويتكلم ويسمع ويسير مع الرّحالة، معملاً في ذلك خياله.

إذن، بأسلوب السّرد يجعل الرّحالة من القارئ مصاحباً له في رحلته، ويعزز هذا الموقف ويجعل منه معايشاً له، بمزج وصف المَشاهد التي شاهدها، فالرّحلة «وصف السّفر من موضع إلى أخر، وما تقع أبصار المسافر من مشاهدات، وما يستطرفه من أخبار» [1]، ولجذبه نحوه أكثر، يعمد إلى وصف الجانب الذاتي الشعوري، فأحاسيس الرّحالة غير المستقرة وتتباين بين سعادة وغضب، فإذا سخط أو انزعج من شيء معين عبّر عن غضبه، محاولاً وضع القارئ في خضم الموقف، فقد كانت – مثلاً- تنتاب الرّحالة **(العبدري)** موجات من الغضب كلما دخل مدينة، فلم يعثر فيها على عالم يأخذ عنه، ولعل ذلك يشير إلى البعد النّفسي لشخصيته الصّريحة والباحثة عن التّطور والنّماء، وقد يتطور الموقف أحياناً لاستخدام أسلوب السّخرية والفكاهة بغية التّنفيس عن آلام النّفس وأحزانها.

ولهذا يلجأ الرّحالة لإيجاد التّعابير المفعمة بالمشاعر، التي توجد الطريق لنفسية المتلقي، الذي يتجاوب معها تجاوباً إيجابياً، لأنَّها «تتسق مع النّفس البشرية، فتشكل رافداً ثراً من روافد الفن والمتعة الأدبية» [2].

ومما يبرز للرّحلات قيمة أدبية إضافية، هو أننا نجدها تزخر بالعديد من القصائد الشّعرية متعددة الأغراض، وسواء أكانت هذه الأشعار التي هي من نظمه الشّخصي أو من نظم غيره من الشعراء المعاصرين له أو الماضين، وسواء كان

1) ـ حسين ناصر، أدب الرحلة، ص 132.

2) ـ نوال عبد الرحمن الشوابكة: أدب الرحلة الأندلسية والمغربية (حتى نهاية القرن التاسع الهجري) ، ص 53.

بـالأولى يسـعى لأثبـات قدرتـه وملكتـه الشـعرية صـرفاً عـن قدرتـه النّثريـة أو بالثانيـة لتأكيـد سـعة حفظـه واطلاعـه ودقـة معلوماتـه، فـإنَّ توظيفهـا فـي الرّحلـة بشـكلٍ عـام يخضـع لتـأثير المكانـة الأدبيـة العاليـة التـي يحتلهـا الشّـعر فـي الثقافـة العربيـة، فـاحتواء رحلته لعددٍ وافرٍ من الأشعار التي وظفها في سياقات مختلفة جعلتها ذات قيمة أدبية.

قـد يلجـأ الرّحالـة أحيانـاً للاسـتعانة بغـرض الوصـف فـي الشّـعر، خادمـاً لمـا يخـتلج فـي نفسـه مـن مشـاعر وأحاسـيس قـد أثـرت فيـه، ومـن بيـنهم الرحالـة **"ابـن سـعيد المغربـي"** الـذي رسـم صـورةً لواقعـة حـدثت لـه عنـدما زار القـاهرة، فكانـت ممزوجـة بمشاعر الغضب وروح النكتة، فيقول:

لَـقِـيْـتُ بِـمِصْـــرَ أَشَـــدَّ الـبَـوَارِ * رُكُـوْبَ الـحْـمَـارِ وَكَـحْـلَ الْـغُـبَـارِ**
وَخَـلْـفِـي مُـكَـارٍ يَـفُـوْقُ الـرِيَـاْ * حَ لَاْ يَعْرِفُ الرِفْقَ مَهْمَـاْ اِسْـتَطَـاْرْ**
أَنَـادِيْـهِ: مَـهْـلَاً! فَـلَاْ يَـرْعَـوِيْ * إِلَـى أَنْ سَـــجَـدْتُ سُـــجُوْدَ الـعِثَـارِ**
وَقَـدْ مَـدَّ فَـوْقِـيْ رِوَاْقَ الـثَـرَىْ * وَأَلـحْـدُ فِـيْـهِ ضِـــيَـاْءُ الـنَـهَـاْرِ** (1)

إنَّ ركـوب **ابـن سـعيد** الحمـار مضـطراً، والـرّكض بـه فـي أزقـة "القـاهرة" أدى إلـى اكتحـال عينيـه بالغبـار، ومـا زاده شـقاءً إسـراع المكـاري فـي غيـر رحمـة، رغـم اسـتجدائه لـه، ممـا أدى بـه للوقـوع أرضـاً، وتتكـرر تهـذه الظـاهرة مـع العديـد مـن الرحالة على سبيل المثال **العبدري** و**يحيى الغزال**.

قـد نجـد مـن الرّحالـة مـن يستشـهد بأبيـات مـن شـعر غيـره، تتناسـب بالضـرورة والموضـوع الـذي تطـرق إليـه، وهـذا يبـرز مـدى سـعة ثقافـة الرّحالـة الشّـعرية، ومقدرتـه علـى حفـظ الأشـعار المرويـة، وهـذا ممـا عـدّ «الـرحلات مـن المصـادر الهامـة التـي حفظـت الكثيـر مـن النصـوص الشـعرية مـن الضـياع، وربمـا تضـمنت نصوصـا لا توجـد في مصادر أخرى، وهو ما يضفي على الرّحلات قيمة أدبية كبيرة» (2).

1) ــ أحمد بن محمد، المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، بيروت، 1377هـ ـ1967م، ص340.
2) ـ نوال عبد الرحمن الشوابكة: أدب الرحلة الأندلسية والمغربية (حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، ص 276.

قد يلجأ بعض الرّحالة إلى تضمين الشّعر، ليس للاستشهاد بها في بعض المواقف فحسب، وإنَّما أيضا للتعليق عليها وإصدار أحكام نقدية، تعتمد على «الذوق في تمييز الجيد من الرّديء، ولم يكن ذوق المصنف فطريا يعتمد على الارتجال، بل كان ذوقاً يستند إلى ثقافة متنوعة ومقدرة على التدقيق والتمييز وإصدار الأحكام» [1]، التي لا تختص بالجانب الأدبي وحسب بل تتعداه إلى الجانب البلاغي والنحوي والعروضي.

تعرض **العبدري** في رحلته لتتبع ومناقشة انتاج العديد من الشعراء، مُصدراً في حقها أحكاماً نقديةً معتمداً على ذوقه الأدبي، ومن ذلك ما أورده من تعليق على قصيدة ابن خميس التلمساني البائية، التي مطلعها:

وَلَاْ تَحْسَبُوا أَنِّي على الدَهْرِ عَاْتِبٌ * فَأَعْظَمُ مَاْ بِيْ مِنْهُ مَاْ بِي**

وَمَاْ أَسَفِي إلّا شَبَاْبٌ خَلَعْتُهُ * وَشَيْبٌ أَبَى إلّا نِصَاْبَ خِضَاْبِ** [2]

إذْ قال: «هذه القصيدة مهذبة الألفاظ والمعاني، وألذ من نغمات المثالث والمثاني» [3]، إنّ **(العبدري)** هنا وقف عند ظاهرة أدبية مهمة، وهي ظاهرة (اللفظ والمعنى)، مؤكداً أنّ الشّاعر قد برع في نسج قصيدته، فجاءت ألفاظه مهذبة، تنسجم مع معانيها، ويتبين أنّه كان ينظر للإنتاج الأدبي بعين الناقد الملم بالظواهر الجمالية في النصوص، الباحث عن التوازن بين اللفظ والمعنى إلى أن يستدرك فيقول: «إلاّ أنَّ مقطعها قلق ناب، لا يلين ولو مضغ بضرس وناب، وليس يلتئم بما قبله ولا يمتزج، ولا يزال السمع به يقلق وينزعج، وقد زاولته أن يلتحم فأبى، كي يلتئم فنبا وقوله فما سما أو تخوم تراب الوجه فيه وإما تخوم تراب بتكرار إما بعد حرف العطف» [4]، لم يخف **العبدري** شعوره بعدم انسجام المقطع مع تأليف القصيدة، ويؤكد على أنَّ حكمه لم يكن متسرعاً، بل قد صدر بعد تدقيق وتأني وطول قراءة.

---

1) ـ علي إبراهيم كردي: أدب الرحل في المغرب والأندلس، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2013م، ص 103.

2) ـ محمد العبدري البلنسي: الرحلة المغربية، تق: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة ـ الجزائر، ط1، 1428هـ - 2007م، ص 32.

3) ـ نفسه، ص 34.

4) ـ نفسه، ص 34.

3) ـ الرحلة بين الفعل والخطاب:

إنَّ من الضرورة العلمية في البحوث ضبط مصطلحات ومفاهيم الدراسة، ومحاولة شرحها في إطارها العام، ومن هذا المنطلق وجب علينا تحديد معنى الرحلة وأدب الرحلة.

أ. الرحلة:

لقد فرضت البيئة العربية الصَّحراوية على العرب حياة البداوة والأسفار، فألفوها وتعايشوا معها، مما كون لديهم القناعة، أنّ التّرحال أو السَّفر «أصبح فضيلةً معترفاً بها، ورمزاً لعلو الهمة وكبر النَّفس، إذ لا ترضى بالقليل وتضع نصب عين العربي، مشاريع ضخمة رائعة، كما أصبحت الاستكانة في المكان الواحد، تعني الغنى الموروث الذي لا يحتاج إلى زيادة، أو تعني الصغار والضعة»[1]، لتزداد الرّحلة ارتباطاً بهم يوماً بعد يوم حتى عُرفوا بها، فكانت هي الحاضر الدائم في حياتهم المعيشية والفكرية والثقافية.

ولقد شغل المعنى اللغوي لمادة **"رحل"** حيزاً كبيراً في معاجم اللغة العربية، مما يؤكد على أهميتها، وهذا ليس بالغريب، باعتبار أنَّ حياة الإنسان العربي كانت قائمة على الرّحلة والارتحال منذ القديم، فجاءت معانيها متعددة مثلما نقف عليه في أشهر المعاجم اللغوية.

لقد جاء عن صاحب لسان العرب أنَّه قال في مادة "رح ل ": «رحل: الرَّحْل مركب للبعير والناقة، وجمعه أَرْحُلٌ ورحالٌ؛ قال طرفة:

جَـــــأْزَتِ البِيْدَ إلَـى أَرْحُلِنَـــــــــــاْ * آخِـــــرَ اللّيْـــلِ، بِيَعْفُورٍ خَـــــــدِرْ**

وأما الرّحَالة وهي أكبر من السّرج وتُغَشَّى بالجلود وتكون للخيل والنجائب من الإبل... والرِّحَالة سَرْجٌ من جلود ليس فيه خشب كانوا يتخذونه للركض الشديد، والجمع الرَّحائل، قال أبو ذؤيب:

---

1) ـ سعدي ضناوي: أثر الصحراء في الشعر الجاهلي، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1993، ص 165. نقلا عن: الطاهر حسيني: الرحلة في العهد العثماني (بناؤها الفني أنواعها وخصائصها)، مخطوط أطروحة الدكتوراه، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 2013م/2014م، ص 16.

تَغْــدُوْ بِـــهِ خَوْصَـــاْءُ يَفْصِمُ جَرْيُهـــا * حَلَقَ الرِّحَالْـــــةِ، وَهِـيَ رَخْوٌ تَمْزَعُ**

ويقال رَحَلْت البعير أرْحله رحلاً إذا علوته، ارتحلت البعير إذا ركبته» [1]

مـن الملاحـظ ارتبـاط لفظـة رحـل بالجانـب الاجتمـاعي ارتباطـاً وثيقـاً، مـن خـلال ذكـر الإبـل، ذلـك الكـائن الـذي مثَّـل بالنّسـبة للعربـي الوسـيلة التـي تعينـه علـى التـرحـال والسّفر، وسبب ذلك هو الحضور المادي لهذا الحيوان في حياة الإنسان العربي على مـدار اليـوم بأكملـه، مـن خـلال فعـل التنقـل، والحضـور الفكـري الـذي شـعل فكـره وتفكيره، الذي تجلى في الخطاب الشعري لديهم، من خلال إفراد عنصر لها في بناء القصـيدة الجاهليـة؛ ومـن الواضـح أنَّ مـا اشـتق مـن لفظـة "رَحَـلَ" مـرتبطٌ أساسـاً بالحركـة، ففعـل الركـوب يتطلـب بالضـرورة راكـب ومركـب ـ البعيـر كوسـيلة للنقـل ـ وهنا لا قيمة لهذين الأخيرين دون حركة.

ومـن مشـتقات مـادة "رحـل" «الترحيـل والإرحـال بمعنـى الإشـخاص والإزعـاج يقـال: رَحَـل الرجـلُ إذا سـار، وأرحلتـه أنـا. ورجـل رَحُـول وقـوم رُحَّـل أي يرتحلـون كثيـراً. ورجُـل رَحَّـال: عـالم بـذلك مُجِيـدٌ لـه» [2]، فجـاءت هنـا بمعنـى السـير، ويضـيف فـي موضـع آخـر «ناقـة رَحِيلـة أي شـديدة قويـة علـى السـير، وكـذلك جَمَـلٌ رَحِيـل وبعيـر ذو رُحلة ورِحلة أي قوَّة على السير ... وارتحل البعيرُ رِحْلةً: سار فمضى» [3].

كمـا وردت فـي موضـع آخـر بمعنـى الانتقـال مـن موضـع إلـى موضـع آخـر، «والتّرحـل والارتحـال: الانتقـال وهـو الرّحلـة والرُّحلـة. والرِّحلـة: اسـم للارتحـال للمسـير» [4]، ومـن معانيهـا أيضـاً فـي المعجـم نفسـه "السّـفر"، «**والرّاحلـة مـن الإبـل، البعيـر القـوي علـى الأسـفار والأَحمـال ... الرُّحْلـة السَّـفْرَة الواحـدة. والرحيـل: اسـم ارتحـل القـوم للمسـير**» [5]، وفـي معجـم مقـاييس اللغـة **لابـن فـارس** (ت395هـ) يؤكـد علـى معنـى السّـفر بقولـه: «رحـل: الـراء والحـاء واللام أصـلٌ واحِـدٌ يـدل علـى مضـي فـي

1) ـ جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، (مادة رحل)، ط 8، 2014، مج 6، ص 121 - 122.
2) ـ نفسه، ص 122.
3) ـ نفسه، ص 123.
4) ـ نفسه، ص 124.
5) ـ نفسه، ص 123 - 124.

سَفَر. يقال: رَحَلَ يَرْحَلُ رحْلَةً. وجملٌ رحِيل: ذو رحْلة (بضم الراء أو كسرها)، إذا كان قوياً على الرِّحلة، والرحْلَةُ: الارتحال، ورَحَّله، إذ أظعنه من مكانه» [1]، ويمكن إجمال هذه المعاني كلها في قول الفيروزآبادي في **القاموس المحيط:** «بعير ذو رُحلة، بالكسر والضم: قوِيٌّ على السيرِ... وارتَحَلَ البعيرُ، سار ومضى، وارتحل القومُ من المكانِ: انتقلوا، كتَرَحَّلوا، والاسمُ: بالضم والكسر، أو بالكسر: الارتِحالُ، وبالضم: الوَجهُ الذي تقصده، والسّفرَة الواحدة» [2].

إنَّ معاني مشتقات مادة "رَحَلَ" كثيرةٌ ومتعددةٌ، فقد جاءت بمعنى الركوب أو الاعتلاء والسّير والانتقال والمقصد الذي يراد السّفر إليه، وهي بهذا تتمحور حول حقل دلالي واحدٍ وهو "الحركة"، لأنّ «الرحلة في جوهرها حركة وانتقال» [3].

وعليه تجمع معاجم اللغة على أنّ الرّحلة «هي انتقال من مكان إلى مكان آخر» [4]، يقوم بها الرّحالة، ومهما كان دافعه وغرضه، ومهما كانت المسافة التي يقطعها، التي «قد لا تتجاوز مسافة قصيرة في بعض الأحيان، وقد تمتد وتطول حتى تغطي أطول المسافات بين المكان والمكان الآخر» [5].

ويُلاحظ مما تقدم في معنى الرّحلة، أنّه تمّ النّظر للرّحلة باعتبارها مفردةً تتحققُ كفعلٍ مادي في الواقعِ، ومن هذا المنطلقِ، نكونُ بصددِ عددٍ لا يُعدُّ ولا يُحصى من الرَّحلات التي أُنجزَتْ لكونِهَا «النَّشاط البشري الجسدي الممثل عادة في السَّفر والانتقال الذي دأب الإنسان على ممارسته منذ القدم» [6]، إلاَّ أنّها لم تصلنا ولم نعرف عنها شيئا، لأنَّ من قام بها لم يدونها نصاً، وباعتبار أنّ النّص نتاج وليد

1) ـ أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، شهاب الدين مهران بو عمرو، (مادة رحل)، دار الفكر، بيروت، 2005م، ص 446.

2) ـ مجد الدين محمد بن يعقوب، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 8، 1426هـ، 2005م، ص 1005.

3) ـ ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، دار النشر للجامعة المصرية ـ مكتبة الوفاء، القاهرة، ط1، 1415هـ ـ 1995م، ص 23.

4) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكونات السرد)، دار هومه، الجزائر، 2014م، ص 15.

5) ـ صلاح الدين الشامي: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، دار منشأة المعارف، الإسكندرية مصر، ط2، 1999م، ص 7.

6) ـ عبد الستار الجامعي: تحليل الخطاب (فصول في النظرية والتطبيق)، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2018م، ص106.

اللغـة، فهـو «الأثـر المـادي البـاقي علـى الـدّوام مـن أجـل وظيفـة، وغايـة أخـرى هـي الشّاهد إذا استدعى الأمر للدليل والبرهان للمحاجاة.» [1]

وعليـه فـإنّ حـديثنا عـن الرحلـة فـي مجـال بحثنـا يسـتوجب منـا التمييـز بـين معنيـين، الأول الرحلـة كانتقـال فـي المكـان أي بوصـفها فعـل وهـو معنـى لا يهمنـا بقـدر المعنـى الثـاني الـذي يهـتم بالرحلـة كونهـا تمثـلُ نصـاً لغويـاً أو خطابـاً مـدوناً ينطلـقُ مِـن تجربـةٍ خاصةٍ.

ب. خطاب الرّحلة:

إنَّ هـذا التمييـز الـذي وقفنـا عليـه فـي معنـى الرّحلـة، يوجهنـا أولاً نحـو البحـث فـي تحديـدِ ماهيـةِ الخطـاب لكـون الـنَّص حسـبَ **بـول ريكـور (Paul Ricoeur)** هـو: «خطـاب أثبتتـه الكتابـة، مـا أثبـت بالكتابـة إذاً خطـابٌ كـان بإمكاننـا أن نقولـه بالتأكيـد، لكننـا نكتبـه بالضـبط لأننـا نقولـه، التثبيـت بالكتابـة يحـل محـل الكـلام» [2]، فيصـير الـنّص شـاهداً وإنجـازاً رسـمياً للخطـابِ، وتحديـد ماهيـةِ الرحلـةِ باعتبارهـا خطابـاً متميـزاً بصفاتِهِ وخَصائصِه ثانياً.

إنَّ مصـطلح الخطاب كغيره من المصـطلحات التي تندرجُ ضـمنَ النقدِ الأدبي، لا يخلو من صُـعوبة في تحديد مفهومه، إلاَّ أنّه من خلال تحديدنا لمعنى النّص مثلما تقدم نكون قد قطعنا شـوطاً كبيراً في فهم معنى الخِطَاب، الذي يُعدُّ في الأسـاس «قرين النّص، أو الوجه الآخر من صـورته، حَيث لا يكون النَّص إلاَّ من خلال الخطاب، ولا يحفظ الخطاب سـوى النَّص.» [3]

لو عدنا أولاً إلى الأصـل اللغوي للخطاب لوجدناه مشـتقاً من الجِذْرِ الثلاثي (خ ط ب). ويعني «الخطـابُ: المخـاطبـة: مراجعـة الكلام، وقد خـاطبـه بـالكلام مُخـاطبـةٌ وخطـابـا وهمـا يتخاطبان»[4]؛ المَقْصُـودُ بالمراجعة في هذا السّـياق التّواصـل؛ والتّواصـل مرهون بتواجد طرفين اثنين على الأقل لتحقيقه، وبهذا المعنى نكون قريبين جداً من مفهومِهِ عند الدارسـين

1) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2017م، ص 71.
2) ـ نفسه، ص71.
3) ـ نفسه، ص74.
4) ـ جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور: لسان العرب، (مادة خ ط ب)، مج 5، ص 98.

المعاصرين، فيرى **إميل بينفنيست (EMILE VEN VENISTE) (1902م/ 1976م):** «بأنّه عبارةُ عن اللغة في حالة فعل، أو بوصفه اللغة بين شركاء التّواصل» [1] فبواسطة اللغة وفي حدود ما يحتاج إليه نظام التواصل يتم تبليغ رسالة المخاطب نحو المخاطَب فتؤدي بذلك مَهمتَهَا عن طَريقِ اللفظ، ومن هذا المنطلق يغدو «الخطابُ هو كل تلفظ يفترض متحدثاً وسامعاً، تكون للطرف الأول نية التَّأثير في الطرف الثاني بشكل ما» [2]، لهذا فإنَّ الرّحالة ـ باعتباره مُخَاطِباً ـ وهو يدون ما التقط من مشاهدَ أو ما عاين من أحداث رأي العين أو مرويات سمعها ممن التقى بهم وأعاد نقلها، فهو من هذا الموقع حسب النَّاقد **سعيد يقطين** بصدد « عملية تلفيظ لفعل الرّحلة»[3]، أي أنّ هذه المشاهدات و«بمجرد تدوينها بين دفتي سفر، فإنّها تتحول مباشرة من كونها مجرد فعل إلى خطاب» [4] تتأسسُ إذن الرحلةُ خطاباً بإعادة إنتاجِ الفعلِ إلى ملفوظ، فهي كفعل تشترك فيه مجموعة من الأشخاص، تدفع بهم الحاجة المشتركة للسَّفر، ومن هؤلاء فئة قليلة تعيد تحويل التجربة الفعلية للرّحلة إلى إنتاج لفظي، وهو هنا يتأسسُ عبر الرّحالة (المُرسل) إلى قارئ مفترض أو حقيقي (مرسل إليه) بحيث «ينجزه مرسل ينتج ملفوظاته وفق قواعد خاصة وغايات محدودة، تتعين في علاقتها بالمرسل إليه، وبين الفعل والخطاب مسافة زمنية، فالأول سابق والثاني لاحق: فالذات التي رأت أو ترى ليست هي الذات التي تتكلم هذا هو التَّمييز الاجرائي، لأنّه ذو طبيعة سردياتية، هو ما نقوم به للتفريق بين الرحلة وخطابها» [5] إنَّ ما وقفنا عليه من فرق بين فعل الرّحلة وخطابها، لا يعني أن لا علاقة تربط بينهما، بل على العكس، لأنّه لا يمكننا أن نتصور الرّحالة يُدون خطاباً لرحلة دون أن يلزمه ذلك القيام بها فعلياً، إلاَّ إذا كانت رحلة خيالية.

إنّه ليصعب علينا إيجاد تعريف دقيق للرّحلة باعتبارها خطاباً، شأنها في ذلك شأن بقية الأجناس الأدبية الأخرى كالرواية والشّعر...، نظراً لتعدد مضامينها وأساليبها، ولتداخلها مع خطابات أخرى، ما أدى إلى «صُعوبة القبض على تعريف

---

1) ـ عبد الواحد الحميري: ما الخطاب وكيف نحلله؟، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2009، ص19. نقلا عن: عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 76.

2) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص75 ـ 76.

3) ـ سعيد يقطين: السرد العربي (مفاهيم وتجليات)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 1433هـ ـ 2012م، ص183.

4) ـ عبد الستار الجامعي: تحليل الخطاب فصول في النظرية والتطبيق، ص107.

5) ـ سعيد يقطين: السرد العربي (مفاهيم وتجليات)، ص175.

يجمع في حده زخم الخصوصيات والتنويعات في النّصوص الرّحلية العربية» [1]، لقد نالَ إيجاد تعريف للرّحلة اهتمامَ عددٍ كبيرٍ من الأدباء واللغويين، فجاءت تارةً فضفاضة وسَطحية، يكتفي فيها صاحبُها بكلام عام، وتأتي تارةً أخرى تقترب من العمق والجدية، وإنّنا في هذا المقام نقف على استعراض أهمها:

مثل ما نجده في قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: عربي - إنجليزي - فرنسي؛ يقول هذا التّعريف: «أدبُ الرّحلات هو نوعٌ أدبي يقوم على وصف الأديب لما شاهده في رحلاته، من عمران، وأحداث، وأشخاص، وعادات، وتقاليد، وغيرها» [2]، الملاحظ على هذا التعريف أنَّه يخرج من الرّحلة العديد من الكتابات التي تندرج ضمنها، بسبب أن من كتبها ليس أديبا أو أنّ الجانب الأدبي فيه باهت.

كما نقف عند تعريف جاء في معجم المصطلحات الأدبية بأنَّ أدب الرّحلة هو «مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلدان مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، لتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلةً لمرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد» [3]، والمَقصودُ بالأدبية هنا، هو ذلك الإنتاج الذي يصف المشاهد مع اتكائه على طريقة فنية في الكتابة، فالأدبية هي أنّ الرّحلة «جنسٌ أدبي له من الصّفات والخصائص ما يكفي لتمييزه عن الأجناس الأدبية، كونه خطابا مخصوصا له منطقه الذاتي وبناؤه ومكوناته وعناصره، يجمع بين الإفادة عندما يخبرنا عمّا يراه، والإمتاع لما يرصد لنا ما هو عجيب، الأمر الذي يجعل الرّحالة يتقمص شخصية السّارد أو القاص» [4] وبهذه الصّفة البارزة فإنّ الذات تصبح هي المسيطر الأساسي، ولعل هذا يلمح من خلال تعريف الرحلة بكونها «كتابة تنتمي إلى النثر الفني نوعاً، وتستمد موضوعاتها من الرّحلات التي

1) ـ أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص 17.

2) ـ إميل يعقوب وبسام بركة ومي شيخاني: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: عربي ـ انجليزي ـ فرنسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م، ص25.

3) ـ مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1984م، ص17.

4) ـ سعيد بن سعيد العلوي: أوربا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، ط1، 1995م، ص14.

كانت إنجازاً فعلياً على أرض الواقع، يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده، وعاشه من أحداث ملونة بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم، وتقوم بتسلسل الأحداث وصفاً للعالم الحضاري والتَّاريخي والشَّخصيات المُهمة التي لقيها من حكام وعلماء وغيرهم، والوقائع التي تستحق الذكر» [1].

وقد نقف عند تعريف الباحث **ناصر عبد الرزاق الموافي** في كتابه **"الرحلة في الأدب العربي"** بقوله: إنّه «النثر الذي يصف رحلة - رحلات - واقعية، قام بها رحالة متميز، موازناً بين الذات والموضوع، من خلال مضمون وشكل مرنين، بهدف التواصل معا لقارئ والتأثير فيه» [2]، ونلاحظ أنَّ الناقد يشترط أن تكون الرحلة واقعية، بمعنى أنَّها حدثت بالفعل في الواقع مستبعداً بذلك من مفهومه الرحلات التي يكون مضمونها يعتمد على الخيال ويعني بها تلك التي لم تتحقق فيها بنية السفر الفعلية أي «تلك التي لم يقم بها مؤلفها فعلاً، فلا تدخل في مجال الرحلات مهما استند مؤلفوها إلى حقائق ووقائع نقلت إليهم ومن أمثلة تلك الرحلات الخيالية (التوابع والزوابع) **لابن شهيد** و(رسالة الغفران) **لأبي العلاء المعري**

ويتقاطع تعريف **إنجيل بطرس** مع التعريف السَّابق في وضع الواقعية كشرط أساسي مع زيادة تفصيل، يتمثل في وضع شروط يجب توفرها في تسجيل المشاهدات وهي: الدقة والصّدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير، وهو ما يقول فيه بأنّ أدب الرحلات: «هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدون وصفا له، يسجل فيه مشاهداته، وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير» [3]، لكن ورغم أهمية هذه الشروط، لا تعدّ محددات للرحلة، فحتى بغيابها عن بعض النماذج الكتابية تعد رحلات.

---

1) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكونات السرد)، ص 16- 17.

2) ـ ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الادب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص41.

3) ـ محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية (بين المعرفي والأدبي)، مختبر البحث في التراث والأعلام والمصطلحات، الرباط، ط1، 1433 هـ ـ 2012م، ص30. ينظر: الرحلات في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، العدد 7، يوليو 1975، ص52.

ويمكـن أن نخلـص مـن هـذه التعـاريف إلـى وضـع أهـم الأسـس التـي تعتمـد عليهـا الكتابة الرحلية:

1/ الرّحلـة فـنٌ نثـري، لـه أصـولُه وقواعـدُه تكفـل تماسـكه ووحدتـه مـن جهـة ومـن جهة ثانية توفر له مرونة وقدرة على التطور.

2/ يقوم تلفيظ الرحلة بالأساس على فعل واقعي في مكان وزمان معينين.

3/ إنّ من يصف المشاهد ويروي الأحداث هو الرحالة ذاته صاحب الرحلة.

4/ يهـدف الرحالـة مـن خـلال تواصـله مـع القـارئ (المرسـل إليـه) إلـى التـأثير فيـه، من خلال إكسابه ثقافة ومعارف جديدة.

5/ يتمحـور الوصـف حـول الموازنـة بـين الـذات والموضـوع أي بـين شخصـية الرحالة والرحلة.

إنَّ أدق وأشـمل تعريـفٍ يمكـن أن يجمـل النقـاط السّـابقة مـا اقترحـه **محمـد الحـاتمي** بقولـه: «الرحلـة خطـاب تنشـئه ذات مركزيـة، هـي ذات الرحالـة، تحكـي فيـه أحـداث سـفر عاشـته، وتصـف الأمـاكن المَـزُوْرة، والأشـخاص الـذين لقيـتهم، ومـا جـرى معهم من حديث، وغايتها من الحكي إفادة القارئ وإمتاعه» [1].

خلاصة القول:

- لـم تكـن الرّحلـةُ شـيئاً طارئـاً فـي التّـاريخ العربـي، حيـث إنَّ المتصـفح لسـجلات هـذا التّـاريخ لواجـد أن العـرب مجبولـون علـى ممارسـة هـذا النشـاط المخصـوص منـذ الجاهلية مروراً بصدر الإسلام وإلى يومنا هذا.
- مـرت الرحلـة بعـد الفـتح الإسـلامي بمـرحلتين هـامتين وقـد بلغـت ذروتهـا وارتفـع شـأنها، مـع ظهـور عـدد مـن الرحالـة المشـارقة والمغاربـة، كـان اتجـاه الرحالـة فـي المرحلـة الأولـى علـى العمـوم نحـو العـالم الإسـلامي، إمّـا لأهـداف دينيـة، وإمّـا لأهـداف تعليميـة علـى العمـوم خاصـة عنـد المغاربـة، أمّـا فـي المرحلـة الثانيـة فقـد عرفـت توجهـا شبه كلي نحو الغرب وذلك بغرض تنوير الأمة وتوعيتها.

1) ـ محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية (بين المعرفي والأدبي)، ص 30. مش

▪ للرحلة أهمية كبيرة، بفضل ما تحتويه من مادة وفيرة ومتنوعة، تهم الجغرافي والمؤرخ، كما تهم الأدباء والباحثين في كل المجالات.

▪ تتميز الرحلة باعتبارها أولاً **نشاطاً** بشرياً يتمثل في الانتقال من مكان لآخر، وثانياً **خطاباً** مدوناً ينطلق من تجربة فعلية خاصة، وهذا الأخير هو ما يمنحها هُويتها الإجناسية المخصوصة، وهو ما يميزها تمييزاً قطعياً عن الرّحلة كفعل باعتبارها حركة في فضاء وزمان معينين.

ثانيا: الرّحلة الورثيلانية بواعثها، تدوينها، مسارها.

1) - بواعثـــها:

إنَّ نفس الإنسان بطبعها ميالة للسكون والرَّاحة، وهذا مخالف لطبيعة الرّحلة، التي دأب الإنسان العربي على تجشم مشاقها ومعاناتها منذ أزمان غابرة، ليس هذا وحسب، بل قد شهدت الفترة الإسلامية من حياة العرب - فضلاً عَنْ حياةِ الجاهلةِ - ازدهاراً واسعَ النطاقِ لهذه الظاهرة، فكثرَتْ الرحلات المدونة وتنوعَتْ، مما يبعثُ على التساؤلِ عن الدوافعِ الحقيقية لهذه الرَّحلات وبواعثها، فلا يكون الأمرُ مبرراً منطقياً إلاَّ إذا وُجدَتْ أسبابٌ حثت الإنسانَ ودفعَتْ بهِ إلى اقتحام عالم الرّحلة وخوضِ غمارها.

يرى **ناصر عبد الرزاق الموافي** أنَّ الرّحلة يحركها «ويخرجها شيئان:

1 - دوافع ذاتية.

2 - أسباب عامة.

الدوافع الذاتية هي الأساس الذي تُبنَى عليْهِ الرّحلة، ثُمَ تأتي الأسباب الظاهرة والعامة لتكون مبرراً مقبولاً لِهَذه الرحلة» [1]، وقبل تَطَرُقِنَا لمحاولة حصر أهمِ هذه

1) ـ ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الادب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص26

الأسباب والدوافع، كانَ من الواجبِ علينا هنا مَعرفةُ أَهمِ أَنواعِ الرّحلات، لأنَّهُ «غالباً ما يكونُ دافعُ الرحلةِ سَبباً في تَصنِيفِهَا» [1].

لقد شدَّ تصنيف أنواع الرَّحلات العَربية اهتمام الباحثين والنُقَّاد المُعاصرين، وراح كُلٌّ واحدٍ منهم يحتكمُ لمنهج مُعين، فجاءت تصنيفاتهم مختلفة اختلافاً بيناً وذلك لاختلاف مناهجهم، إلاّ أنَّ أهم هذه التَّصنيفات ما جاء به **صلاح الدين الشامي** في كتابه الرّحلة عين الجغرافية المبصرة، إذ قسمَ الرحلة إلى ستة أنواعٍ، وقد حدد ثلاثة أنواع منها ظهرت قبل الإسلام:

1/ رحلة التجارة 2/ رحلة الجهاد* 3/ رحلة السفارة

وثلاث رحلات جديدة أضافها الإسلام هي:

4/ رحلة الحج 5/ رحلة طلب العلم 6/رحلة التجول والطواف. [2]

والمتأمل في هذا التقسيم يجد أنّه أقرب للحقيقة والواقع، باعتبار أنّ الرّحلة صنيعة حضارية، فسعي الإنسان في الحياة مبنُّي في الأساس على تلبية رغباته التي تحددها طبيعة الأفق الحضاري العام، وأمام محدودية البيئة العربية قبل الإسلام، فرضت على الإنسان العربي بعض الدواعي والبواعث أن يلبي حاجاته عبر رحلة التجارة وحاجاته العسكرية عبر رحلة الحرب، وحاجاته السياسية عبر رحلة السفارة؛ إلاّ أنّ التّحولَ الأعظم شهدته الفترة الإسلامية، هذا التّحول كان له الأثر البالغ على جميع مجالات الحياة، أمّا بالنسبة مجال الرّحلة فبالإضافة إلى محاولته المحافظة على الأنواع السّابقة للرحلة أدخل بعض التعديل الذي مس مفهوم الحرب ليتحول إلى الجهاد، كما استحدث أنواعا أخرى للرحلة ، كانت بواعث عديدة دفعتها نحو الظهور.

ولسنا هنا بتعديد تصانيف أنواع الرحلات لهؤلاء النقاد والباحثين [3]، بقدر ما نحن بصدد الإحاطة بأهم بواعث الرّحلة العربية والمغاربية بالخصوص، ملقين

---

1) ـ علي إبراهيم كردي: أدب الرِّحل في المغرب والأندلس، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2013، ص12.

* باعتبار حركة الجيوش وتنقلها رحلة كبرى انتقلت تسمية رحلة الحرب في الجاهلية إلى رحلة الجهاد في الإسلام.

2) ـ ينظر: صلاح الدين الشامي: الرّحلة عين الجغرافية المبصرة، ص 111 - 118.

3) ـ ينظر: ناصر عبد الرزاق الموافي: الرّحلة في الادب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص 31- 33.

الضوء عبر هذا البحث على بواعث الرّحلة الورثيلانية باعتبارها محور دراستنا، معتمدين فيها على التقسيم الآنف الذكر مع شيء من التعديل والتفصيل، وانطلاقاً من هذا يمكننا أن نُصنفَ هَذِه الدوافع والبواعث إلى:

أ. الباعث الديني.

❖ الحج.

لقد كانت فريضة الحج منذ القديم أهم البواعث، التي دفعت بالمسلمين إلى الحركة والانتقال، فشدوا الرِّحَال من كلّ حدب وصوب ـ كما أمرهم الله ﷻ ـ نحو الحجاز والبقاع المقدسة، فالحجُ رحلةٌ مازالت إلى يومنا هذا، يتشوق كل إنسان مسلم إلى أدائها، فضلا عن علماء هذه الأمة وفقهائها، وعلى هذا الأساس «تحتل الرحلة الحجازية إلى الأماكن المقدسة المرتبة الأولى بين الرحل، لأنَّ هذه الأماكن تتمتع بمكانةٍ عاليةٍ عند المسلمين في كلّ الأصقاع» (1)، بصفة عامة والمغاربة بصفة خَاصة وذلك لِمَا كانت تتمتع به المجتمعات المغاربية من تمسك بالقيم الروحية، وبما عُرفوا به من رغبتهم في الأخذ عن الشّيوخ وزيارة الأماكن المقدسة وجولاتهم من أجل الاطلاع والبحث.

فكان هذا الباعث السَّبب الرَّئيس والأول الذي استقطب أغلبية الرّحالة المغاربة المتوجهين إلى المشرق الإسلامي، «فالرّحلة إلى المشرق كانت تعني الحج في الأساس، إذ المتعارف عند المغاربة إلى الآن أنّهم يقولون ذهب إلى الشّرق ويعنون تأدية فريضة الحج، فالهدفُ الأول من الذهاب إلى الشّرق هو الحج وزيارة البقاع المقدسة» (2)، ويقتضي هذا أيضاً زيارة قبر الرَّسول ـعليه الصلاة والسلام-، والمزارات الدينية الأخرى، كالمسجد الأقصى وقبور الأنبياء والصَّحابة والأولياء، في كل من "بغداد" و"دمشق" و"القاهرة" وغيرها.

---

1) ـ علي إبراهيم كردي: أدب الرحل في المغرب والأندلس، ص 12.

2) ـ الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، الرباط، 1990م، ج 1، ص 69.

وقد كان أساس خروج الرَّحالة **الحسين الورثيلاني** في رحلته إلى المشرق هو أداء فريضة الحج، إذْ يقول في رحلته: «**اعلم أيّها الأخ، لما أرادَ الله المشي منّا إلى الحج، وقد سبق في عِلْمِ الله أَنْ يكون حجّنا في عام تسعة وسبعين ومائة وألف[1179هـ/1766م]، مع إجابةٍ وتلبيةٍ للخليل -عليه السلام- حين قال له الله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق﴾ (الحج: 27) حَدَثَ لنا العزم بإذن الله تعالى**» [1]، فحج، وسمع من بعض علماء "مصر"، ثم عاد إلى الجزائر، وكانت رحلته عبر البرِ، وهذا يعطينا صورةً حيةً عن قوافل الحج البرية، وكيف كانت تسير عبر الطرق والمحطات التي كانت على امتداد الطريق، ليتوقف الرَّكب فيها طلباً للرَّاحة والتَّزود بالمؤن والماء، كما وصف المدن والبلدات والقرى التي مرّ بها موضحاً الحالة الاجتماعية والعلمية والثقافية السَّائدة في تلك الأماكن في القرن الثاني عشر الهجري.

إذا كان الحج أقوى البواعث الدينية لشد الرِّحَال قديماً وحديثاً، فهو أيضا أهم الوشائج التي وصلت بين المشرق والمغرب، وساهمت بشكلٍ كبيرٍ على تعميم الثقافة الإسلامية في كافة أقطار البلاد، فقد كان ما يحصل من تعارف بين معتمري بيت الله الحرام لاختلاف قومياتهم وشعوبهم، خاصةً بعد اتساع دولة الإسلام عاملاً «على تبادل المعلومات وأخبار البلدان بعجائبها وغرائبها، فرغب المسلمون في السَّفر» [2]، ولم يثن الحجاج المغاربة بُعد المسافة عن الحجاز واتساع مساحة الدولة عن الاقبال على الحج، فكانوا يتحملون مشاقَ الطريقِ ومخاطرها، إضافة إلى مكابدة الإحساس بالغربة والبعد عن الأهل والأصحاب، وكل هذا عن طيبة نفس وخاطر، حتى أنّ الواحد منهم يقوم بأداء هذه الفريضة مرات متعددة إذْ «لا يقنع برحلة واحدة إلى الحج، ولكنه بمجرد أن يعود إلى أرضه، تتأجج نار الشَّوق لديه

1) ـ الحسين بن محمد الورثيلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (المشهورة بالرحلة الورثيلانية)، تح محمد خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2017م، ص 11.
2) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكونات السرد)، ص17.

فيشد الرِّحَال من جديد» [1]، كما هي حال **الرَّحالة الورثيلاني** الذي أدى «فريضة الحج ثلاث مرات:

- الحجة الأولى عام 1153هـ /1740م.

- الحجة الثانية عام 1166هـ / 1752م.

- الحجة الثالثة عام 1179 - 1181هـ /1766 - 1768م» [2]، وقد مكنته هذه الرحلات من توسيع ثقافته وتجاربه وتنمية معارفه خاصة أثناء إقامته بتونس ومكة والقاهرة، فأخذ عن شيوخها أمثال: البليدي والحفناوي والجوهري وخليل الأزهري.

ولا يفوتنا هنا ذكر أهم الأسباب والعوامل التي جعلت من المغاربة يكثرون من رحلات الحج، وأهمها:

▪ ما كان سائداً من مناخ روحي في المجتمعات المغربية التي تضع الدّين في المرتبة الأولى، ولعل هذا ما يؤكده **الورثيلاني** في قوله: «**اجتمع سيّدي أحمد الطّيب مع أخينا في الله سيدي أحمد بن حمّود وسيدي مهنَّا، وكلّهم ذوو الفضل والعلم والصّلاح في دارِنَا، فأخذوا في حديث الانتقال من الوطن، فتوقَّى بهم الكلام إلى التّحدثِ على الحجّ سنَةَ**» [3] يكشفُ لنا عن المَيلِ الفطري للإنسان المغربي وحرصه الشَّديد على إرضاء عاطفته الدينية.

▪ بالإضافة إلى ذلك، يعد ما اتسم به موقف الملوك والخلفاء من التشجيع لكل من يرغب في حج بيت الله الحرام سبب أسهم في الإكثار من الحج، فقد ورد في العديد من مصادر الكتب أن الحكام والسَّلاطين قد أقاموا على الطريق الكثير من المنشآت لخدمة الحجاج، وعهدوا إلى الجنود تأمين طريق الحج وحماية سالكيه.

▪ ومن العوامل أيضاً استحداث ركب الحج الذي كان سبباً مساعداً ومشجعاً للمغاربة على الرّحلة للحجاز، وأداء فريضة الحج أكثر من مرة، وكان هذا ما زاد

1) ـ الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ص69 70.
2) ـ حيفي هلايلي: (الجزائريون والرحلة إلى الحجاز على ضوء رحلتي الورثيلاني وأبو راس الناصري)، مجلة الشهاب الجديد، السنة السابعة، ع07، 22 ربيع الأول 1429/ 30 مارس 2008م، مج 07، ص 23.
3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 12.

مـن عـزم **الـورثيلاني** وأصـحابه وقـوّى مـن هممهـم علـى الارتحـال إلـى الحـج لمـا سـمعوا بركـب الشّـيخ **محمـد المسـعود** وهـو مـن أمـراء مدينـة "الجزائـر"، وكـانوا جميعـا قـد تواعـدوا معـه مـن قبـل علـى السَّـفر، فقـال فـي هـذا: «**وإنَ العهـد مـع سـيدي محمّـد المسـعود موثـوق فعقـد الجميـع النّيـة وعزمـوا علـى الحـج جزمـاً، وكـان عزمـي بعـزمهم غيـر أنّ عزمـي لـم يَتَقَـوَّ ذلـك العَـامَ، إلّا إذا ذهبـوا، فأذهـبَ معهـم قطعـا -إن شـاء الله تعـالى- وبعـد ذلـك أظهـرَ الجميـع عزمـه إلـى الحـجّ، وأنـا أقـول عزمـي علـى عـزمهم، فأعـان الله الكـلّ فحجّـوا وقَضَـوْا مناسـكهم حـالَ الحيـاة -تقبـل الله مـن الجميـع-** » [1] وكانـت جمـوع الحجـاج تـنظم إلـى قوافـل الرَّكـب التـي «تبـدأ صـغيرة ثـم تنمـو كلمـا تقـدم بهـا الطريـق، بمـا ينضـم إليهـا مـن وفـود، حتـى يصـبح فـي النّهايـة للعـراق حجيجـه، وللشـام حجيجـه، ولأفريقيـا حجاجهـا، وتسـير القافلـة فـي ألفـة ونظـام وتعـاطف شـامل يحميهـا جنـود الحـاكم ويرحـب بـه سـكان المـدن والقـرى فـي معظـم الأحيـان» [2]، ويقـول **الـورثيلاني** واصـفاً هـذا المشـهد: «**أتـى النّـاس إلـى الركـب مـن كـل فـج عميـق إذ اجتمعـت الأركـاب كلهـا هنـاك، وأقـاموا يومـاً صـحيحاً فـي شـرهة عظيمـة ونزهـة كبيـرة**»[3] وكـان يـزداد التّرحيـب بالرّكـب كلمـا رافقـه عـدد أكبـر مـن العلمـاء ورجـال الـدين والفضـلاء، بـل حتّـى أنّـه يصـبح محفـزاً علـى الحـج، ويقـول **الـورثيلاني** فـي رحلتـه: «**فلمّـا سَـمع النَّـاس مـن "عمالـة الجزائـر" بحـجّ هـؤلاء الفضـلاء، ونخبـة العلمـاء، حـرّكهم ذلـك إلـى شَـدِّ الرّحـال إلـى "بيـت الله الحـرام" مـن كـلّ بلـد، ووقـع الضّـجيج مـن عامّـة المسـلمين ومـن خاصّـتهم وذلـك مـن الحاضـرة والباديـة، حتّـى ذهب جميعهم بنسائهم وأولادهم**» [4].

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 14.

2) ـ محمد محمود الصياد: رحلة ابن بطوطة، مج 03، مجلة تراث الإنسانية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة، نقلا عن: حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص 80.

3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 464.

4) ـ نفسه، ص 15.

ــ كما تُعد طبيعة علاقة المغاربة بالمشرق سبباً مساعداً أيضاً، لا يقل أهمية عن العوامل السابقة، فكانت ودية بين الطرفين، مع سعي كل طرف إلى تمتينها وتوطيدها.

❖ السّياحة الصوفية.

وقد يندرج ضمن هذا الباعث الديني، ما اتجه إليه الكثير من المتصوفة وخاصة المغاربة، فخرج أغلبهم في رحلات صوفية أطلقوا عليها السياحة، وقد كان الزهدُ سبباً رئيساً في شيوعها، وهي «جولات يتوخى الرحالة منها كشف الحقائق، والإجابة عن التساؤلات فيشد الرِحَالَ في سياحةٍ طويلة للعثور على شيخ يوجهه في مسيرته الرُّوحية، ويأخذ عنه أصول الطريقة» [1]، وكما يتعلق هدف هذه الرّحلات في الغالب، الاتصال بشيوخ المتصوفة الأحياء للتبرك بهم أو مصاحبتهم للتعبد معهم والاقتداء بأخلاقهم، فإنَّهُ يتعلقُ أيضاً بزيارة الأموات منهم، وقد خرج **الورثيلاني** قبيل رحلته الحجية، في رحلة داخلية، قادته إلى العديد من نواحي الوطن فزار شيوخ الزوايا وقبور الصالحين والأولياء، ويقول مبيناً سَبَبَ زيارته لقبر أحد الصالحين: **«ولَمَّا زرنا قبر الشّيخ، وسألنا الله بجاهه أنْ يَمُنَّ بما فيه رضاه من السَّفَر، وأنْ يُيَسِّرَ علينا أَمْرَهُ، وأنْ يجعله مقبولاً مع الأخذ في الاستخارة الشَّرعية، وبالجملة، فقبرُ الشَّيخ ترياق مجرّب»** [2].

وكانت هذه عادته مع هؤلاء في أي مكان نزل به، وهذا مما يعكس شدة احترامه لهم، ويظهر مدى تواضعه أمامهم وتقديره لهم، وهذا شأن الخاصة فضلاً عن العامة، إذْ «أصبح التبرك بالأولياء والأضرحة يعتبر من القربى، يلجأ النَّاس إلى أضرحتهم كلما حلَّ بهم أمرٌ، أو شعروا بضيق أو طلبوا فرجاً من كربة أو أرادوا أن يستخيروا في أمر لم يهتدوا فيه إلى جواب شاف» [3]، وهذا يعكس روح هذا العصر وما ساد في تلك الفترة من اعتقاد الناس بنفعهم وتعلقهم بهم، فعمت

1) ــ الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ص72.
2) ــ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 19.
3) ــ الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ص72

بـركتهم كـل مـن حـولهم، ويقـول **الـورثيلاني** فـيمن قصـد وليـاً: «**لحاجـة دنيويّـة أو دينيّـة يُعْطِـي لِوُكَلَائِـه وطلبـة مقامـه شـيئا معلومـا، إذْ كـل حاجـة بمـا تُشـترَى مـن القـدر المعلـوم تُقْضَـى بـإذن الله تعـالى، وفضـل الله علـيهم عظـيم، وصـبغة الله عليـه جاليـة، وزائـره مقبـول، وقبـره دواء ربّـانيّ، وطِـبٌّ إلهـي**» [1]، ولعـل هـذا مـا جعـل **الـورثيلاني** يكثـر مـن زيـارتهم، إذْ يقـول فـي هـذا الشَّـأن: « **نعـم، مـن عـادتي إذا دخلـتُ وطنـا أو زرت مقبـرة أو صـالحاً نويـت مـن كـان فـي ذلـك الـوطن مـن الصّـالحين وأهـل الخيـر جميعـا، سـواء كـان حيّـا أو ميّتـا، ظـاهرا أو خفيّـا ذكـرا أو أنثـى مـن أوّل عمـارة ذلـك المحلّ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين**» [2].

ب. الباعث العلمي:

دعـا الإسـلام إلـى العلـم منـذ البـدء، وحـضّ علـى طلبـه، بنـزول أول آيـة مـن القـرآن، بـل فرضـه علـى كـل مسـلم ومسـلمة، ولمـا امتزجـت الثقافـة العربيـة بثقافـات الأمـم المجـاورة أثنـاء الفتوحـات الإسـلامية، بـرزَ علـى السَّـاحة العلميـة علمـاءٌ أجـلاءٌ فـي مختلـف أمصـار الدولـة، وأصـبح لزامـاً علـى طالـب المعلمـين السّـعي إلـيهم، «حينهـا ارتبطـت الرّحلـة بـالعلم، وأصـبحت الحواضـر تـؤم طلبـة العلـم، إلاَّ أنَّهـا لـم تتجسـد فـي شـكل صـورة خطيـة فـي ذلـك الوقـت؛ فقـد حوتهـا الأفئـدة الحافظـة دون أيّ رسـم دارس»[3]، لتشـهد هـذه الفتـرة نشـاطاً للرّحلـة والتجـوال لـم يسـبق لـه نظيـر، فالعـالم مـا يفتـأ يسـتقر بمكـانٍ حتـى ينتقـل إلـى مكـان آخـر، ويجـوب أقطـاراً عديـدةً ومتباعـدةً لتغـدو الرّحلـة ضـرورةً « **لابـدَّ منهـا فـي طلـب العلـم لاكتسـاب الفوائـد والكمـال بلقـاء المشايخ**» [4] وبلوغ الدرجة الرفيعة في المعرفة والعلم.

تبـدو الصّـلة جليـةً بـين الرّحلـة والحضـارة الإسـلامية، فكـان مـن الطبيعـي «أن تكـون الـرّحلات والأسـفار مـن أول السُّـبل لطلـب العلـم فـي تلـك العصـور، فقـد كانـت

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 23.
2) ـ نفسه، ص232.
3) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكونات السرد)، ص 30.
4) ـ عبد الرحمن بن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر(المقدمة)، دار الفكر، بيروت، 1428هـ - 2007م، ص 592.

الكتب نادرةً، وكانت الدّراسة العلمية تقوم مقام ما نصنعه اليوم من تتبع المراجع والمؤلفات، التي تزدحم بها خزانات الكتب الخاصة والعامة، وفضلا عن ذلك فقد تعددت مراكز الثقافة في ديار الإسلام، وكان رجال العلم ينتقلون في طلبه من إقليم إلى آخر، يدرسون على مشاهير الأساتذة ويلقون أعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين ثم الأطباء والفلاسفة والرياضيين» [1].

وكان هدف هؤلاء الرَّحالة ــ رحالة المشرق العربي ــ الذين ارتحلوا قديماً، خاصة في البدايات الأولى للعصر الإسلامي، هو البحث عن فائدة أو رجاء لقاء عالم معين للأخذ عنه، أما أغلب اهتمامهم فيتمثل في «طلب الإسناد في الحديث، حيث يرحل طالب العلم(الراوي)، إلى الصحابي حيث هو، فيروي عنه الحديث الذي سمعه من رسول الله ﷺ مباشرة» [2]، وعرفت هذه الغاية نشاطاً متميزاً، حتى أصبحت الرّحلة أمراً لازماً للعلم عامة ولرواية الحديث خاصة.

أمّا الرّحلة ذات الباعث العلمي في المغرب العربي، فكانت بطريقة أو بأخرى لها صلة بالباعث الديني أو هي نتيجة حتمية له، لأنّنا «نجد بعض الرَّحالة المغاربة والأندلسيين ينتهزون فرصة أدائهم فريضة الحج، للقاء العلماء والفقهاء، وزيارة المراكز العلمية، وتسجيل أسماء مشايخهم، ومروياتهم، والترجمة لعدد كبير منهم، مما أضفى الصّبغة العلمية على رحلاتهم، فغدت كتباً علميةّ يغلب عليها الجانب الثقافي» [3]، فيكون المغاربة قد مزجوا بين الباعثين، لتكون رحلاتهم جامعة للأمرين معاً، ولكن مع مرور الزمن لم تغدوا «الرّحلة العلمية أمراً منوطاً بالنية الدافعة للحج وحسب، بل أصبحت هي نفسها ضرورة لازمة» [4]، لتكتسب طبيعتها الطابع العلمي التوثيقي.

1) ــ زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2018م، ص 9.
2) ــ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكونات السرد)، ص 32.
3) ــ نوال عبد الرحمن الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية (حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، ص 36-37.
4) ــ نفسه، ص34.

إنّ هدف أكثر الرَّحلات المغاربية التي بدافع علمي هو الاتصال بالعلماء، وليس غريباً أن «تتجه الرّحلة في أغلب الأحوال إلى المشرق للتلمذة والأخذ عن علمائه، وهذا شيء طبيعي ومشروع، فالشرق منبع كل فضيلة ومنه شع قبس العلوم والمعرفة، ولهذا كان لابد وأن يكون الحجاز منتهى سفرهم» [1].

ومما ساعد المرتحل لطلب العلم، على قطع الصَّحاري والقفار وعلى تحمل الأهوال والمشاق المرهقة التي كانت تحيط بالرحلة، هو ما كان من قبل الحكام والملوك والخلفاء فقد كان لهم الدور القيادي في تشجيع الراغب في طلب العلم على السَّفر إلى حواضر العلم ومراكز المعرفة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية ما هيأوه من ظروف آزرته، كإقامة مكان الإيواء في المساجد والمدارس والزَّوايا، وتوفير مصادر المعيشة وأسبابها، وجعل الأرزاق للمعلمين والمتعلمين على السَّواء، ولعل ما أورده **الورثيلاني** في رحلته دليل على هذا الدَّور الهام، حين كان بـ **"طرابلس"** ونوه بقائد عمورة الذي بنى مدرسة، إذْ يقول: « **بنى مدرسةً عظيمةً متقنةً ما رأيت أظرف منها وأحسن من صنعتها، وجعل أيضاً بيوتا للتّدريس وغَرَسَ النّخل الجيّد، وحبسها على المدرسة، وزاد أحباساً عليها عظيمة، وحاصل خدمته إنَّما هي على طلبة القرآن وطلبة العلم، بأن جعل معلِّما للقرآن ومعلما للعلم**» [2].

كما أنَّه زار مدرسةً بمدينة "قابس" التي بناها **محمد باي** يقول مضمناً وصفاً لها من **"الرّحلة الناصرية"** على لسان الرّحالة **أحمد بن ناصر** [3]: إنَّها كانت «**وبإزائه مدرسة بناها أحمد باي، في غاية الجودة والإتقان والحسن، ومسجده**

---

1) ـ الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ص 79 ـ 80. دليل الحج والسياحة تقريض ابن زيدون ص 302.

2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص151.

3) ـ هو: أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن حسين بن ناصر الدرعي، الملقب بـ أبي العباس، **ولد** في منتصف ليلة الخميس الثامن عشر من رمضان سنة (1057هـ /1647)، **حج** أربع حجات: الأولى صحبة والده سنة ست وسبعين وألف(1076هـ)، والثانية سنة ست وتسعين وألف (1096هـ)، والثالثة سنة تسع ومئة وألف(1109هـ)، والرابعة سنة إحدى وعشرين ومئة وألف (1121هـ) وعمره 64 سنة، توفي الشيخ في 18 ربيع النبوي سنة 1129هـ. **ينظر**: أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية (1709م-1710م)، تح عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2011م، ج 1، ص(35/27/19).

كذلك، وجعل لهذه المدرسة أحباسا، ورتّب فيها عشرين طالبا، يعطي كلّ واحد منهم ريالان على رأس كلّ شهر، واستأجر فقيها يعلّمهم ويصلّي الصّلوات الخمس بالمسجد المذكور إماما به» [1]، وهذا دليل على الدّور الرائد والفعال على تشجيع طلبة العلم من قبل أولي الأمر، ويلفت نظرنا عناية **الورثيلاني** بالبحث عن المدارس وهذا ليس غريبا على رجل عالم فقيه وهو في كل هذا دقيق الملاحظة سهل العبارة واضح الأسلوب يترك قلمه على سجيته معظم أجزاء الرحلة.

ج. الباعث السياحي:

إنَّ الإنسان بطبيعته مفطور على حب الاطلاع والرغبة في اكتشاف المجهول، فجعل من الرحلة بدافع السياحة متنفساً له، لإشباع فضوله وتلبية رغبته، فهي «رحلة تجول غرضها الاستمتاع بالطبيعة والمناظر وتغيير الأجواء وكسر للروتين، وإضافة أشياء ومعارف جديدة، والانفتاح على العالم المتسع الأرجاء وهي في حد ذاتها عشق في التنقل، وفضول في التعرف على العالم الخارجي» [2]، فهي لا تكون إلاّ رغبةً في السّفر، وحباً للتنقل وتغييرا للأجواء، وعلى أية حال، فإنّ هذه الرّحلات لا «تطلب أكثر من المعاينة، عندما تشاهد الرؤية الجغرافية التي تلفت النظر، أو أكثر من المعايشة، عندما تتعامل مع الناس على الطريق، أو الذين تعايشهم في الأقطار والأمصار وكأنها كانت رحلة متعة ذهنية ونفسية أحيانا، ورحلة انفتاح واكتساب مهارات وخبرات أحيانا أخرى» [3].

2) - تدوينها:

إنّ الأمة العربية - باعتبارها أمة مشافهة في العهد الجاهلي - دخلت في فترة الإسلام مرحلة جديدة، خاصة بعدما اتسعت رقعتها الجغرافية، وما واكب ذلك من رحلات مدفوعة بالرغبة في كشف مجاهيل مسالك وأقاليم الممالك التي تمّ فتحها، وأمام هذه الحركة تسنى لها الاطلاع على علوم ومعارف من سبقها من حضارات،

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 148.
2) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكونات السرد)، ص 34.
3) ـ صلاح الدين الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ص 118.

فانعكفت على ترجمتها وتدوينها، فكان عصر التدوين بحق، وأمام هذه الرغبة في كشف المسالك ظهرت حاجات أخرى دفعت للارتحال كزيارة الأماكن المقدسة أو التجارة ...إلخ.

وإن من المؤسف أنّ ما شهدته هذه المرحلة من كثرة الرحلات وتعددها، إلاّ أنه لم يدون من جملتها إلا النزر القليلُ، وأنّ أغلبها لو لم تكن مبادرة أصحابها لتدوينها، لما رأت النّور ولما عرفت طريقها إلى الشهرة والانتشار، وإن ما وصل إلينا أقل بكثير مما دون، ولعل أول ما نواجه من الأسئلة في هذا المقام هو ماهي أسباب ودواعي تدوين الرحلات؟ بمعنى ما الذي دفع الرحالة لتدوين رحلاتهم؟

وعلى قلة الرحلات المدونة التي وصلتنا - كما أشرنا سابقاً - إلا أنه يمكن للدارسين حصر أهم أسباب تدوين الرحلات، ولعل **حسين ناصر** أهم من فصل في هذه الأسباب، في كتابه **أدب الرحلة**، نجمل أهمها فيما يلي من نقاط:

- **تلبية طلب الحاكم**: ولعل أبرز مثال على ذلك، عندما دون **محمد ابن جزي** رحلة ابن بطوطة، بطلب من **أبي عنان المريني** سلطان "فاس"، وقد أشار الكاتب لذلك في مقدمة الرحلة حينما قال: «نفذت الإشارة الكريمة بأن يملي الرحالة ما شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيهُ من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار، وأوليائها الأبرار» [1].
- **تلبية لطلب الأصدقاء والأقارب**: حيث «ردد يونس الحلبي أكثر من مرة في رحلته ومقدمتها، أنّه دوّنها استجابةً لإلحاح من صديقه الشّماس جبرائيل قسطنطين، رغما عما يحيط بذلك من عناء» [2].
- **الاهتداء بها:** ويعدُّ هذا أهم الأسباب التي دعت إلى تدوين الرحلات خاصة الحجية، إذ يصرح أحد الرحالة بالقول: «فرأيت أنّ نعمة الله عليَّ لا يفي بشكرها إلا تدوين رحلتي من أول خطوة إلى أخر خطوة وإخراجها للناس لينتفعوا بها، وليستضيئوا بنورها إذا حجوا إلى بيت الحرام أو قصدوا الجزيرة» [3].

---

1) ـ ابن بطوطة: مهذب رحلة ابن بطوطة، دار القصبة، الجزائر، 2001م، ص 8.
2) ـ أغناطيوس كراتشكوفيسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي، ص785.
3) ـ إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين، مج1، دار الكتب، القاهرة، ط1، 1433هـ 2012م، ص 3.

▪ **إبـراز المناسـك**: وسـواء صـرح الرحالـة بـه أو لـم يصـرح، فهـو سـبب فـي تـدوين جميـع رحـلات الحـج، ويعتـرف الرحالـة **رفعـت باشـاً** قـائلاً: «ولقـد كـان أكبـر البواعـث علـى إخـراج هـذه الـرحلات، وتكلـف النفقـات الباهظـة فـي سـبيلها: أنّهـا بـين شـرح الفـرض مـن فـروض الـدين، واصـدق لسـان يصـف مهـد النبـوة ومبعـث التشـريع، وأنهـا لتكشـف لـك عـن سـيرة الرسـول ﷺ والأمـاكن التـي تشـرفت بـه حتـى كأنـك تراهـا رأي العين» [1]

▪ **إفـادة القـراء**: لا شـك فـي أن قـارئ الرحلـة سيسـتفيد مـن مضـمونها المتنـوع، فكـان هـذا سـببا فـي تـدوينها يقـول الرحالـة عبـد القـادر ابـن محمـد: إنـه دون كتابـه ليكـون عمدة للمستفيد، وتحفة لكل بادئ ومعيد.

▪ **التعريـف بمسـائل علميـة**: وفضـلاً عـن كـون طلـب العلـم مـن بواعـث الارتحـال قـديما وحـديثا، فقـد كـان أيضـاً سـبباً الرحالـة فـي تـدوين مـا ناقشـه مـع العلمـاء والفقهـاء حول مسائل علمية وفقهية، وذلك لتعميم الفائدة.

▪ **التعـرف بالبلـدان**: لقـد كـان تعريـف الغيـر بالمسـالك والممالـك مـن أولـى بواعـث تدوين الرحلات، وقد يجتمع هذا الباعث مع بواعث أخرى مما ذكرنا.

قـد يكـون السّـبب وراء تـدوين الرحالـة لرحلتـه أحـد هـذه البواعـث، وقـد يجتمـع لـه باعثـان منهـا أو أكثـر، لكـن بعـدما يتملـك الرحالـة الرغبـة فـي تـدوين رحلتـه، لا بـدَّ لـه مـن اختيـار طريقـة يتبعهـا فـي التـدوين، يحـق لنـا فـي هـذا المقـام أن نطـرح بعـض التسـاؤلات بخصـوص هـذا الأمـر، وهـي: هـل يكتـب الرحالـة رحلاتهـم دفعـة واحـدة بعـد الرجـوع إلـى الـدّيار؟ أم أنهـم يسـتندون فـي ذلـك بمـا يعيـنهم فـي كتابتهـا، كمـذكرات يوميـة يكتبونهـا أثنـاء الرحلـة؟ ومـاهي الأسـس التـي يعتمـد عليهـا الرحالـة فـي جمـع مـادة رحلته؟

1) – إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين، مج1، ص 4.

أ. طرائق تدوين الرحلات:

إذا ما حاولنا تتبع الرّحلات من حيث طريقة التّدوين والتّسجيل فإنّنا نجدها تصنف حسب أغلب الدّارسين وفق الآتي:

❖رحلات كتبت أثناء الرحلة:

لقد اتخذ تدوين الرحلات طرائق عدة، كما أسلفنا الذكر، وأكثر الرحالة بدأوا بتدوين أخبارهم وملاحظاتهم وتعليقاتهم - بحسب ما يقتضيه المقام - من أول يوم خرجوا فيه أو أثناء قيامهم برحلتهم، ويبدو أنَّ بعضهم قد «قنعوا بما دونوه من مذكرات، ورأوا أنّها في غير حاجة إلى تنظيم وتهذيب، أو أنّ الزّمن عاجلهم فحال بينهم وبين ذلك، فوصلت إلينا كتاباتهم كما دونوها أول مرة» (1)، خاضعة بذلك للتسلسل الذي سار عليه الرحالة، و«لنظام الرّحلة ومفاجآتها وما قد يطرأ عليها من قضايا وما سيلقاه الرحالة من أشخاص وما سيشاهده من بلدان» (2)، فجاءت على هيئة أحداث يومية تعتمد التوثيق اليومي للأحداث التي تركت أثراً في نفسية الرحالة.

ومن أشهر من سار على هذه الطريقة الرحالة **العبدري**، وقد وردت الإشارة لذلك في مستهل رحلته إلى البقاع المقدسة، حينما قال: «وهذه الرحلة بدأت بتقييدها في تلمسان ولم يمسكني إظهارها هنالك وأظهرتها بعد خروجنا منها، ووقف عليها شيوخنا بمصر وغيرها، وكان شيخنا زين الدين بن المنير - حفظه الله - يستحسن ما يقف عليه منها، وقد أكملتها، والحمد لله منتظمة على نسقها ومستتة في سننها، جاريا معها حسبما جرت مستمليا لها فيما قدمت وأخرت حتى استوفى الغرض المطلوب» (3)، إذن فقد كان **العبدري** يدون الرحلة أثناء الرحلة، وكان يعرض ما دونه فيها على المشايخ ، كالشيخ زين الدين بن منير العيد في القاهرة وهو في طريقه إلى الحجاز.

---

1) ـ حسين ناصر: أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، القاهرة، 1991م، ص 60.

2) ـ الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ص 56.

3) ـ محمد العبدري البلنسي: الرحلة المغربية، تق سعد بوفلاقة، منشورات بونة، عنابة ط1، 2007 م، ص 21.

❖رحلات كتبت من المذكرات التي دونها أصحابها أثناء الرحلة والتجوال:

لعل «الكتابة أثناء الرّحلة تضمن وصفاً حاراً صادقاً ولكنّه انفعالي غير متأمل، وبذلك يفقد صفة العمق التي لا بدَّ من توفرها في كل عمل أدبي» [1] وهذا ما كان سبباً بعدمِ اقتناع الرّحالة بما أصدره في مسوداته وعدم اعتبارها ـ حين حررها ـ المسودة الأخيرة لكتابه، وإنّما هي فقط «عبارة عن عناوين القضايا والفوائد التي أفاد منها، والأسانيد التي حصل عليها، فقد كان بعض الرحالين يلجؤون إلى تقييد الأمور المهمة التي مرت معهم حتى لا ينسوها، وعندما كانوا يعودون إلى بلادهم ويستقرون، كان واحدهم يخرج هذه الملاحظات ويرتبها ويخرجها بعد مرور مدة تطول أو تقصر» [2].

وقد استهوت هذه الطريقة كثيراً من الرحالة المغاربة، خاصة الذين كان باعثُ ارتحالِهم ديني، فقد دأبوا على افتتاح رحلاتهم بتوجيه النّصح والإرشاد لمن رغب بالحج وتأدية المناسك، وحرصاً منهم على إفادةِ غيرهم من تجاربهم الشّخصية، كان لزاماً عليهم إنهاء الرّحلة أولاً، ثم لملمت شتات مذكراتهم وإخضاعها لعمليات تدقيق وتهذيب ليتم جمعها في كتابٍ، وهذا بعد العودة إلى أوطانهم.

ومن الواضح لدارس الرحلة الورثيلانية، أنّ الرَّحالة ولكونه من المغرب العربي قد سلك هو أيضاً هذه الطريقَة، فسجل أثناء الرحلة مجموعة من المذكرات والنصوص والأشعار، وهذا ما أكده في قوله حينما خرج من مصر ودخوله عمالة ليبيا، وقد ضاع له أحد الكراريس التي دونها أثناء الطريق: «**وقد نظمت سائر المعاطن ببرقة وبينت أوصاف مياهها غير أن الكراس الذي نظمته ضاع لي قرب الزعفران في يوم شديد البرد، فرجعت أنا وسيدي أحمد بن حمود وسيدي محمد الشريف إليه، فلم أجده فتحسرت عليه غاية لأنّي أشفيت العليل وأبردت الغليل في بيان أوصاف المياه وبيان المراحل والمنازل**» [3].

---

1) ـ ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الادب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص 61.
2) ـ علي إبراهيم كردي: أدب الرحل في المغرب والأندلس، ص 14.
3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 613.

وتظهر قيمة هذه الكراسة من خلال حرص الرّحالة الشّديد لاسترجاعها رغم برودة الجو، لأنّه يعلم أنّ ما قد يدون فيها من أخبار وأشعار ونصوص مختلفة لا يمكن حفظه إلاّ إذا دون في مذكرات؛ كما أنّه أشار إلى أنّه كتب جزءاً من رحلته حينما كان في قابس أثناء زيارته الصحابي **أبا لبابة**، إذ يقول: «**وقد زبرت شيئاً من هذه الرحلة في مقامه اغتناما لبركته، فكنت أملي على بعض فضلاء جربة وعلمائها وهو يكتب وما قطعنا عن ذلك إلاّ زيارة أهل بلدنا أعني زواوة**» [1]،إلاّ أنه لم يتم إنجازها - كما أشار- إلاّ بعد عودته إلى الدّيار «**وصلنا إلى مقامنا ودارنا ليلة الجمعة وليلة العيد ويوم عرفة عام 1181 أحد وثمانين ومائة وألف**» [2] ليشرع بعدها في نظم ما جمعه وأخرجه منسقا ومبوباً، «**وكان الفراغ من نسخها ضحى يوم الاثنين الفاتح لشهر شعبان عام 1182 اثنين وثمانين ومائة وألف**» [3] أي تأخر إخراج الرحلة عن زمن القيام بها ما يزيد عن سبعة أشهر.

❖ **رحلات كتبت من الذاكرة إما بصفة كلية أو جزئية:**

وكانت طائفة أخرى من الرّحالة لم تدون مذكرات لرحلاتهم، أو ربما دونوا لكنهم فقدوها أثناء انتقالهم، أو أن كان ما دونه ضئيلا لا يسمح لهم بالاعتماد عليه، فحتم عليهم هذا العودة إلى ما تبقى في ذاكرتهم من أحداث الرّحلة، «وهذا الضرب من التّدوين يتمُّ بعد عودة الرّحالة من رحلته إذ يقوم بإملاء رحلته من الذاكرة دون أن يعتمد أصولاً أو ملاحظات مدونة عن رحلته» [4] فهو اعتماد كلي عليها، عند تأليف الكتب التي وصفت فيها رحلاتهم، ويعدُّ **أبو عبد الله محمد الطنجي** المعروف بـ **ابن بطوطة** (703هـ/ 779هـ)، أشهر من قام بذلك من الرحالة، فحينما لبى دعوة سلطان فاس **محمد أبي عنان المريني**، وأخذ يقص عليه أخبار وعجائب رحلاته، فأمر كاتبه **محمد بن محمد بن جزي** أن يدونها في كتاب، وقد أورد الكاتب هذا في قوله:« نفذت الإشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار، وعلق

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 658.
2) ـ نفسه، ص 707.
3) ـ نفسه، ص 716.
4) ـ علي إبراهيم كردي: أدب الرحل في المغرب والأندلس، ص 15.

بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار، وعلمائها الأخيار، وأوليائها الأبرار فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر، من كل غريبة أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتحائها» [1]

إذا كانت هذه الطريقة التي يستمد فيها الرحالة ما يدونه في الرحلة من معين الذاكرة، تمنح صاحبها حرية أوسع و«فرصة أكبر للإضافة والتنظيم، وعلى خلاف الرحلات الأخرى التي تلتزم بما دونه الرحالة حال الرحلة» [2]، فَإنَّ الذاكرة بالمقابل قد تتعرض في كثيرٍ مِنَ الأحيان إلى «النّسيان على الرغم من قوة الحافظة التي اشتهر بها علماء العرب، وقد يتسرب إليها الخطأ» [3]، ومن أمثلة الرّحلات التي اعتمد فيها أصحابُها فيما أوردوه من أخبار وحكايات ونصوص على الذاكرة كثير، وهم يقرون بما أصابهم من نسيان أو سهو، فها هو الرّحالة **علي بن أبي بكر الهروي** (ت 611هـ/1214م)، يعتذر عمّا قد يرد في رحلته من خلط أو اضطراب أو خطأ ومعترفا به، بعد أن ضاع كل ما دونه إما غرق في البحر وإما علي يد جنود الفرنج، في قوله: « وإن جرى السّهو فيما أذكره بطريق الغلط لا بطريق القصد، فأسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح في ذلك، وإصلاح الخطأ وإيضاح الحق، فإنّ كتبي أخذها الانكتار ملك الفرنج، ورغب في وصولي إليه، فلم يمكن ذلك، ومنها ما غرق في البحر، وقد زرت أماكن ودخلت بلادا من سنين كثيرة، وقد نسيت أكثر ما رأيته، وشذَّ عني أكثر ما عاينته» [4].

❖رحلات كتبها غير أصحابها الذين قاموا بها:

إنَّ أسباب عدم تدوين الرّحالة لرحلته بنفسه متعددة وكثيرة، فقد يكون السَّبب عدم جرأته على إظهار رحلته، أو افتقاده الملكة الأدبية ... إلخ، فتنتقل بذلك مسؤولية التَّدوين إلى كاتب آخر، وينقسم هؤلاء الكتّاب إلى قسمين أو فريقين، «أمّا

1) ـ محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي ابن بطوطة: مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، دار القصبة للنشر، 2001، الجزائر، د ط، ص 07.

2) ـ عمران بن محمد الأحمد: أدبية الرحلة عند العبودي (رحلاته إلى البرازيل نموذجا)، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة القصيم (المملكة العربية السعودية)، 1436- 1437هـ، ص 58.

3) ـ حسين ناصر: أدب الرحلة، ص 62.

4) ـ زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في القرون الوسطى، دار آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2018م، ص106.

الفريق الأول، فيتكون من كتّاب شاركوا في هذه الرّحلات، غير أنّهم لم يكونوا الأشخاص الرئيسيين الذين نُسبت الرحلات إليهم... ويتكون الفريق الثاني من كتّاب لم يشاركوا فيما حرروا من رحلات» [1]، ومثال الفريق الأول، رحلة **محمد الكبير** باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري التي تنسب إلى كاتبها **ابن هطال التلمساني**، ومثال الفريق الثاني الكاتب **ابن جزي** الذي كتب رحلة **ابن بطوطة** سالفة الذكر.

ب. أسس تدوين الرحلات.

من خلال تتبع الأسس التي احتذاها الرَّحالة المغاربة في جمعهم لمادة رحلاتهم، وقد سار عليها **الورثيلاني** باعتباره رحالة ينتمي لهذه البيئة، نجد أنَّ معظمهم اعتمد على «ثلاثة مقومات رئيسة في أثناء تسجيلهم لرحلاتهم وهي:

أولا: المعاينة والمشاهدة.

ثانيا: السماع والمشافهة.

ثالثا: ما نقلوه من الكتب المصنفة في مجال الرحلات وغيره» [2] وسيجري التَّفصيل في كل نقطة مع التمثيل.

❖ أساس المعاينة والمشاهدة:

لقد اعتمد جل الرَّحالة المغاربة على المعاينة في تأليف رحلاتهم، وجعلوا منها الأساسَ الأول لأخبارهم، ومن المؤكد أنَّ الاعتماد عليها «يقتضي أن تتوفر في الرّحلة صفات خاصة تقيه خداع الحواس، وتمكنه من لمح البعيد والسَّريع، وحسن رؤية القريب» [3]، فهم بذلك كالعين المبصرة للقارئ، تنقل ما شاهدت «على بسيط الأرض من عمائر وخرائب أو صحراء أو حدائق مليئة بالنخيل والأشجار وأوان ثمارها، وأنواع المحصولات التي تنتجها، والطريقة المتبعة في زراعتها وريها،

1) ـ حسين ناصر: أدب الرحلة، ص 63.

2) ـ عواطف محمد يوسف نواب: كتب الرحلات بالمغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري (دراسة تحليلية نقدية مقارنة)، دائرة الملك عبد العزيز، الرياض، 1429هـ - 2008م، ص 156.

3) ـ حسين ناصر: أدب الرحلة، ص 69.

ومن يقوم على ذلك» [1]، ومثال ذلك قول الشّيخ **الورثيلاني** في رحلته واصفاً ما شاهده في قرية **"زمورة"**: «**وزمورة كثيرة المياه، وأرضها ذات زرع وضرع بلا اشتباه، طعامها جيّد، وسوقها عامر مفيد، وفيها برج للنّوبة من التّرك**» [2]، وقد يتعدى الرَّحالة أحياناً وصف مشاهداته ومعايناته إلى حدّ التَّفاعل معها، فها هو **الورثيلاني** يصف قرية **"قابس"** بعد نزوله بها، إلاّ أنَّه لم يتمالك نفسه، حينما شاهد ما بها من اختلاط قائلا: «**فنزلنا في "حامة قابس"، وهي قرية ذات نخل وماء، وفيها حمام -من الله تعالى- سخن كأنّه يغلي بالنّار، فلا يستطيع أحدٌ أن يدخله بغتة، إلاّ بعد الألفة، وفيه بيت يستر المغتسلين، وخارجه نهر منه يجتمع فيه الرّجال والنساء من غير ستر في النّهار، كلّ واحد يرى عورة الأخرى من غير تغير ولا نكير، فلما رأيتهم اقشعر جلدي، وتحرّكت فرائصي، فملأت حجري بالأحجار وصِرتُ أضرب كلّ من هناك من النّساء والرّجال**» [3]، لقد نقل الرَّحالة هذه الصُّورة المشاهدة مع إحساسه بالمسؤولية الأخلاقية أتجاه هؤلاء، وهذا ما ينم عن وعي ديني وأخلاقي.

❖ أساس السَّماع والمشافهة:

إضافة إلى ما قام به الرَّحالة من نقلهم لصور صادقة عمَّا شاهدوه، وعاينوه طوال الطريق، نقلوا أيضاً مما سمعوه «وقد بنى على هذا الأساس جميع الرَّحالة العرب، فإلى جانب ما شاهدوا بعيني رأسه أضاف مما سمع، ولم يفرق بين الإثنين» [4]، وقد دعم **الورثيلاني** ما لقيه من العساكر الأتراك في مصر، وبما وُصفوا به من ظلم وطغيان بشاهد سمعه ممن حوله فقال: «**وقد حُكي لنا أنَّهم يأتون إلى المستضعفين من النَّاس فيبيعونهم عبيداً أو يجعلونهم أسرى يخدمون في مدينة السّويس إلى أن يموتوا أهلكهم الله أن لم يعلم هدايتهم**» [5]، وأحياناً

---

1) ـ عواطف محمد يوسف نواب: كتب الرحلات بالمغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري، ص 80.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 97.
3) ـ نفسه، ص 146-147.
4) ـ حسين ناصر: أدب الرحلة، ص 71.
5) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 566.

ترتفع مصداقية السَّماع إلى مرتبة المشاهدة، أو حتى تتجاوزها، فلا مجال للشَّك أو الرّيبة فيها، وذلك حينما يورد **الورثيلاني** ما سمعه من أحد تلاميذ الولي الصَّالح سيدي **أحمد اغوبة**، لما زار قبره في زاويته، بأنَّ له كرامات مشهورة فيقول: «**وقد سمعت من بعض من يوثق به، أنّه يتصرف كما كان حيّا، فإنّه يُغَيثُ من استغاثَ به** »[1].

وقد يلجأ الرَّحالة في كثير من الأحيان إلى السُّؤال والاستخبار والاستفسار، ربّما لعدم اقتناعهم بما وصل إليهم من أخبار عن طريق السَّماع، فأرادوا التّحقق، أو ربّما إنّ ما وصل إليهم لم يرض فضولهم، فأحبوا الزّيادة لتكتمل الصورة عندهم، وقد حرص على هذا الأسلوب والتزم به الرّحالة المغاربة، ولا شك أنَّ **الورثيلاني** قد سار هو أيضا على هذا النهج، ونلمس ذلك في قوله: «**ولا أعلم تاريخ وفاته، وقد سألت البعض عنه فقال: من القرن السابع [ق7هـ/12م]، غير أنّي لم أثقْ به**» [2].

❖ أساس نقل الرَّحالة عما بين يديه من كتب مؤلفة:

لقد عُرف عن الرَّحالة العربي بصفة عامة والمغاربي بصفة خاصة، اطلاعه الواسع ومعارفه المختلفة وثقافته الرَّحبة، وذلك لما قد كان بين يديه من كتب ومؤلفات، جمعها قبل الشروع في رحلته، وقد نقل عنها ما تميل إليه نفسُه ويوافق هواه، فقد نجده يؤثر نقل القصائد والمقطوعات الشّعرية، وبذلك يطغى الجانب الأدبي، أو قد يخالف ذلك، وينحو ناحية العلمية بنقله لعلوم عصره، أو يميل إلى النَّواحي الجغرافية، والعوائد الاجتماعية، وقد يجمع بين كل هذا، فتأتي الرّحلة «مليئةً بالعديد من المعلومات في النَّواحي العلمية والأدبية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية والاقتصادية والسياسية» [3]، وبالعودة للرّحلة الورثيلانية يمكننا تصنيف أهم الكتب التي رجع إليها الرّحالة المغاربة وأفادوا منها، كالاتي:

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 52.

2) ـ نفسه، ص 61.

3) ـ عواطف محمد يوسف نواب: كتب الرحلات بالمغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري، ص 140.

- **الرحلات السابقة:**

لقد كان من البديهي أن يستعين الرّحالةُ المغاربةُ بما دوَّنه من سبقهم من الرّحالة، فمن يرغب في الارتحال لابدَّ له من قراءة الكتب التي تتحدث عن الأماكن التي ينوي زيارتها، وقد فعل ذلك **الورثيلاني**، الذي أفاد من **الرّحلة الناصرية** للرحالة **أحمد بن ناصر**، إذ يقول مصرحاً بذلك: «**وأَنَّ اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا وقدوتنا ومَنْ على الله ثُمَّ عَلَيْهِ اعتمدنا سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدّرعي الجعفري**» [1]، والذي استعان هو الآخر في الكتابة رحلته بالنقل من الرحلة الحجازية للرّحالة **أبي سالم العياشي**[2]، وقد أورد العديد من مشاهداته وأوصافه، وكمثال على ما نقله **الورثيلاني** عن الرَّحالة **أحمد بن ناصر** عن الرّحالة **أبي سالم العياشي**، وصفه لمدينة "**نفوسة**" وهي من عمالة "ليبيا" إذ يقول فيها: «**وفي رحلة أبي سالم العياشي: وهي مدينة مساحتها صغيرة، وخيراتها كثيرة، ونكايتها للعدو شهيرة، ومآثرها جليلة، ومعائبها قليلة، أنيقة البناء، فسيحة الفناء، عاليةُ الأسوار، متناسبة الأدوار، واسعة طريقها، سهل طروقها، إلى ما جمع لأهلها من زكاء الأوصاف، وجميل الإنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة وعلى المتعاقبين بأنواع المبرة عائدة ، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاما ولو لمن استحق ملاما، لاسيّما مع الحجاج الواردين، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين، فإنّهم يبالغون في إكرامهم، ولا يألون جهدا في أفضالهم عليهم وأنعامهم، ولهذه المدينة بابان باب إلى البَر وإلى البحر يحيط بكثير من جهاتها والحصن الذي فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البر بينه وبين البحر ولأمير هذه المدينة نكاية للعدو، دمرهم الله، وله مراكب قل نظيرها، معدة للجهاد في البحر، قلما تسافر وترجع بلا غنيمة، وقلما أسرت لهم**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 11.

2) ـ هو: عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى العياشي، الملقب بعفيف الدين، ينتمي إلى قبيلة آيت أعياش بسجلماسة، ولد لليلة بقية من شهر شعبان سنة (1037هـ: 4 ماي 1628م)، رحل نحو البقاع المقدسة ثلاث مرات والتي دونها في كتاب ماء الموائد أو الرحلة العياشية، **توفي** بالطاعون يوم الجمعة 18 ذي القعدة عام (1090هـ: 1679م). ينظر: عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية (1661-1663م)، مج1، تح: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي، ط1، 2006م، ص 29-30.

سفينة إلاَّ أن تكون من سفن التّجارة لا من سفن الجهاد، فجزاهم الله خيرا وأغناهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين أجمعين» [1].

وعلى العموم فإنّ تضمين **الورثيلاني** لخطاب هاتين الرحلتين كثيرٌ، وغالباً ما يكون في وصف درب الحجاج إلى "مكة المكرمة"، فيصف ما يراه أولاً لمرحلة أو اثنتين، ثم يورد ما ذكره الرَّحالون، دون تدخل منه أحياناً، وفي أحيان أخرى يطول كلامهم، فيتصرف فيه مختصراً إياه، إذ يقول عما أورده من كلام للرَّحالة **أحمد بن ناصر**: «**انتهى كلامه باختصار بعضه باللفظ وبعضه بالمعنى**» [2] كما نقل ما نقله **العياشي** عن **العبدري** في رحلته إلى الحج حين عثر عليها في "مصر"، وبين الطريقة التي أفاد بها منها، إذ يقول على لسان **العياشي**: «**ظفرت بـ "مصر" برسالة للشيخ البكري، وأظنه شيخنا محمد ابن الشيخ زين العابدين، ذكر فيها منازل الحجّ وديارة ذهابا وإيابا، وحقق قدر ما في كلّ مرحلة من السّاعات والدّرج والدّقائق، وصعوباتها وسهولتاها، بنثر بليغ، وعبارة رائقة، وذكر في كلّ منزلة شعرا يتعلّق بأحوالها، فأردت أن أقتطف منها ما يكون في أُذُن هذه الرحلة شنفا، إذ كلامي بالنّسبة إلى كلامه لا يُعدُّ معه صِنفا، ولما كانت المنازل التي ذكرها قد لا تتّفق مع منازلنا، ومراحله تزيد أو تنقص عن بعض مراحلنا، لم أذكر في كلّ مرحلة ما يناسبها من كلامه، فأخّرت ذلك إلى آخر مرحلتين أو ثلاث أو أزيد فاخترت لإدراج كلامه المراحل التي فيها البنادر، لأنّها في الغالب متّفقة، فإذا جاء ذكر بندر من البنادر ذكرت من كلامه ما يتعلق بالمراحل التي قبله ليكون ذلك أسهل لمطالعته**»[3]، إنّ تدوين الرَّحالة ما كان معروفاً في وقت الرّحالة السَّابقين وإضافته ما استجد في عصره، يضعنا أمام معلومات تاريخية متسلسلة، تصل بين الماضي والحاضر وما حدث بينهما من تغيرات.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 166.
2) ـ نفسه، ص 166.
3) ـ نفسه، ص 340.

- **الكتب الجغرافية:**

كان **الورثيلاني** كغيره من الرَّحالة المغاربة، الذين لم يعتمدوا على كتب الرَّحلات السابقة اعتمادا كلياً، وإنّما تعدوه إلى مجالات أخرى، ولعل أهمها إفادته من كتب الجغرافيا، وإن كان ما أخذه منها لم يكن بارزاً للقارئ، لتماهيه مع ما أورده من مشاهدات ومعاينات.

- **الكتب التاريخية:**

ومن الملاحظ أنّ الرّحالة، وخاصة المغاربة قد توسعوا في النّهل من كتب التَّاريخ، أكثر من أخذهم من كتب الجغرافية، وقد ظهر هذا الأخذ الواسع جلياً في رحلاتهم، فبعد ذكر المعلومات الجغرافية الخاصة بالمكان، ينتهز الرَّحالة الفرصة للحديث عن تاريخه، إما بشكل موجزٍ أو مسهبٍ، ومثال ذلك ما نقله **الورثيلاني** عن فتح إفريقيا لما نزل بمدينة بسكرة، أو ذكر تاريخ الإسكندرية أو تونس، وقد أشار إلى بعض أهم ما أستند إليه من كتب التاريخ إذ يقول: «**هذا وإنّي أنقل أيضا من بعض كتب التاريخ كـ: نبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة، ومختصر الجمان في أخبار أهل الزّمان، وكذا: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة وغيرهما مما يناسب المحلّ**» [1]، ولعل في هذا إشارة واضحة إلى الطريقة التي سار عليها أغلب الرحالة في تدوين رحلاتهم، فالاستعانة بكذا مصادر يعد بمثابة توثيق للأمر الذي تكلموا عنه.

- **المعارف الأخرى:**

وقد رجع الرّحالة في تدوينه لرحلته إلى كتب المعارف الأخرى، إلاَّ أنّه لم يبلغ في ذلك الشّأن الذي بلغه فيما سبق من كتب، ولعل أبرزها كتب الأدب وكتب الفقه، وتبرز هذه الأخيرة خاصة حينما كان في مصر، وما أورده من مسائل فقهية ناقشها مع شيوخه لما زارهم، ونذكر إحداها على سبيل المثال عندما طرح على الشَّيخ **خليل المغربي** سؤالاً يقول: «**سألته ومن حضر عما نقله الشَّيخ إبراهيم**

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 11.

الشبرخيتي في شرحه لخليل في باب الجنائز من أنّ الموت عرض قائم بيد ملك، فمن مسه بها مات، وهو أنّه عرض والعرض إذا قام بمحل أوجب الحكم لمن قام به لا لغير من قام به وهنا أوجب الموت لغير من قام به، وأمَّا من قام به فلم يمت وهي اليد التي قام بها والقضية العقلية يستحيل تبديلها عقلا فلن ترتفع فتحير الكل في الجواب» [1]، وهذا دليل على تبحره في العلوم الفقهية وسعة ثقافته الدينية.

ومن أمثلة ما نقل عن كتب الأدب، إيراده في رحلته قصة نفر من العرب لم يكن لهم زاد، ونزلوا بالقرب من قبر حاتم الطائي وقد طلبوا منه القرى، القصة التي أسند فيها الحديث إلى **أبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي** (ت.212هـ)، قد وقع فيها التشابه مع قصة رجل من "واد الرمل" بنواحي "طرابلس"، واسمه «**شهران بن عيسى بن عامر بن جابر بن قائد ابن رافع بن ذباب وكان هذا الرجل ذا رئاسة في قومه وصيت بعيد، واشتهر بالكرم، فلم يذكر منه في وقته غيره**» [2]، ولعل الشاهد هنا ما تمَّ ذكره من أبيات تمدح حاتم وابنه عدي.

يقول الشاعر [3]**:**

أَبُوْكَ أَبُوْ سَبَأْقَةَ الْخَيْرِ لَمْ يَزَلْ * لدن شبّ حتّى شَأْبَ في الْخَيْرِ رَأْغِبَا**
قَرَى قَبْرُهُ الأَضْيَأْفَ إذْ نَزَلُوا بِهِ * وَلَمْ يُقْرِ قَبْرٌ قَبْلَهُ الدَّهْرَ رَأْكِبَا**

ويقول أيضا [4]**:**

أَبَأْ اَلْخَيْبَرِيّ وَأَنْتَ امْرُؤٌ * ظَلُوْمُ العَشِيْرَةِ شَتَّأْمُهَا**
أَتَيْتَ بِصَحْبِكَ تَبْغِيْ القِرَىْ * ولم يقر قبر قبله الدهر راكبا**
أَتَبْغِيْ لِيْ الذَمَ عِنْدَ اَلْمَبِيْتِ * وَحَوْلِي طَيٌّ وَأَنْعَأْمُهَا**
وَإِنّأْ نُشْبِعُ أَضْيَأْفَنَأْ * وَنَأْتِي اَلْمَطِيَّ وَنَعْتَأْمُهَا**

هذه الأبيات قد جاء ذكرها في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وأيضا كتاب الشّعر والشّعراء لابن قتيبة، وغيرها من أمهات كتب الأدب.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 366.
2) ـ نفسه، ص 193.
3) ـ نفسه، ص 194.
4) ـ نفسه، ص 194.

ويمكننا على العموم الإشارة إلى أنَّ الرَّحالة **الورثيلاني** في أغلب ما نقل لنا من كتب ـ سواء كان ما أخذ قليلاً أو كثيراً ـ اتسم بالأمانة العلمية، فصرح بأسماء من نقل عنهم من البداية، **"قال شيخنا أبو سالم"**، أو **"قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه"**، أو **"قال البكري في رحلته"**، وعند الانتهاء يختمها بكلمة **"انتهى" أو "انتهى كلامه"**، ومن الواضح أنّ دور هذه العلامات اللغوية هو تجنيب القارئ الخلط بين الكلام المنقول وكلام الرَّحالة، و«هذا الأمر سار عليه معظم الرَّحالة المغاربة إلاَّ فيما ندر» [1].

كما أنّنا نجد مما سبق، أنَّ افادته كتب السَّابقين قد «عرفتنا بأسماء كتب ومؤلفين لم نعرفهم إلاَّ من خلال ما سجلوه، فحفظوا لنا على الأقل أسماء هؤلاء المؤلفين ومؤلفاتهم وشيئا مما حوته تلك المؤلفات» [2]، مثل: كتاب **"حسن المحاضرة"** للسيوطي و**"رياض الصالحين"** للثعالبي و**"الدراية"** للغبريني، **"الرسالة القيشرية"** للقاضي زكرياء...

وأدى تنويع الرّحالة لآليات جمع مادة رحلته، من مشاهدة ومعاينة أو نقله من المكتوب أو المسموع، إلى التّنويع في «الأفعال المستخدمة في الكتابة؛ فنجد أفعال اليقين تحضر مع المشاهدات والمعاينات، بينما تحضر أفعال الاحتمال مع المنقول عامة» [3] ولعل هذا دليل على ما يولي الرَّحالة من حرص شديد واهتمام بالغ للجانب التوثيقي في رحلته.

ج. مناهج التدوين:

إذا كان من الضروري تحديد هدف لكل عمل قبل الشّروع في إنجازه، فكذلك من الضروري أن يكون هدف الرّحالة من تدوين رحلته واضحاً من البدء، «لأنَّ تحديد الهدف تنبني عليه خطوات كثيرة تتعلق باستخدام الأدوات الفنية، وهذا سيؤدي إلى القول بأنّ الرحالة

1) ـ عواطف محمد يوسف نواب: كتب الرحلات بالمغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري، ص 156.
2) ـ نفسه، ص 139. مش
3) ـ عمران بن محمد الأحمد: أدبية الرحلة عند العبودي، ص 59.

يختار نهجاً بعينه، ويتبعه وهو واع بمميزاته وعيوبه» [1]، وفضلاً عن هذا، فإنّ منهجية التَّدوين تميز بين كتب أدب الرحلة وبين الكتب الأخرى التي تقوم على بنية السَّفر، وقد حددها الموافي في خمسة مناهج هي كالاتي [2]:

❖ التّدوين الزماني:

وهومن أكثر المناهج استخداماً، وأكثرها تنوعاً داخلياً، كما أنّه أضبطها وأوثقها، ويكون تدوين الرحالة فيه آنيا، فيقسم الزّمن إلى وحدات، وكلما كانت تلك الوحدات أكبر، كان الحفاظ على العمل الفني أقرب.

ويقول: إنَّه بناءً على استقرائه العديد من نماذج أدب الرحلات تمّ تحديد أهم الاتجاهات في إطار هذا النهج كما يلي:

- ضرورة تحديد الإطار الزَّمني العام للرّحلة، وذلك بتحديد زمن بداية الرّحلة ونهايتها.
- تتبع بعض النّماذج طريقة العدّ التّصاعدي للوحدات الزّمنية، كأن يُقال: اليوم الأول، اليوم الثاني، اليوم الثالث... إلخ، أو: الأسبوع الأول، الثاني، أو: الشهر الأول، الثاني...إلخ.
- يميل بعض الرّحالين إلى تدوين محصلات الرحلة مع بداية كل شهر، أو مع بداية كل فصل طبيعي، أما إذا طال أمدُ الرّحلة فيمكن تأريخها بالعام.
- قد تتخذ شكل المذكرات اليومية التي تدون في فترات منتظمة، أو غير منتظمة [3] ـ مع كتابة تاريخ التدوين، ولهذا النموذج شكلان: الأول يجعل من التاريخ عنوانا للفصل، والثاني يذيل الفصل بتاريخ تدوينه ـ بعد أن يكون قد صدّره بعنوان موضوعي.
- كما يمكن أن يتخذ التّدوين الزّمني شكل رسائل من الرّحالة إلى أصدقائه أو أفراد أسرته، مع النّص على تاريخ كتابتها ومكانها.

---

1) ـ ينظر: ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي، ص 60.

2) ـ نفسه، ص 64 ـ 67.

3) ـ إذا اتخذ التّدوين الزَّماني شكلاً غير منتظم، فإنه يتم بالتّبادل مع التّدوين المكاني أو الموضوعي. **ينظر:** ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ص66.

❖ **التدوين المكاني:**

يقول النّاقد **ناصر الموافي** عنه: إنَّه من المناهج الشّائعة الانتشار والأكثر تماسكاً من ناحية البناء، بفضل ما يتتبع فيه الرّحالة من تسلسل طبيعي للرّحلة على أرض الواقع، وبالإضافة إلى هذه الميزة يلخص أهم مميزاته كالآتي:

- اتباع التسلسل الطبيعي أثناء الرّحلة، من خلال الوحدات المكانية الصّغرى.
- اتباع التّقسيمات السّياسية ووصف كل دولة أو مملكة على حدة مع اتباع خط السّير حيناً واغفاله أحياناً.
- الاختيار الدَّاخلي، وذلك باتباع طريقة التَّدوين المكاني مع التّركيز على موضوع بعينه في كل مكان يحل به.
- التّبادل مع التّدوين الزَّماني والتَّدوين الموضوعي.
- الحرص على وضع مقدمة تصف العالم بعامة، ثم تفصيل أجزائه استفادة بمعطيات الرّحلة كمصادر متعددة.
- الاقتصار على وحدة سياسية أو طبيعية بعينها ووصف، وحداتها الصّغرى وصفا مفصلاً مع كثير من الاستطراد.

❖ **التَّدوين الموضوعي:**

المبدأ الذي يقوم عليه هذا النّهج هو اختيار موضوعات بعينها، والانطلاق منها إلى وصف مكان أو شعب أو حتى عدة أماكن أو شعوب، ولا بدَّ أن تتسق هذه الموضوعات مع الهدف الأساسي الذي من أجله دوّن الرّحالةُ رحلتَه، فقد يُراعي في هذا الاختيار التّسلسلي الزّماني والمكاني، وقد يتخذ شكلًا علمياً، فيتتبع موضوعاً بعينه في كل مكان يحلّ به الرّحالة.

❖ **التّدوين الانتقائي:**

ويتضح من خلال تسمية هذا النَّهج أنّه يقوم على الانتقائية، بمعنى حينما يقوم الرّحالة بعدة رحلات، ويكون قد دوَّن كل واحدة منها في كتاب خاص بها، ثم يعود إلى هذه الكتب لينتقي منها أفضل ما فيها في شكل تلخيص، أو أنَّه يجمع مظاهر

معينة يختص بها بلد ما؛ أو حتى يؤلف كتابا علميا أو أدبيا، ويضمنه بعضاً من الطرائف التي جاءت في رحلاته.

ويقول: إنَّ هناك من الرَّحالة من يرحل في كتب غيره، ليؤلف كتاباً منها، يعرض فيه لأفضل ما في كل تلك الرَّحلات، معتمدا في ذلك على ذوقه.

❖ **التَّدوين الاستدعائي:**

ينهي **ناصر الموافي** مناهج تدوين الرَّحلات بالمنهج الاستدعائي، الذي يعتمد فيه الرّحالة على تداعي الأفكار وتواردها، فيبدأ بفكرةٍ ملحةٍ تستدعي فكرة وتستدعي تلك الفكرة أخرى.

وقد يكون ذلك النهج أقرب إلى العشوائية نظراً لاعتماده على الذاكرة التي شحنت بنتاج الرحلة ولم تستطع تمييزه فأخرجته كيفما اتفق.

وقد يكون ذلك النهج عاماً في الكتاب كله، أو في تفاصيله، بمعنى أن يبني العمل على أساس واضح، وفصول منظمة، ولكن المادة التي يصاغ منها الفصل تعتمد على منطق التّداعي هذا.

3) ـ مسارها:

تقوم الرّحلة أساساً على بنية السَّفر، الذي يقتضي بالضرورة من ناحية البناء، لحظة انطلاق، ثم يتحتمُ على الرَّحالة قطع طريق الذهاب لغاية الوصول إلى المَقْصُودة من الرّحلة، ثم تبدأ مرحلة الإياب وقطع طريق العودة إلى الوطن بعد تحقيق أهداف الرحلة؛ حسب ما ذكرنا، يمكن تقسيم بنية الرّحلة الورثيلانية إلى أربع مراحل أساسية هي:

1. مرحلة الانطلاق.
2. مرحلة وصف طريق الذهاب.
3. مرحلة الوصول إلى الهدف المَقْصُودُ.
4. مرحلة العودة إلى الوطن.

ويمكن التفصيل في كل مرحلة من هذه المراحل من خلال الرّحلة الورثيلانية كما يلي:

أ. مرحلة الانطلاق:

إنّ أول ما يبدأ الرّحالة به رحلته، هو حمد الله تعالى على نعمه، ثم الصَّلاة على النبي العدنان ﷺ، ثم ينتقل بعدها إلى الحديث بإيجاز عن أسباب السَّفر ودواعيه وأهدافه وغايته، وهي من النقاط الضرورية التي يجب على كل رحالة ذكرها في رحلته ـ كما سبقت الإشارة إليها ـ، ثم يأتي لتحديد الزمن العام الرّحلة دون تحديد الشّهر أو حتى الفصل، فيقول: «**اعلم أيّها الأخ، لما أراد الله المشي منّا إلى الحج وقد سبق في عِلمِ الله أن يكون حجّنا في عام تسعة وسبعين ومائة وألف[1179هـ: 1766م]**» [1]، مكتفياً في موضع آخر بالإشارة إلى يوم خروج الركب، «**نعم، خرجنا يوم الخميس لِمَا فيه من التّيمّن والبركة، في كلّ سكون وحركة، كما روي عنه ﷺ، ثم بقينا كذلك على التّوديع إلى أن غربت الشّمس، بل إلى صلاة العشاء**» [2]، لم يفوت **الورثيلاني** الفرصة في وصف ما سبق ساعة الانطلاق من ترتيبات وما غمر لحظات الوداع من إحساس بالحزن وألم الفراق، فيقول: «**فلما حان السَّفر وآن حاله ذكرنا بعض ما ورد ذكره وصلّينا الصلاة الواردة وختمنا بالصَّلاة في المسجد، ثم أتينا أهلَ البيت والخدم والطلبة والجيران ومن أتى يودّعنا، ودَعَوْا لنا، ودعونا لهم، وعند ذلك رفعنا ما يَحتاجُ الرّفع وانفصلنا على حسن الانفصال، ووقع البكاء والصُّراخ من أهل البلد، لَمَا كان من أنسهم بنا، إذ اعتقادهم ما دمنا معهم لا يقع بهم إلّا الخير والبركة**»[3]، ولعمق تأثره بهذا الموقف قد نظم قصيدة تتكون من سبعة وعشرين بيتاً، يسكب فيها مشاعره، يقول في مطلعها[4]:

مَـــاْ أَصْـــعَبَ الْتَوْدِيْـــعَ لِلْأَحْبَابِ * وَعِنْدَهُ بِالْحُـــزْنِ وَاكْتِئَـــابٍ**
وَكُـــلُّ نَفْسٍ تُزْعَجُ لِلْإِفْتِـــرَاقِ * لِفُقْدَانِ المَأْلُـــوْفِ بِاخْتِنَـــاقِ**
فَالْعَيْنُ قَـــدْ تَبْخَلُ بِالْدُمُـــوْعِ * وَالكَبِدُ مَحْرُوْقٌ مِـــنَ المَوْدُوْعِ**

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 11.
2) ـ نفسه، ص 95.
3) ـ نفسه، ص 93.
4) ـ نفسه، ص 94.

وعلى الرّغم مما تحمله هذه القصيدة الوداعية من مشاعر صادقة وأحاسيس جياشة، إلاَّ أنَّه لم يسلك فيها قواعد القصيدة العمودية، فلم يتقيد بروي واحد لقصيدته، بل كل بيت ينتهي بحرف روي يختلف عن الأبيات التالية له، كما أنَّه التزم التَّصريع مع جميع الأبيات.

لم يحرص **الورثيلاني** في نص الرّحلة على ذكر اسم القرية التي انطلقت منها رحلته بالتّحديد، وإنّما أشار بشكل عام إلى موطنه الكبير الذي ينتمي إليه وهو منطقة "بجاية"، ويعود هذا ربّما لأنَّ مكانَ الانطلاق قد يكون معروفاً، من خلال ما ينسبُ إليه الرَّحالة، وهي قبيلة **"بني ورثيلان"**، التي تقع ضمن القبائل الصغرى، جنوب شرق منطقة بجاية، وترجح بعض المراجع أنَّ الرّحلة انطلقت من قرية آنو (قرية بربرية) بمنطقة بني ورثيلان [1].

ويلاحظ القارئ، أنَّ الرَّحالة **الورثيلاني** قبيل انطلاقه في رحلته الكبرى قاصداً الحجاز، قد مهد برحلة داخلية صغرى، جاب فيها العديد من مناطق الوطن، وهذا ما يذكره فيقول: «**نعم، زاد عزمي وقَوِيَت همّتي للمشي، غير أنَّه عارضني أمرٌ أوجب السَّفر مع الأخ في الله أحمد الطّيب، إلى ناحية "زواوة"، و"قرية تدلس دلس"**» [2]، وكان القصد منها زيارة قبور الصَّالحين والأولياء، والعلماء والفقهاء وشيوخ الزوايا ومريديها الأصفياء، وأمَّا هدفه فكان من جهة، شد عزمه وتقوية رغبته في رحلة المرتقبة لأداء الحج والإعلام عنها، ومن جهة أخرى ذكر أهمية زيارة قبور الأولياء والصَّالحين من العلماء والحصول على بركتهم والاستئناس بدعمهم وفيضهم ودعواتهم، ويشير إليها بقوله:« **ولعلّ الله بِذِكرِهِمْ يزيل الحجاب عنّا ويرزقنا الوهب الربّاني لي ولذريتي ولمن تعلّق بي، وأنْ يحفظني من العوائق عن الوصول إلى الله، وأنْ يجمع شملنا ويرزقنا ما رزق به أهل ودّه، وليس ذلك إلاّ بالتّسليم لهم مع محبتهم، وكذلك بالتّعظيم لأولادهم...(ويكمل القول) لتزداد النَّفس رغبة فيهم ورجاء أن تكون همتك كهمتهم**

---

1) ـ ينظر: عبد الرحمن عزي: التواصل القيمي في الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والاخبار، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 1432هـ / 2011م، ص 29.

2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 15.

فـإنّ الرحمـة تنـزل عنـد ذكـرهم» [1]، ومـن الواضـح مـن كـلام **الـورثيلاني** مـدى إجلالـه لهؤلاء وتقديره إياهم.

ب. مرحلة وصف طريق الذهاب:

تمـر هـذه الرّحلـة الطويلـة التـي دامـت ذهابـاً مـا بـين خمسـة أشـهر إلـى سـتة أشـهر تقريبـاً، ابتـداءً مـن نقطـة الانطـلاق عبـر محطـات رئيسـة بـارزة هـي: بسـكرة (الجزائـر)، ثـم "طـرابلس" (ليبيـا)، ثـم "القـاهرة" (مصـر) تواكـب خـط سـير الرّحلـة، وقـد تتمفصـل هـذه المحطـات الكبـرى إلـى قـرى وبلـدات متعـددة؛ ويمكـن التفصـيل أكثـر في مسار الرّحلة كما يلي:

❖بسكرة (الجزائر):

ومـرَّ الرَّكـب مـن "بنـي ورثـيلان" إلـى "بسـكرة" بعـدة محطـات صـغرى، وكانـت أولاهـا قريـة "بنـي حـافظ" التـي حصـل فيهـا مبيـت الرَّكـب، ليسـتأنف المسـير صـبيحة اليـوم المـوالي قاصـداً بلـدة "زمـورة"، وقـد كـان مـروره "ببنـي يعلـى"، ضـحى ذلـك اليـوم، وعـن هـذه البلـدة يقـول الرّحالـة: «**فـذهبنا إلـى "زمـورة" فبتنـا فيهـا ثـلاث ليـال، لتكميـل مـا خَـصَّ مـن حـالهم وحـالي، وليَلحـقَ أيضـا مـا بقـي مـن التّـالي، فخرجنـا يـوم الأحـد، معتمـدين علـى الله الصّـمد»** [2] وأثنـاء كـل هـذا مـا تـزال الجمـوع التـي خرجـت مـع الرَّكـب تـودع أفـراده فـي جـو مهيـب، ويقـول الرَّحالـة عـنهم: «**فمـنهم مـن وصـل أطـراف العمـارة، مـنهم مـن وصـل إلـى قـرب "الـواد" ومـنهم مـن وصـل إلـى "عقبـة زمـورة"، وكلّهـم محبّـة فـي الله ورسـوله ﷺ (...) ومـنهم مـن ذهـب معنـا إلـى "أولاد يحيـى"، فوصـلنا قـرب المغـرب** (ثـم منهـا إلـى "وادي بوسـلام" إلـى أن يقـول) **ثـمّ ظعنّـا صـبيحة يـوم الثلاثـاء إلـى أن وصـلنا إلـى "قصـر الطيـر"، فحططنـا بـه الرّحـال مـع الغيـر، وتلاقينـا مـع الحجّـاج، ومـن يريـد الزّيـارة بـلا احتجـاج، ووصـلنا عنـد الظّهـر وانتفـى علينـا وعلـيكم البـأسُ والضـر»**[3]، ومـا يـزال دأبُ الرَّكـب هكـذا، يمـر بحـي

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 93.
2) ـ نفسه، ص 97.
3) ـ نفسه، ص 98-99.

تـارةً وينـزل بـأخر تـارةً أخـرى طـوال الطريـق، وقـد ذكـر أنـه تـمّ المبيـت عنـد "أولاد رحـاب" يـومين لشـراء بعـض الجمـال وقضـاء بعـض الأوطـار، فيقـول فـي ذلـك: وقـد **«تزوّجـت بنـتهم، ثـمّ ظعنّـا مـن عنـدهم، والرَّكـب سـابق إلـى "مـدوكال" فتبعنـاه»**[1] ومـن هـذه القريـة الطيبـة كمـا ذكـر، كـان الانتقـال إلـى "بسـكرة"، يقـول: **«ظعنـا منهـا إلـى "مدينـة بسـكرة" ذاهبـين، فبتنـا فـي الطّريـق ليلـة واحـدة، وصـبيحتها ظعنّـا ووصـلنا عنـد الضّـحى، غيـر أنَّـه عـاق النـاس المـاء فـلا يجـدون سـبيلا إلـى الخـروج إلا بتعسّـف، فطـال بنـا ذلـك إلـى الظّهـر إلّا القليـل أخـذوا الطّريـق مـن بـدء الـوادي، فلمـا قطعنـا الوادي نزلنا حافّين بالنّهر»**[2].

تعـد **"بسـكرة"** أُولـى المحطـات الكبـرى التـي يتوقـف عنـدها الرّحالـة طـويلاً، وذلـك لمـا تكتسـبه هـذه المنطقـة مـن أهميـة تاريخيـة ودينيـة، فهـي تمتـاز بجامعهـا الكبيـر، الـذي لا يوجـد لـه نظيـر إلاَّ فـي المـدن الكبيـرة كـ"القاهرة"، ويسـهب **الـورثيلاني** فـي وصـف هـذه المدينـة وأهلهـا، التـي يبـدو أنَّهـا كانـت تخضـع للأتـراك، وإن بشـكل جزئـي فيقـول عنهـا : و**«بسـكرة كثيـرة الميـاه بـين خـلال البيـوت، فكـلّ بـاب عنـده سـاقية مـن المـاء، تجـري مـن مـاء حلـو كالعسـل، ونخلهـا عظـيم، وغلّتهـا كثيـرة أيضـا -أي زرعهـا-، وكـذا الفواكـه خصوصـا الزّيتـون فإنـه كثيـرٌ جـدّا، وهـذه المدينـة كانـت قـاهرة عظيمـة البنيـان، والجـامع الأعظـم يـدلّ علـى ذلـك، فإنّـه لا نظيـر لـه وصـومعته مـا أحسـنها، ومـا أوسـعها، غيـر أنَّ القديمـة -أي المدينـة- قـد خرجـت وصـارت دكّـا وسـبب ذلـك فتنـة بيـنهم (...) وفيهـا برجـان للتّـرك عـامران، أحـدهما فـي البلـد والآخـر خارجها، وبالجملة فهذه أوصافها الحسنة التي لا تُحصى»** [3].

كمـا تشـرفت تربـة هـذه المنطقـة بقبـر التـابعي الجليـل **عقبـة بـن نـافع** القريشـي، وقـد خصـص حـوالي خمـس صـفحات لـذكر الـدَّور التَّـاريخي الـذي قـام بـه لفـتح المغـرب العربـي، وكيفيـة استشـهاده فـي هـذه المنطقـة التـي سُـميت علـى اسـمه، وقـد بنـي حـول قبـره مسـجد يـزوره مـن أراد ذلـك، وكعـادة **الـورثيلاني** فـي زيـارة هـؤلاء الفضـلاء مـن

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 102.
2) ـ نفسه، ص 103.
3) ـ نفسه، ص 103-104.

الأحياء والأموات، فقد حصلت له الزّيارة لهذه القرية الطيبة بصاحبها فيقول: «**فلمّا وصلنا إليها نزلنا تحتها، وفرغنا من أشغالنا المتعلّقة بالنّزول، من بناء الخيام، وحطّ الرّحال، ورعي الإبل، والصَّلاة وشروطها، إذ نزلنا فيها عند الظّهر أوائل رجب سنة تسع وسبعين ومائة وألف [1179هـ/1766م]، ذهبنا إلى زيارة المشار إليه ذي الأنوار**» [1] ويقصد زيارة **عقبة بن نافع**، كما يذكر زيارة قبر الولي الصَّالح الشّيخ سيدي عبد **الرحمن الأخضري** وقبر النَّبي سيدي **خالد** الذي قيل: «**إنّه نبيّ مرسل إلى "جبل أوراس"، وقيل: وليّ، والذي شهّره سيدي عبد الرحمن، أنّه نبي رسول، (...) وكانت معجزته ناراً، وقد سمعنا أنّ الشّيخ سيدي عبد الرحمن هو الذي أظهره بالتّربيع**» [2]، كما زار العديد من الأولياء والصَّالحين في هذه المنطقة.

والواضح أنَّ درجة اهتمام الرَّحالة بما مرّ به من محطات في رحلته كانت متفاوتة، فأحياناً نجده يصف بعض الأماكن بشكل مفصل، على غرار "**زمورة**" التي طال به الحديث والتعليق عنها، بينما نجده في أحيان أخرى يتجه نحو الايجاز، فيأتي وصفه وتعليقه بشكل جزئي عابر، على نحو ذكره "أولاد دراج" و"بريكة" التي قال فيها: «**فنزلنا قرب "بريكة" وهي "أرض طيبة"، وفيها نهر جار مثل "النيل"**» [3].

ومن الواضح أيضاً، أنَّ الرَّحالة اعتمد في التّوثيق الزّمني على التّقويم الهجري، لكن الملاحظ أنّه جاء متذبذباً ومتقطعاً، فقد يذكره في بعض المحطات، وقد يغفل عنه في أخرى، وقد يذكرُ السّنة لوحدها فقط دون الشّهر واليوم، وقد يكتفي أحياناً بذكر اسم اليوم فقط، كما أنَّه لم يكن حريصاً على توثيق مدة الإقامة في كافة محطات إقامته، ويعود هذا ربّما لانصراف اهتمام الرّحالة نحو وصف الأحداث والأماكن التي مرّ بها في رحلته، فانشغل تركيزه عن تحديد الزَّمن بدقة.

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 131.
2) ـ نفسه، ص 104.
3) ـ نفسه، ص 102.

❖ **طرابلس (ليبيا):**

قبل التَّفصيل في ثاني محطة كبرى تستوقف الرّكب، يجب الإشارة إلى أنّ الرّحالة قد مرَّ عبر **"تونس"**، لكنه لم يذكر المعالم الأثرية الدينية الأساسية فيها، واكتفى فقط بذكر قبر الصَّحابي الجليل المكنى **بأبي لبابة** بـــ **"قابس"**، وأشار إلى أنَّ أمير "تونس" قد أقام عليه بنياناً عظيماً، وبجانبه مدرسة لتلقين العلوم الدينية في غاية الاتقان والجمال، ـــ كما أسلفنا في ذكره ـــ وعن مدة إقامته في هذه المدينة فيقول: «**فإنّنا أقمنا يومين في "قابس"، وزرنا أبا لبابة المذكور، وزرنا جميع من فيها من الأحياء والأموات، واجتمعنا مع بعض فضلائها من طلبة العلم وصلحاء البلد**» [1].

ولعل الإيجاز في الحديث عن **"تونس"** يعود إلى عاملين:

أولهما: انّ خط سير الرّحالة كان ناحية الجنوب، عبر توزر باتجاه "قابس" وصولاً إلى البحر الأبيض المتوسط (أو بحر الروم كما جاء في الرحلة).

ثانيهما: إنّ **الورثيلاني** قد أحاط بتاريخ "تونس" و"القيروان" أثناء الفتح الإسلامي، والصّراع الطويل الأمد بين قائد البربر **كسيلة** من جهة وقادة المسلمين من جهة ثانية، وذلك عندما توقف لزيارة منطقة سيدي عقبة بقرب من "بسكرة".

وأمّا عن ذكره المحطة الثانية **"طرابلس"** التي وصلها صبيحة أول شعبان ولقي فيها ترحيباً كبيراً، فيقول: «**أقمنا بها ثمانية أيام أولها يوم جمعة وآخرها مثله، غير أنّ بعض الرّكب خرج من يوم الخميس إلى تاجوراء، ونحن قد تخلفنا مع بعض أفاضل أصحابنا إلى صبيحة يوم السبت**» [2]، ويذكر **الورثيلاني** سبب طول أمد الإقامة في **"طرابلس"** هو انشغالهم بأمر الزّاد المبعوث مع من سينفصل عن الرّكب من أصحابهم، وأراد ركوب السّفينة إلى **"الإسكندرية"**، وقد بلغ عددهم حوالي ثلاثمائة من الأفراد، خاصة من كبار السّن والضعفاء؛ وقد أشاد **الورثيلاني** كثيراً بصاحب ولاية **"طرابلس" علي باشا**، حينما عاهدهم على عدم التأخر في الانطلاق، إذ كانت عادة السُّفن في "طرابلس" التَّأخر إلى آخر رمضان، وقد يعيقهم

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 149.

2) ـ نفسه، ص 188.

هـذا علـى الحـج، ويقـول **الـورثيلاني** عمـن ركـب البحـر: «**والحمـد لله لـم يمكثـوا فـي البحـر إلاّ اثنـي عشـر يومـا، ونزلـوا الإسـكندرية عنـد الحـاج أبـي القاسـم القـراوي صـاحب ولايـة طـرابلس، إذ زبـر لـه الأميـر كتـاب علـى ذلـك فـأكرمهم وأحسـن إلـيهم جازاه الله أحسن جزاء آمين**»[1]

وقـد تـابع الرّحالـة مسيره مـع الرَّكـب بـراً، مـن "**تـاجوراء**" إلـى واد المسـيد ثـم واد الرَّمـل ومنـه إلـى "سـاحل حامـد" وكـان وصـولهم وقـت العصـر، وعـن هـذا الأخيـر يقـول: «**ظعنّـا مـن "السَّـاحل" ونزلنـا قـرب "السَّـبخة"، ثـم بعـد ذلـك ظعنّـا بعـد ملاقـاة الأفاضـل(...) ونزلنـا قـرب "مسـراتة"، ثـم بعـد ذلـك ارتحلنـا، ونزلنـا أبعـد مـن قبـر الشـيخ الـولي الصـالح والبـدر الواضـح، ذي التّصـانيف المفيـدة، والتّـأليف العديـدة، ذي التّريـاق والـدّواء المجـرب أبـي العبـاس سـيدي أحمـد زروق البرنسـي ثـم الفاسـي**»[2]، لـيُلخص بعـدها الرَّحالـة مراحـل انتقـال الرَّكـب مـن هـذه النّقطـة إلـى غايـة دخولـه "**مصـر**"، مـع اهتمـام بـالغ بمـدة كـل مرحلـة فيقـول: «**عـدد الأيـام مـن سـيد أحمـد زروق علـى الاحتيـاط إلـى "مصـر" بحسـب مشـينا الجزائـري لا الفاسـي، فإنّـه أسـرع فـي المشـي لتـأخّره، فمـن سـيدي أحمـد زروق إلـى "الزعفـران" خمسـة أيـام ومنـه إلـى "النّعـيم" يومـان ومنـه إلـى "المـنعم" خمسـة أيـام أو صـبيحة السّـادس ومنـه إلـى "أجدابيـة" ثلاثـة أيـام، غيـر أنَّ الثالـث وصـلناه عنـد الظهـر ومنـه إلـى "سـلوك" يومـان مـع عشـية الثالـث ومنـه إلـى "التميمـي" سـبعة أيـام ومنـه إلـى "مقـرب" خمسـة أيـام مـع صـبيحة السـادس ومنـه إلـى "المـدار" أربعـة أيـام أو خمسـة** (ويـذكر الرّحالـة فـي سـياق آخـر أنَّـه صـلى صـلاة عيـد الفطـر ـ أول شـوال ـ بـين معطـن مقـرب والمـدر) **ومنـه إلـى "الشّـمامة" أربعـة أيـام**»[3]، وبوصـولهم إلـى "الشّـمامة" تنتهـي عمالة "طرابلس".

ويمكـن الإشـارة إلـى أنَّ الرَّحالـة قـد أسـهب فـي وصـف "طـرابلس"، وسـرد تاريخهـا منـذ خـروج الـروم منهـا، ودخـول المسـلمين إليهـا سـنة ثـلاث وعشـرين هجريـة،

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 189.
2) ـ نفسه، ص 217.
3) ـ نفسه، ص261.

معتمداً في ذلك على العديد من المؤلفات التّاريخية والرَّحلات السّابقة، كما أنَّه أطال الحديث على من التقى به من علماء ومن زارهم من أولياء.

❖ **القاهرة (مصر):**

لقد سلك الرَّحالة عند عبوره أرض **"مصر"** إلى الأماكن المقدسة، مسار دأب من سبقه من الرَّحالة المغاربة على سلوكه، فانطلاقاً من **"واد الرهبان"** باتجاه أرياف مصر (كرداسة والمنصورة) ثم "كفر حمام" ومنه إلى المنشية بمحاذاة شاطئ واد النيل، ويشير **الورثيلاني** إلى أنَّ الوصول إلى "بولاق" القريبة من "القاهرة" - وهي المحطة الكبرى الأخيرة قبل وصول الرَّكب إلى "مكة المكرمة" - لم يكن مشياً على الأقدام أو ركوباً على ظهور الأنعام، إنّما النّاس «**يقطعون إلى "مصر" في الزّوارق، أي المراكب، فكلّ من يأتي من جهة "المغرب" من الحيوانات العاقلة والبهائم لا يقطع إلّا فيها بالكراء**» [1]، فقطع النّيل بأجرة كما هي العادة، لينفصل الرَّحالة مع بعض أصحابه عن الرَّكب الجزائري لما اشتهر به من ظلم وتعدي، وفي نيتهم السَّفر والخروج مع الرَّكب المصري حين خروجه.

ويبدو أنَّ **الورثيلاني** أثناء نزوله بمصر قد جمعته علاقة محبة وأخوة مع العديد من أعلامها ووجهائها، كالشَّيخ عبد الرؤوف نقيب كسوة الكعبة الذي استضافه في منزله وبالغ في الإكرام والمبرة والاحترام، كما أنَّه حضر حفل خروج محمل كسوة الكعبة.

وكعادته مع العلماء والصَّالحين من الأولياء، فقد زار من بالأزهر الشّريف من المشايخ والطلبة، فالتقى بالشّيخ **محمد الحفناوي** والشَّيخ **الصَّالح** والشَّيخ **الجوهري وأبي الحسن** شيخ رواق المغاربة والشَّيخ **العمروسي** وغيرهم كثير، كما حضر حلقاتهم ودروسهم، ولم يفوت عند اجتماعه بهم الفُرصة للحصول على الإجازة منهم، على ما عرضه عليهم من شروح، كان قد ألّفها أو ما حفظه من علوم، ومنهم الشَّيخ **خليل المغربي** والشَّيخ **الملوي** والشَّيخ **علي الصَّعيدي** وقد أجازوه في جميع العلوم.

---

1) – الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 261.

كما أنَّه خصص أثناء إقامته نصيباً كبيراً من وقته وجهده لزيارة قبور الصَّالحين وأضرحتهم، فيقول: **«فالّذي زرناه تلك المدة لا يُزار إلّا في أيام عديدة، ومع ذلك وجدنا حلاوةً ما وجدناها في غيرها من الزّيارات»** [1]، ويعود سبب إكثار الرَّحالة من الزّيارات، لأنَّه مجبولٌ على حبّها منذ الصّغر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، ما تمتاز به مصر عن باقي الأقطار العربية يقول عنها: **«إنَّ "مصر" حُشِيَتْ بأولياء الله، وأنّهم فيها كالنّجوم في السَّماء، فالمستور فيها أكثر من الظّاهر»** [2]، ونذكرُ منهم: عبد الرحمن بن القاسم وأبا حفص عمر بن الفارض والشيخ أبا عبد الله المغاوري، ولعل أشهرهم على الاطلاق الإمام الشافعي، وعنه يقول: هو **«الإمام الذي لا ينبغي لأحدٍ دخل "مصر" أنْ يهمل زيارته، إذ هو صاحب التّصريف التّام بـ "مصر"، رئيس الأئمة، وشيخ شيوخ الأمة، محمد بن إدريس الشافعي -رضي الله عنه-وعليه بناءٌ عظيم ومسجدٌ وخانقات، وقوم من الفُقراء يسكنون هُنَاك، وقيّم المشهد لا يفارقه - ليلا ولا نهارا-»** [3].

ومن الأمور التي حرص الرَّحالة على تسجيلها، تأكيده على التَّزود جيداً بالمؤن، وحملها إلى أماكن متقدمة من درب الحج، مخافة ندرتها أو غلاء ثمنها في تلك المنازل التي سينزلون بها، كما حذّر من مكر وخداع المكارين والحمَّالين من تجاربه الخاصة معهم.

وتشرف إقامة الرَّحالة في **بولاق** على الانتهاء، مع خروج محمل كسوة الكعبة المشرفة من **القاهرة** يوم الواحد والعشرين من شوال، والنُّزول خارج باب النَّصر بالعادلية، فيبدأ التهيؤ للرحيل، وقد جرى التَّشاور قبلاً بين رجالات الرَّكب الجزائري، وتمَّ الاتفاقُ على السَّفر مع سلطان فزان وحاكمها، ويقول **الورثيلاني**: **«فلمّا وصلنا إليه أخبرناه بالسَّفَر معه، وأخبرناه السَّبب، ففرح وسرّ بنا سروراً عظيماً، فلمّا رَحَلَ رحلنا معه ونزلنا عليه خارج "مصر"، وبعد ذلك اختلط معنا**

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 308.
2) ـ نفسه، ص 322.
3) ـ نفسه، ص 294.

ركب "الجزائري"، ثم رحلنا معه في النّهار إلى "البركة"» [1]، وهو المكان الذي ينزل به المحمل من الثالث والعشرين شوال إلى السابع والعشرين منه، وأثناء هذه المدة تنصب الأسواق، ويكثرُ الشّراء لرخص الأثمان، يقول **الورثيلاني** لما تمَّ الاستعداد للرّحالِ، وحانَ أوان المسير إلى مكة المكرمة: «**نكبنا "البركة" ذات اليسار، وشمَّرنا ذيول التِّسَيار، آمين "الدار الحمراء"** (إلى أن يقول)، **فنزلنا غربي "الدّار الحمراء" فاستهلَ هلال ذي القعدة وهو كالسّنان المنعطف فوق الصّعدة»** [2]، ويستمر مسيرُ الرَّكب باتجاه بندر عجرود، وقد تمَّ فيه المبيت، ليتمَّ الظعنُ في الصَّباح إلى النَّابغة لعذوبة مائها، ويقول: «**سرنا كذلك إلى قرب الزّوال فنزلنا "النابغة" في رمل عظيم بين آبارها المحفورة»**[3] ليتجدد المسير قاصدين العقبة وهي أخر عمالة مصر، يلتف الرَّكب ناحية الجنوب ليدخلوا «**"التيه" الذي تاه فيه بنو إسرائيل»**[4]، وهذا الموضع من الأرض موحشٌ صعبٌ، يكثرُ الهلاك من العطش لشدة الحر فيه مع انعدام الماء، وبعد تلك المرحلة وقع الفرحُ والسُّرورُ في ركب الحجاج عند الضحى، لنجاتهم من أرض التّيه ووصولهم إلى بندر النّخيل ومنه إلى بئر الصعاليك ثم عبر أودية وشعاب صعبة تم وصولهم إلى سطح العقبة.

يأخذ طريق الذهاب بعد العقبة زخماً مختلفاً ونشاطاً متزايداً، خاصةً مع اقتراب الوصول إلى المَقْصُود، فأخذَ الرَّكب يطوي الوهاد والوديان والمضايق، مستحثاً السَّير غير مبالٍ بليلٍ ولا نهارٍ، ولم يكن نزوله في منطقة إلاَّ لاتقاء شمس الحجاز الحارقة، ثم الظعن منها إلى ما بعد العشاء للمبيت، ثم الانطلاق في أخر الليل من جديد، وقد مرَّ الرَّحالة بالعديد من المحطات فمن العقبة وصولاً إلى مغارة شعيب عبر ساحل البحر، ثم منه الحوراء مروراً بآبار السُّلطان واسطبل عنتر والأكره، وعبوراً من واد العقيق إلى الخضيرة ثم سبع وعرات ثم بدر إلى رابغ أين تمَّ الإحرام للحج، ثم ليستكمل المسير إلى الخليص، ومنه إلى عسفان، ثم التنعيم

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 302.
2) ـ نفسه، ص 300.
3) ـ نفسه، ص 348.
4) ـ نفسه، ص 349.

وصـولاً إلـى ذي الطـوى ويقـول **الـورثيلاني** فـي هـذا المقـام: «**فلمـا حصـل كـل فضـيلة ذي طـوى قـام الرّكـب علـى سـاق الجدّ والحـزم لـدخول مكـة المشـرفة، فركـب مـن ركـب ومشـى مـن مشـى، فاسـتقبلنا والتنعـيم جبـل قيقعـان، وصـعدنا إلـى الثنيـة قاصـدين أم القرى أعني مكة ودخلنا من باب المعالي**»[1]

لقـد بـرع الرَّحالـة فـي وصـف المنـازل التـي نـزل فيهـا، بأوصـاف دقيقـة، وكـأن القـارئ لرحلتـه يشـعر أنَّـه أحـدُ أفـراد الرَّكـب سـائراً معـه، ينظـر بعينيـه، معايشـاً مـا يواجه من شمس الحجاز الملتهبة أو ما يقاسيه من أرضها الوعرة.

ويبـدو جليـاً أيضـاً مـدى تشـوق الرَّحالـة للوصـول إلـى مكـة المشـرفة، وهـذا مـا انعكـس علـى أسـلوبه فـي التقـويم، فأخـذ مـن أوقـات الصَّـلاة وسـيلةً لـذلك كـأن يقـول مـثلا: **وصـلنا وقـت العشـاء أو أوان العصـر أو الظهـر**، أو يقـول: **سـرنا بعـد صـلاة الصـبح**، وأحيانـا يوثـق تقويمـه بـأجزاء الليـل والنهـار كـأخر الليـل أو عنـد الضـحى أو عنـد طلـوع الشـمس؛ كمـا أنَّـه مـن شـدة حبّـه للمكـان لـم يمـر بـواد أو جبـل أو موضـع إلا ذكـره ووصفه وصفا دقيقا.

ج. وصف لحظة الوصول إلى المَقْصُود من الرحلة:

يبلـغ زخـم الرّحلـة مـداه مـع وصـول موكـب الحجـيج إلـى "مكـة المشـرفة"، وأمـام هـذا المشـهد المـؤثر يصـف **الـورثيلاني** مـا اختلجـه مـن مشـاعر: «**فـدخلناها فـي زحمـة عظيمـة كـادت النّفـوس أن تزهـق، غيـر أنَّ سـرورها بالوصـول إليهـا خفـف بعـض الألـم، بـل قـد زال التَّعـب والنَّصـب، كـأنَّ النَّفـوس فـي وليمـةٍ عظيمـةٍ لا يعلمهـا ومـا فيهـا إلا من منحه الله**» [2]

وبعـد طـول سـفر ومشـقة يحصـل المَقْصُـودُ، وهـو بلـوغ الكعبـة وأداء فـرض الحـج تلبيـة لخليـل الله إبـراهيم -عليـه السـلام-، لا يخفـى علـى دارسـي الـرَّحلات، أنَّ الـدرب

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 399.
2) ـ نفسه، ص 400.

في هذه المرحلة «مؤطرٌ زمنياً بأشهر الحج المعلومات، ومحدد مكانيا بمكة المكرمة، ومسيج حدثياً بأداء المناسك، فلا غروَ أن يكون ممثلاً ومكرراً» [1]

ويفصل **الورثيلاني** الحديث عن مناسك الحج، من طواف القدوم ورمي الجمرات والوقوف بعرفة ... كما يذكر المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها، وبعد خروجه من مكة إلى زيارة المدينة يروي أخبارها وماثر أهلها بالتفصيل، كما يذكر ما بها من عيون وآبار، وكانت لحظة الفراق من مسجد رسول الله ﷺ، بعد زيارته وزيارة صحبه عمر الفاروق وأبي بكر الصديق.

د. وصف لحظة العودة إلى الوطن ولقاء الأهل والأحبة:

ويتسمُ هذا الطور بالإيجاز والاختصار لإتمام الرَّحالة مقصوده، إذا ما قورن بمرحلة الذهاب التي «تكون أطول لحظات الرّحلة، لأنَّ المؤلف يصف ما يشاهده لأول مرة من غرائب تشد انتباهه، فيحرص على نقلها إلى القارئ» [2] إلاَّ أنَّ هذا لم يمنع الرَّحالة بذكر مجريات طريق القدوم فقط، بل تعداه إلى الرُّجوع أيضاً، وذلك من شدة حرصه على تسجيل كل ما تعلق برحلته، مخافةَ أن يكون قد فاته شيء في الذَّهاب فيكتبَه عند العودة.

لقد سلك الرَّحالة الطريق نفسها للعودة إلى مصر، وبمحطاتها نفسها، إلاَّ أنَّنا لا نلمسُ تكراراً، وذلك لتوشيحه إياها بما استجد من أخبار اللصوص وقاطعي الطريق أو ما كان من أمر الشّيالة من نصب وخداع.

وبدخول الرَّكب **مصر** ونزوله في البركة، اضطر أغلبهم على ركوب البحر من الإسكندرية، خوفاً على أنفسهم مما وقع بينهم وبين البدويين، إلاَّ أنَّ الرَّحالة اختار الرجوع على خط الذهاب نفسه، من مصر إلى برقة ثم بعدها إلى طرابلس، مؤثراً بذلك مشاق السَّفر براً، على مخاطره بحراً، وقد صرح بذلك قائلا: «**فلم يبق إلاّ العبد وسيدي أحمد بن حمود وسيدي عبد الكريم وسيدي محمد اليعلاوي، وسيدي محمد الشريف الطرابلسي، ذهبنا في البَّر على برقة وأما ولدي وأهلي فقد**

1) ـ أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2018م، ص 36.
2) ـ محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية (بين المعرفي والأدبي)، ص 68-69.

ركبوا في البحر مع من ركب فيه، فافترقنا وعلى الله الاعتماد والتكلان، لأني لا أستطيع البحر» [1]، ويستمر السَّير براً من طرابلس إلى قابس، ويتخذ مسار العودة مجرى مخالفاً لمسار الذهاب، حيث يتجه الرَّحالة مع جزء من الرَّكب نحو الشَّمال قصد تونس بدلاً من السَّير باتجاه **بسكرة**، فيقول: «**نعم مكثنا في قابس نحو اليومين واليوم الثالث ظعنا منه، غير أنَّ طريقنا وبعض الرَّكب يريد تونس وهو من كان من نواحي قسنطينة كأولاد عيسى وأهل ابن ضيف الله وأولاد إبراهيم وغيرهم، وجعلنا ركباً مستقلاً وسيدي محمد المسعود وأهل الصَّحاري إلى قصر الطير ذهبوا ركباً مستقلاً، غير أنَّ طريقهم توزر ونفطة إلى سيدي عقبة إلى بسكرة، فقد اجتمعنا عند الارتحال، وتوادعنا فعزَّ علينا الافتراق، لوجود الاتفاق»**[2]، وقد استوقفته العديد من المعالم التَّاريخية في طريقه إلى تونس عبر صفاقس ثم سوسة.

يقول **الورثيلاني** في ذكر وصوله "تونس" وما لقيه من كرم أهلها: «**حاصله خيمتنا نزلت مع الركب، وفيها أصحابنا، وأنا قد ذهبت إلى الدَّار التي نزل بها ولدي مع زوجته حين خرجوا من البحر ينتظرون وصولي، فقام النَّاس في تونس أعني الراغبين في الخير لضيافتنا بالكسكس واللحم ـ كثر الله خيرهم ـ بحيث تكرموا علينا غاية الإكرام وزادوا على المعتاد»** [3]، وقد طابت الإقامة للرَّحالة في هذه المدينة الطيبة بأهلها والمنيرة بعلمها فهي قاعدة من قواعد العلم ومدينة من مدن الفهم، نعم طال مكوثه أكثر من أي منطقة أخرى، حيث ربت عن الخمسة أشهر، قضاها في تدريس الفنون وضبط القواعد من العلوم، كما لم يغفل عن زيارة الأولياء فهم في "تونس" كالنجوم فيقول: **وقد زرنا من يعتد بزيارته من الأموات كالأشياخ محرز بن خلف وسيدي علي بن زايد والشيخ المرجاني وما كان في الزلاج كابن عبد السلام وابن عرفة والبُرْزُلي وابن هارون وابن راشد القفصي**

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 566.
2) ـ نفسه، ص 658.
3) ـ نفسه، ص 662.

ومغارة الشاذلي ومحل الأربعين من أصحابه وغيرهم من العلماء والصلحاء ممن لا يمكن احصاؤه من المؤلفين وأرباب الأحوال العارفين»[1].

وقد خرج **الورثيلاني** من "تونس" ـ وهي إحدى المحطات البارزة في طريق العودة ـ في توديع من أهلها، نحو محطة لا تقل عنها أهمية وهي مدينة "قسنطينة" فيقول: «**فسرنا أياماً في عافية إلى أن وصلنا مدينة قسنطينة، وهي مدينة في وطننا وقاعدة من قواعد بلادنا**» [2]، ثم سار من هذه المدينة صوب "زمورة"، ولما سمع أهلها بقدومهم قاموا بملاقاتهم فرحين مسرورين.

ونشير هنا أنَّه إذا كان تاريخ خروج الرَّحالة من أهم الأمور المنهجية التي حرص على ذكرها في بداية الرّحلة، فإنَّ تسجيل تاريخ عودته إلى الدّيار، هو كذلك من الأمور المنهجية التي دأب الرَّحالة على تسجيلها بدقة متناهية، حيث يقول الورثيلاني واصفاً حال الرَّكب من "زمورة" إلى غاية وصوله لمقامه ومسقط رأسه: «**وبالجملة فالجموع من وطننا رجالاً ونساءً، هذا يتصل بنا وهذا ينفصل عنا، إلى أن وصلنا إلى مقامنا ودارنا ليلة الجمعة وليلة العيد ويوم عرفة عام 1181 أحد وثمانين ومائة وألف**» [3]، لتستغرق طريق العودة من البقاع المقدسة إلى نقطة الانطلاق الأولى تمام السَّنة، ليؤكدَ أنَّ البناء الذي تتخذه الرّحلة دائري يبدأ من لحظة الانطلاق ليعود إليها.

خلاصة القول:

تسنى لنا من خلال عرض هذا العنصر الاطلاع على أهم البواعث الموجبة للرّحلة عند العرب والمغاربة خصوصاً، كما تطرقنا لدواعي الرّحلة الورثيلانية لكونها محور بحثنا، وعلى ضوء هذا البحث والتنقيب نلاحظ ما يأتي:

- ارتباط الرّحلة بالسّياق الديني والتَّاريخي والاجتماعي والنَّفسي، فجاء تصنيفُها حسب طبيعة الباعث الذي دفع الرَّحالة إلى الخروج، الدافع الديني لأداء

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 671.
2) ـ نفسه، ص 688.
3) ـ نفسه، ص 707.

مناسك الحج، فيخرج الحاج تلبية لفريضة أوجبها الله على كل قادر من عباده، وهي تعبيرٌ منه على تعلقه الوجداني بمركز الإسلام أين توجد الكعبة والمدينة المنورة، وقد ساعدهم في ذلك تشجيع الأمراء والحكام باستحداث ركب الحجاج، كما قد يكون الدافع سياحي تصوفي بزيارة الشّيوخ والأولياء الأحياء منهم والأموات للتبرك بهم، وكان أيضا الباعث العلمي: للرَّحالة المشارقة والمغاربة، بزيارة المدارس ولقاء العلماء والأخذ عنهم، وفي إطار هذه الدوافع قد يجتمع على الرَحالة أكثر من دافع، ويمزج الرَّحالة بين فريضة الحج وطلب العلم، رحلة **الورثيلاني** على سبيل المثال، الذي جمع بين الباعث الديني والباعث العلمي أو قد يجمع الرحالة بين الباعث الديني والباعث الشخصي رحلة ابن بطوطة مثلاً.

- تعددت أسباب الرَّحالة في تدوين رحلاتهم، إما تلبية لطلب الحاكم، أو إبراز مناسك الحج للاهتداء بها وإفادة القارئ بمسائل علمية، كما أنّهم اتبعوا طرائق شتى في تدوينها: فهناك رحلات كتبت أثناء الرّحلة، ورحلات كتبت من مذكرات أصحابها، ورحلات كتبت من الذاكرة بصفة جزئية أو كلية، وهناك رحلات كتبها غير أصحابها لافتقارهم للملكة الأدبية.
- اعتمد الرّحالة **الورثيلاني** في تدوين رحلته على ثلاثة مقومات: المعاينة والمشاهدة، السّماع والمشافهة، وما نقله من الكتب المصنفة.
- مناهج تدوين الرّحلة: **الزّماني**: آني باليوم أو الشّهر أو في شكل مذكرات، محدد البداية والنهاية. **المكاني**: يتتبع الوحدات المكانية، متماسك من ناحية البناء. **الموضوعي**: اختيار موضوع بعينه وتتبعه التدوين **الانتقائي**: ينتقي الرَّحالة أفضل ما دونه في مذكراته. **الاستدعائي**: يعتمد على تداعي الأفكار.

الفصل الثاني: مكونات السَّرد في الرّحلة

تمهيد.

أولاً: السَّرد في الرّحلة.

1) ـ التَّشكل السَّردي في الرّحلة.
2) ـ خَصائص السَّرد في الرّحلة.

ثانياً: السَّارد في الرّحلة.

1) ـ الوَضعيات السَّردية للرَّحالة.
2) ـ وظائف السَّارد.

ثالثاً: المَسرود له في الرّحلة.

1) ـ مفهوم المسرود له.
2) ـ تشكلاتُه في الرّحلة.

تمهيـــد: السّرد والرّحلة.

يعدّ مصطلح السَّرد **(La narration/ the narrative)**، من أهم إنجازات البحث في العلوم الإنسانية في القرن العشرين، فقد عُنِيَ بِدراستِه العديدُ من النّقاد الغربيين مع بداية العقد الثاني من القرن الماضي، ومازال إلى يومنا هذا، يُثير مزيداً من الانشغالات الكثيرة من حيث مفهومه ومنطلقاته، بل إنَّ التَّطور المفهومي المستمر لهذا المصطلح أصبح مثاراً لاختلاف النّقاد والمنظرين، حيث تعددت اجتهاداتهم وتراكمت مواقفُهم المتباينة على مدى القرنين الماضيين؛ وبما أنّنا نحاول في بحثنا هذا الوقوف على تقنيات السَّرد في الرّحلة الورثيلانية، فإنَّ أول سؤال يجب أن يطرح في هذا السّياق هو: ماذا يُقصَد بمصطلح السَّرد؟ أو ما هو السَّرد؟

من بين أهم الاتجاهات الغالبة في دراسة مصطلح السَّرد اتجاهان:

الأول سار عليه **فلاديمير بروب (Vladimir Propp)** و**كلود بريمون (Cloud Bremond)** و**جوليان غريماس (Julien Greimas)** في دراسة السَّرد ضمن نطاق تتابع الأحداث ودلالتها.

الثاني سار مع منهج **تزفيتان تودوروف (Tzvetan Todorov)** و**رولان بارت (Roland Barthes)** و**جيرار جنيت (Gérard Genette)** في دراسة السَّرد أو الخطاب السَّردي ومكوناته [1]، هذا الأخير الذي سنحاول الوقوف معه.

إذا تجاوزنا المفهوم اللغوي لكلمة (سَ رَ دَ) التي تُحيل إلى التَّتابع [2] أو النَّسج [3]، فإنَّ السَّرد بأقرب مفهوم إلى الذهن هو الحكي، الذي يقوم على دعامتين أساسيتين:

- أول دعامة هي: أن يحتوي الحكي على قصة، تضم أحداثاً معينةً.

---

1) ـ عبد الرحمن بغداد: "مصطلح السَّرد-المفهوم والمكونات تجربة جيرار جنيت نموذجاً"، السرديات والترجمة العربية، تنسيق سيدي محمد بن مالك (دار ميم، الجزائر، ط 1، 2018م)، ص 26.

2) ـ ورد في لسان العرب في مادة (**س ر د**): السرد في اللغة تقدمة شيء إلى شيء، تأتي به متسقا بعضه في إثر بعض متتابعا، سرد الحديث ونحوه يسرده سردا، إذا تابعه، وفلان يسرد الحديث سردا، إذا كان جيد السّياق له. ينظر: ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، لبنان، ط 1، 2000، مج 07، ص 165.

3) ـ ورد في قاموس المحيط في مادة (**س ر د**): سرده سرداً يسرده خرزه والشيء يسرده سدا ثقبه، والدرع نسجه، والسرد اسم جامع للدروع وسائر الحلق، لأنه مسرد فيثقب طرفا كل حلقة بالمسمار. ينظر: بطرس البستاني: محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1993، ص 263.

▪ وثـاني دعامـة هـي: أن توجـد طريقـة تحكـى بهـا تلـك القصـة، وهـذه الطريقـة تسـمى سـرداً، وعـن طَرِيْقِهـا يـتم التَّمييـز بـين أنمـاط الحكـي، لأنَّ قصـةً واحـدةً يمكـن أن تحكـى بطـرق متعـددة [1]، إذن فالسُّـؤال عـن السَّـرد هـو سـؤال عـن الكيفيـة التـي تـروى بها القصة.

يقتضـي كـل خطـاب تواصـلي وجـود مرسـل ورسـالة ومرسـل إليـه، وتشـكل هـذه المقتضـيات القـانون الخطـابي الثلاثـي الشَّـائع، وكـون الحَكـي قصـة محكيـة فهـو خطـاب، يفتـرض وجـود مكونـات سـردية مهمـة تكتمـل بهـا بنيـة الخطـاب السَّـردي، وهـي: شـخص يحكـي هـذه القصـة وهـو السَّـارد، وشـخص فـي مواجهتـه يسـتقبل مـا يحكـى، وهو المسرود له، ويتمّ التَّواصل بين الطرفين عبر قناة، كما في الشَّكل:

الرَّاوي ـــــــــــــــــــ المروي ـــــــــــــــــــ المروي له

Narrateur Narration Narrataire

وعليـه فالسَّـرد هـو: «الكيفيـة التـي تـروى بهـا القصـة عـن طريـق هـذه القنـاة نفسـها، ومـا تخضـع لـه مـن مـؤثرات، بعضـها متعلـق بـالرَّاوي والمـروي لـه، والـبعض الآخـر متعلـق بالقصـة ذاتهـا» [2]، وبوجـه عـام فالعمليـة السَّـردية تقتضـي ثلاثـة عناصـر أساسـية: العنصـر الأول، الحكايـة: وهـي القصـة المسـرودة، أمـا العنصـر الثـاني، السَّـارد: وهـو محـول المسـرود إلـى العنصـر الثالـث وهـو المسـرود لـه، أي مـن يسـتقبل المسرود.

والحـديث عـن العمليـة السَّـردية لـيس المقصـود بهـا وضـع سلسـلة مـن المتواليـات الجُمليـة إلـى حـد تركيـب موضـوع مـن المواضـيع، فـالقول بهـذا مـن شـأنه أن يميـع هـذه العمليـة التـي هـي فـي الأسـاس عمليـة معقـدة لهـا ضـروبها وأدواتهـا وتقنياتهـا المـائزة التـي تسـمح لهـا بالارتكـاز الفنـي، وضـمان «تواصـل محقـق مـع الجـنس الـذي يكتـب فيـه،

1) ـ ينظر: حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2000م، ص 45.
2) ـ نفسه، ص 45.

ومـع الـذات الفاعلـة التـي تصـوغ الأحـداث والأفكـار، ثـم مـع المتلقـي» [1]، وعليـه فهـي تخضع إلى ثلاثة مؤثرات [2]، هي:

1. **الجـنس الأدبـي:** الـذي تـتم داخلـه الكتابـة، لأن السَّـرد يوجـد فـي كـلّ الأجنـاس الأدبيـة، وفـي كـلّ الأشـكال التّعبيريـة، ولكـن لكـل جـنس أدبـي سـرده، والجـنس هنـا هـو أدب الرحلـة، الـذي يتميـز خطابـه «عـن غيـره مـن الخطابـات الأدبيـة كونـه يعمـد إلـى الواقعيـة، المحملـة بعـبء الحقيقـة المحمولـة كثقافـة شـارحة للمرصـود مـن المرئيـات والأحـداث» [3]، فهـو قصـة سـفر، الـذي مـن أهـم سـماته «فعـل الكتابـة اللاحـق علـى الانتقـال الجسـدي السَّـابق، وقـد اسـتدعى هـذا التَّقييـد للحـدث فـي كثيـر مـن الأحيـان، تداعيات إخبارية وحكائية، كانت لها وظائف متعددة داخل الرحلة» [4].

2. **الـذات السَّـاردة:** التـي يمـرُّ السَّـرد مـن خلالهـا، فيصـبغ بموقفهـا وآرائهـا، والسَّـارد هنـا هـو الفقيـه الرَّحالـة الـذي أنجـز جملـة مـن الأفعـال أثنـاء رحلتـه الفعليـة، بيـد أنَّـه عنـد تـدوين تلـك الأحـداث لـم يـدون كـلَّ شـيءٍ وكـلَّ حـدث عـرض لـه، بـل نجـده مهتمـاً بمـا يلفـت انتباهـه ويشـوقه، ومهتمـاً بدرجـة أعلـى بمـا يعنـي مـراده، وهكـذا فالسَّـرد فـي الكتابـة الرَّحليـة توجهـه ذات السَّـارد ـ الرَّحالـة: مـا يعنيـه ويلفـت انتباهـه، كمـا توجهـه مقصديته من وراء تدوين هذا الرّحلة، ولهذا لا يلتفت إلى ما يخالف هذه المقصدية.

3. **المتلقـي**: وهـو القـارئ المفتـرض، الـذي يوجـه إليـه الخطـاب، وعمومـاً هـو هنـا المثقفين المماثلين للرّحالة من العلماء والفقهاء.

بعـد هـذه التّوضـيحات المتعلقـة بعلاقـة الكتابـة الرَّحليـة بالسَّـرد نطـرح السُّـؤال: **مـا هي المكونات الأساسية للسّرد في الرحلة الورثيلانية؟**

---

1) ـ شعيب حليفي: الرّحلة في الأدب العربي (التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، د ط، 2002م، ص 213.

2) ـ ينظر: محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية (بين المعرفي والأدبي)، مختبر البحث في التراث والأعلام والمصطلحات، الرباط، ط1، 1433هـ /2012م، ص 287.

3) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2017م، ص 481.

4) ـ أحمد بوغلا: الرحلة لأندلسية، ص 172.

أولاً: السَّرد في الرّحلة.

1) ـ التَّشكل السَّردي في الرّحلة:

يظل الاعتراف الذي بَرم لأجله النَّص الرَّحلي عقده الإجناسي يمارس الوصاية على طبيعة عمليته السَّردية، بل لا يستطيع الخطاب الرَّحلي أن يحقق هذه الصّفة إلا عبر هذه الطبيعة، فالرّحلة قبل أن تكون نصاً مكتوباً «هي سلسلة من الأحداث المتتابعة عاشها الرَّحالة فعلياً، ثم أثناء الكتابة يعيد تقديم هذه السّلسلة من الأحداث» [1] فطبيعة السَّرد في الخطاب الرَّحلي تستمدُ إجراءها من فعل الرّحلة ذاته، حيث يخضع الخطاب إلى تحويل أهم محطات العبور في معالم انتقائية.

يعدُّ السَّرد في أدب الرَّحلات بشكل عام، الرَّابط بين التَّجربة الفعلية الماضية للرحالة، وبين استحضارها ذهنياً، ثم تحويلها إلى كتابة خطية، مما يجعل القارئ (الضمني/الحقيقي) ينفتح على تجربة الرَّحالة ويعيدها عبر اللغة انطلاقاً من فعل القراءة؛ والسَّرد في رحلة **الورثيلاني** لا يحيد عن هذا الدَّور، إذ يسرد ليستعيد تجربته الماضية لأداء مناسك الحج، وذلك عبر استرجاع مسار هذه الرّحلة ذهاباً وإياباً وإيقاع سيرها، انتقالاً وإقامةً، واستحضار أهم اللحظات والتَّجارب التي ظلت راسخةً في ذاكرته من تفصيلات استثنائية وغير مألوفة، مشكلاً بأحداثها السَّرد الإطار للرّحلة والمتمثل في سرد العبور والمشاهدات، والذي يحتضن بداخله سرد مضمن يتمثل فيما جمع من مرويات وأخبار وحكايات.

أ. السَّرد الإطار:

لقد نوعت **الرّحلة الورثيلانية** من خلال سرد الإطار بين سرد العبور الموثق للتجربة، وسرد المشاهدات الناقل لمختلف ما أثار عين وسمع الرّحالة، فلم تخالف بذلك خصائص جنسها الأدبي على مستوى السَّرد.

---

1) ـ محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية (بين المعرفي والأدبي)، ص 287.

❖**سرد العبور:**

يؤطر سرد العبور فعل السَّرد بشكل عام، وهو محكي إطار يتوافق فيه نظام السّرد مع نظام الأحداث المستعادة من الذاكرة، فالأمر يتعلق بنظام كرونولوجي خطي تتابع فيه المحطات الكبرى والصّغرى على امتداد مسار الرّحلة، ويعدُّ هذا السَّرد «شهادة ودليلاً قطعياً على فعلية الرحلة في الزّمان والمكان» [1]، يقتضي فعل العبور لهذه المحطات المكانية والزّمانية ذهاباً ابتداء من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوصول لأداء مناسك الحج، وإيباباً نحو نقطة الانطلاق الأولى، ورحلة **الورثيلاني** تحترم هذا الالتزام، فتتحدد بمتوالية من أفعال الانتقال لينقسم السَّرد إلى:

- **سرد الذهاب:**

نقصد به انتقال الرَّحالة في المكان والزَّمان بدايةً من نقطة الانطلاق التي يسرد من خلالها الرّحالة اندفاعه الأول، والذي يعد التّأشير على فعل الانطلاق وإعمال السَّفر، في قوله: «**فلمّا جهزنا الأمور، ووفينا المسطور، أخذنا في الظّعن والذهاب، (...) نمشي خطوةً بعد خطوةٍ مع التَّوديع جملة وتفصيلاً**» [2]؛ ليتوالى بعدها سرد نقاط الوصول الكبرى، كما في قوله عن وصوله مدينة "بسكرة": «**ثم ظعنّا إلى "مدينة بسكرة" ذاهبين، فبتنا في الطّريق ليلةً واحدةً، وصبيحتها ظعنّا ووصلنا عند الضُّحى غير أنَّه عاق النّاس الماء، فلا يجدون سبيلاً إلى الخروج إلّا بتعسف، فطال بنا ذلك إلى الظّهر إلّا القليل أخذوا الطّريق من بدء الوادي، فلما قطعنا الوادي نزلنا حافين بالنّهر**» [3]، وعن الخروج منها يقول: « **ظعنا منها بعد التَّمكين والاستقاء من أهلها ما قُدِرَ لنا حسا ومعنى، إلى القرية الطيبة الشريفة بتربة صاحب النبي المختار، وسيدنا ومولانا ذي الفضل والمجد الأثيل، عقبة بن نافع القريشي**» [4]، ويسردُ أيضا الرَّحالة وصوله مدينة "طرابلس" بالقول: «**ومررنا على "الزّاوية الغربية" (...)، غير أنّ الركب لم ينزلها وإنّما اجتاز عنها**

1) ـ أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية، ص247.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 93.
3) ـ نفسه، ص 103.
4) ـ نفسه، ص 131.

فقط، ومررنا على "زنزور" أيضاً، ثم منه إلى "طرابلس" وبينها وبين زنزور اثني عشر ميلا» [1]، ومن الملاحظ أن السَّرد يطول في هذه النقاط، بخلاف نقاط الذهاب الصّغرى التي يمر عليها الرَّحالة مروراً سريعاً، مثل قوله: «**ثم نزلنا بعدها بـ "صعدة" وبتنا، ثم ظعنّا منه فسرنا مرحلتين، فوصلنا إلى "معطن سلوك" ونزلناه وقت العصر فبتنا فيه، وأقمنا يوماً انتظاراً للتَّسوق من أهل بن غازي، إذ بعثنا إليهم رسولاً من "المنعم" فأتوا إلينا في الليلةِ الثانيةِ بالشَّعير وبالسَّمن والعسل وبعض الإبل»** [2]، أو كقوله أيضا: «**ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا الخضيرة أوان العصر، وهذا المنزل لا ماءَ فيه أصلاً، وبتنا على أحسن حالٍ وأتمه وارتحلنا منه آخر الليلِ، ثم كذلك إلى أن صلينا الصُّبح، وقطعنا الأمكنة المسماة بسبع وعرات، فخرجنا منه إلى متسعٍ من الأرض، وبلغنا إلى ينبع النَّخل بين الظهر والعصر في حرٍ شديدٍ، ووجدنا المصري نازلاً هناك، فنزلنا حذاءه الفلالي والجزائري والفزاني، فلما خيمنا البيوت، تفرقت النَّاس على المياه وشراء علف الدواب وما يحتاجونه من الزاد»** [3].

وينتهي سرد مرحلة الذَّهاب بتسجيل لحظات الوصول إلى المكان الهدف، المقصد الأسنى، في قوله: «**فدخلنا مكة فلم تغادر في النفس ترحه، وأزال عن الجفون كل فرحة، فدخلناها في زحمة عظيمة، كادت النفس أن تزهق، غير أن سرورها بالوصول إليها خفف بعض الألم بل قد زال التَّعب والنَّصب»** [4].

ويتميز هذا السَّرد الطابع التقريري لخطاب الرّحلة، ويكون بمثابة تقرير مسرود عن فعل وتجربة الرّحلة وصعوبات الطريق وأهوالها، كما يتميز بالموضوعية، لكون مسار الطريق غني بالأحداث، هذه الأحداث التي لا يصنعها الرَّحالة، بل يكتشفها لأول مرة، فتتساوى معرفة السَّارد والقارئ، وهو ما يمنح الرّحالةَ تشويقاً ويشدُّ القارئَ المهووس بالمعلومة والمعرفة من البداية إلى النّهاية.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 150.
2) ـ نفسه، ص 243.
3) ـ نفسه، ص 389 - 390.
4) ـ نفسه، ص 400.

- **سرد الإياب.**

إنَّ الخاصية الأساسية لسرد الإيابِ في الرّحلة عموماً، هي السُّرعة في سرد المناهل ومحطات الطريق، فيصبح الوصول إلى نقطة الانطلاق الأولى منالاً عزيزاً يستدعي طي المسافات بسرعة فائقة [1]، و**رحلة الورثيلاني** لا تشذ عن هذا النَّهج إذ تتوالى أفعال السَّفر بسرعة، وسنحاول تتبع هذه التَّوالي من خلال بعض النَّماذج السَّردية، مثل قوله: «**ظعنا من الوجه وبلغنا إصطبل عنترة وبتنا فيه واستقت الناس منه، ثم ظعنا منه صبيحة وسرنا كذلك إلى أن نزلنا الألزم والله أعلم ليلا، ثم سرنا كذلك إلى أن نزلنا آبار دار أم السلطان والله أعلم، عند العصر وبعد الظهر بسويعة**» [2]، وأيضا في قوله: «**مررنا على ساحل حامد بعد أن ظعنا من زليتن وطن الشيخ عبد السلام وزرنا قبر العالم الفاضل المؤلف الصالح المشهور سيدي الشيخ**» [3]، ومن الواضح هنا حرص الرَّحالة على تقليص سرد الإياب، إذ يشغل الجزء الخاص بعبور الإياب في نص الرّحلة نصف عدد الصَّفحات المخصصة لعبور الذهاب، مستعينا على بعض تقنيات اختزال الزمن [4].

وإذا كان سرد العبور إياباً غالباً ما يأتي بوتيرة سريعة مختزلة ومكثفة، فإنَّ الرَّحالة يسعى - في غالب الأمر- لتكملة بعض المعطيات التي لم ينتبه إليها في مسير الذهاب، فمثلاً لو قارنَّا بين المقطعين السّرديين الآتيين: الأول الوارد في مرحلة الذَّهاب وهو: «**ظعنّا من "الشمامة" إلى "واد الرهبان"؛ وهو واد عظيم طويل، وفيه قصور للعبّاد من النصارى، ينعزلون هناك للعبادة الأصنام، يخرجون من "مصر" إليه، وإنَّ "مصر" فيها طوائف من النصارى، يعطون الجزية للسلطان**» [5]، أما المقطع الثاني الواصف للمكان نفسه في مرحلة الإياب وهو: «**ظعنا صبيحة إلى أن مررنا على قصر الذي فيه النّصارى أعني الرهبان، فلما**

---

1) ـ ينظر: أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية، ص 177.

2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 553.

3) ـ نفسه، ص 626.

4) ـ يتميز سرد العبور ذهاباً وإياباً بطابعه الخطي، الذي تتخلله بعض التقنيات الزّمانية، التي يقوم بها الرّحالة بين فينة وآخر، سيتم التفصيل أكثر في هذا الموضوع في الفصل الثالث.

5) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص262.

وصلنا إلى باب القصر أشرفوا علينا فكلمناهم فكلمونا وسألونا عن مصر وكيف هي وعن حالهم فأجبناهم عما وقع بينهم وبين صالح باي الذي كان في الصعيد، فنزلنا القصر الطرفاني الخالي الذي دفنا به ابن سيدي محمد الحاج فبتنا فيه خير مبيت ثم ظعنا» [1]، نلاحظ أن المقطع الثاني لم يتطرق في سرده للمكان "واد الرهبان" كما في المقطع الأول، وإنَّما أشير فقط لما دار من حديث بين أفراد الرَّكب والنصارى حول ما استجد من أحداث "مصر" وأهلها، وكذلك ذكر من مات ودفن من الحجاج.

ويوظف هذا الأسلوب نفسه في مراحل مختلفة من الرّحلة، فعلى سبيل المثال أيضاً، المقطع الذي ذكر قرية "عرام" أثناء الذهاب: **«نزلنا "قرية عرام" بعد أن زرنا ما فيها من قبور صلحائها، ثم ظعنّا منها»** [2] والواضح أنَّ السَّرد في هذا المقطع جاء موجزاً وسريعاً ولا يحتوي على أي تفاصيل، إلاّ أنَّ الرَّحالة يتدارك هذا أثناء الإياب بقوله: **«وصلنا إلى عرام (...) وهي قرية طيبة ذات مياه عذبة ومزارع وبساتين، ومن مات منهم دفن فيها، وفيها مزارات وروضات مبنية تراها كالنجوم في السماء، ومررنا عليها صبيحة عند الضحى الأعلى، فمات عندنا الفاضل الكامل الفقيه النبيه محبنا، ومعتقدنا قاضي محروسة بسكرة فدفناه هناك، وقد اجتمع عليه جمع كثير وجم غفير»** [3]، حيث أعطى تفاصيل عن المكان وبعض أوصافه، كما أشار إلى أهم حدث والمتمثل في موت قاضي مدينة "بسكرة".

إنَّ ما يميز سرد العبور (ذهاباً وإياباً) الطابع التَّقريري، باعتباره مجالاً لانطلاق وانتقال الرَّحالة من أجل اكتشاف معارف جديدة، إذ يحدد فيه الرّحالة محطات الإقامة والرّحيل، ويحدد مدتها، إنَّه إطار لاكتساب المعرفة، وإطار للأحداث والحكايات الصّغرى والمرويات.

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 611.
2) ـ نفسه، ص 149.
3) ـ نفسه، ص 655.

❖ **سرد المشاهدات:**

يمكن تسمية هذا النوع بـ «سرد الثَّبات بخلاف سرد الفعل الذي يشخص فعل الرَّحلة والانتقال في المكان» [1]، ونقصد به ما ينقله لنا السَّارد من أحداث تقع في حضوره، ولا يكون مشاركاً فيها، وإنَّما مشاهداً لها عبر حاسة العين[2]، فهو إذن «سرد ذاتي، يقدم الرَّحالة من خلاله ذاته ووعيه وتفاعله مع المشاهدات» [3]، وقد كان الحضور الواضح لعين الرّحالة المبئرة للأفعال والأحداث، واللاقطة لمختلف التَّشكلات المكانية عبر المسار، دور في إغناء سرد المشاهدات وجعله مميزاً، وقد قسمنا هذا النوع إلى: سرد المشاهدات الثقافي وسرد المشاهدات الاجتماعي.

● **سرد المشاهدات الثقافي:**

حاول من خلاله السَّارد سرد بعض الطقوس والممارسات الثقافية التي واجهته في الطريق وأثارت انتباهه، ومن أمثلة ذلك حينما قام بتصوير مشهد خروج الركب من "العقبة"، وما صاحبه من أفراح، فيقول: «**وانحدرنا من "العقبة" إلى "ساحل البحر" اشتغل النّاس بالغداء، فلمّا فرغوا منه أخرجوا أسلحتهم وما معهم من البارود، واجتمعوا على قدم واحدة، وقدموا أمامهم سلطان "فزان"، وأخذوا في الضَّربِ بالبارود، واللعب بالخيل؛ وكذا النَّاس على الأرجل، إرهابا لعرب "العقبة" (...) وبينما نحن كذلك، وإذا عسكر من الرّكب المصري خرج ولقينا برعود من البارود، والخيل تلعب، والنّاس كذلك، إلى أن وصلنا "البندر"، فتعجب كلُّ من كان في ذلك من أهل ذلك الوطن من العرب**» [4]، وكذلك تصويره لمشهد رؤية الأنوار التي تشع من "المدينة المنورة" بالقول: «**انفصلنا عن خليص في ليلة مقمرة، بعد صلاة العشاء بأمد سمعنا النَّساء يصرخن ولهنّ صوت التولول؛ كأنّ عروساً زفّت لزوجها وصوت البنادق والبارود، وغير ذلك من أصوات الناس التي**

1) ـ بوشعيب الساوري: الرحلة والنسق (دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط 1، 2007م، الدار البيضاء، ص 212.
2) ـ أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية، ص 134.
3) ـ بوشعيب الساوري: الرحلة والنسق (دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا)، ص 212.
4) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص351.

تـدل علـى الفـرح، (...) فلمـا نظرنـا أبصـرنا نـوراً يلمـع ويلـوح جهـة اليسـار نحـو المدينـة المشـرفة علـى سـاكنها أفضـل الصـلاة والسـلام يلمـع كـالبرق وهـو يخفـق، غيـر أنـه لـيس كـالبرق لأن لـه لونـا يخـالف سـائر الألـوان كأنـه حـديث عهـد مـن ربنـا طـريء النزول، ليتم سرور الحاج ويستبشر بالقبول» [1].

وتبـرز أهميـة سـرد المشـاهدات الثقافيـة فـي التأكيـد علـى الثوابـت الدينيـة للمسـلم وتقريبهـا مـن المسـرود لـه وترسـيخها لديـه، مـع تغذيـة مخيلتـه بكـل مـا هـو غريـب وعجيـب وجديـد يشـكل إضـافة إيمانيـة لمـا هـو موجـود، ودفعـه إلـى القيـام بالرّحلـة لأداء الحج.

- **سرد المشاهدات الاجتماعي:**

يتجلـى مـن خلالـه رصـد السَّـارد لسُـبُلِ عـيش أهـل البلـدان التـي زارهـا، وأشـكال تـدبيرهم شـؤون يومياتهم، مركـزاً علـى كـل غريـبٍ وطريـفٍ وغيـر مـألوفٍ لـدى الغيـر، يقـول عـن "أهـل الجبـل": **«ومما شـاهدناه فـي عـرب هـذا الجبـل مـن الغرائـب ركـوبهم علـى البقـر، وحمـل الهـوادج عليهـا، وأناختهـا عنـد الرّكـوب والنـزول مثـل الإبـل مـن غير مشقّة عليها ولا عليهم في الإناخة»** [2].

إلـى جانـب الظـواهر الاجتماعيـة التـي أشـرنا إليهـا ورود سـرود كثيـرة عـن عـادات أخـرى مرتبطـة بـالمجتمع، كالأكـل والخـروج إلـى التّنـزه وبعـض طبـائع النّسـاء فـي المجتمـع، وعلـى سـبيل المثـال، هـذا المقطـع المتضـمن حديثـه عـن نسـاء **"المدينـة المنـورة"**: **«وقـد خرجنـا مـرة لزيـارة المسـاجد فوجـدنا الأعلـى منهـا مملـوءاً نسـاء ولـم نـتمكن مـن الـدخول إليـه، وهـن يطـبخن فيـه أنـواع الأطعمـة، ونسـاء المدينـة لهـن عوائـد مذمومـة فـي الخـروج إلـى التّنـزه والتّفـرج فـي البسـاتين والأمـاكن المنفسـحة، ويسمون ذلك القائلة»** [3].

إنَّ (الرّحالة/السَّـارد) لا يكتفـي فـي الـنّص الرّحلـي بعـرض هـذا النّـوع مـن السَّـرد، الـذي يمثـل سـجلاً ثريـاً بالتقـاط الظـواهر والعـادات والتّقاليـد الاجتماعيـة بشـكل محايـد،

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 396 - 397.
2) ـ نفسه، ص 243.
3) ـ نفسه، ص 486.

وإنَّما يلجأ إلى إرواء الجملة الخبرية في غناها المتكامل برؤيته ومنظوره هو، عبر توافقات أو تعارضات مستعملاً في ذلك الذوق المرتبط بالرؤية والسماع والقراءة[1]، كقوله عن نساء "عامر" وما يتصفن به من سوء أخلاق: «**فتجد النساء الطيبات المتبرجات كأنهن في ليلة الزفاف بهن في الأزقة والعيون مكشوفات العورات باديات المستحسن (...) غير محجبات بل كلهم أو جلهم يفتخرون بذلك، فقد ضلوا وأضلوا، فلا يسمعون إن وعظتهم ولا يرجعون إن ذكرتهم وقد اشتدت القسوة على قلوبهم، وهي أشد قسوة من الحجارة، وقد ألفوا ذلك من آبائهم وأجدادهم قبح الله رأيهم**» [2]، يبدو جلياً في هذا المقطع السَّردي جنوح (السّارد/الرحالة) في تصويره هذا نحو النبرة الانتقادية مع ما يصاحبها من وعظ وتعليق.

ب. السرد المضمن:

ويقصد بالسَّرد المضمن كل السُّرود التي يضمنها الرّحالة رحلته، فهو من هذا المنظور نصٌ قادرٌ على احتضان العديد من السُّرود والمرويات [3]، و**الرّحلة الورثيلانية** حفلت بهذا النّوع، فقد عمل **الورثيلاني** على «تحويل جسد الرّحلة إلى محطات سردية ترسم موقع النص ومراحله، على طول امتداد الرّحلة، إذ تعمل هذه المحطات على فسح المجال للرحالة الفقيه لكي يمارس متعته في الاستطراد والحكي والإضافة» [4]، فكان حضورها على الأشكال التالية:

❖سرد الأخبار:

يمكن القول بأنّه: لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يخلو نصٌ رحلي من أخبار تُحيل على الماضي، بالمعنى الذي يعطي للمؤرخ والجغرافي الاعتماد على الرّحلة مثل مصدر معتمد، يمده بمعلومات حول أحداث وتواريخ وعمران وطرق، وسواء أكان هذا الخبر مغرقاً في القدم، أو قريب العهد بزمن الرّحلة، فإنَّ توظيفه

1) ـ ينظر: شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص 225.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 703.
3) ـ ينظر: أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية، ص 247.
4) ـ عبد الرحيم مودن: أدبية الرحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1996، ص 36.

فـي الغالـب كـأداة لـدعم وعضـد مـا شـاهده الرَّحالـة بصـرياً، أو مسـاهمته فـي تنويـع مرجعيـات السَّـرد مـن أجـل التـأريخ لحـدث معـين [1]، وتبعـاً لـذلك وظـف **الـورثيلاني** نوعين من الأخبار التّاريخية، وذلك حسب أهميتها وطبيعتها الزّمنية:

- **أخبار قديمة:**

وتحيـل فيـه هـذه الأخبـار علـى فضـاءات حافلـة بمؤشـرات تاريخيـة، يسـترجعها الرَّحالـة حتّـى يكمـل رسـم صـورة الحاضـر؛ ويعتمـد هنـا علـى مصـدرين فـي بنـاء هـذا النّـوع مـن الأخبـار التّاريخيـة: المؤلفـات التّاريخيـة والسَّـماع المتصـل بالأخبـار الماضـية (التاريخيـة) [2]، ويقـوم (السّـارد/الرحالة) باسـترجاع تـاريخ أغلـب الفضـاءات والأمكنـة التـي مـرَّ بهـا، ومـا دار فيهـا مـن أحـداث مشـهورة، ومـا لقادتهـا وحكامهـا مـن خصوصـية؛ فيقـول مـثلاً عـن "قصـور حسـان" دعمـاً لمـا شـاهده عيانـاً: «**مررنـا ببئـر حسـان، وحسـان الآن اسـم علـم علـى موضـع، فيـه مـورد مـاءٍ قلّمـا يوجـد فيـه مـا يكفـي الرَّكـب إلا فـي أزمنـة الخصـب، وكـان فـي الأصـل اسـم لعامـل بعـض ملـوك بنـي مـروان بعثـوه لغـزو إفريقيـة بعـد مـوت عقبـة بـن نـافع أميـر إفريقيـا ومفتتحهـا، وارتـداد غالـب إفريقيـة، فنـزل فـي هـذا الموضـع وبنـى فيـه قصـورا تسـمى الآن قصـور حسـان وكـان يغيـر مـن هنـاك علـى إفريقيـة، وأقـام بـذلك المحـل مـدة وخبـره مشـهور مـذكور فـي تاريخ فتوح إفريقيا**» [3].

ولـم يمـر الرَّحالـة بمكـان يمتلـك تاريخـاً قـديماً إلا وعـاد بنـا إلـى ماضـيه، ليسـرد بعـض الأحـداث التـي جـرت فـي ذلـك الـزّمن، فهـا هـو حينمـا مـرَّ ركـب الحجـاج بمنطقـة "التيـه" فـي شـبه جزيـرة "سـيناء"، **يقـول:** «**و"التّيـه" كمـا فـي خطـط المقريـزي أرض بـالقرب مـن "أيلـة" لا يكـاد الرّاكـب يصـعد إليهـا لصـعوبتها؛ إلّا أنّهـا مُهـدَت فـي زمـانِ جاروبـة بـن أحمـد بـن طولـون، وهـو مقـدار أربعـين فرسـخاً فـي مثلهـا، ويسـير الرّاكـب مـرحلتين فـي "فحـص التّيـه" حتّـى يصـل "بحـر قـارون"، وفيـه غـرق فرعـون، وفيـه تـاه بنـو إسـرائيل أربعـين سـنةً، لـم يـدخلوا مدينـة ولا أَوَوْا إلـى بيـت، ولا بـدَّلوا ثوبـا،**

1) ـ ينظر: شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص 221.
2) ـ نفسه، ص 221.
3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 621 - 622.

وفيه مات موسى -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- »[1]، لقد كان لهذا النّوع من الأخبار حضور مكثف في الخطاب السَّردي للرّحلة، والملاحظ حرص الرّحالة على ادراج مصدر الخبر مؤكداً صدق الخبر ومرجعيته.

- **أخبار قريبة العهد بزمن الرّحلة:**

تهتم سرود بالحاضر وتعتمد على رؤية العين الممزوجة بقراءات سابقة لرّحلات مرت من المكان نفسه، ومثال ذلك ما أورده الرَّحالة **الورثيلاني** عن أحد الشُّيوخ وهو: «**سيدي محمد المغربي الطرابلسي -رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين- قال لنا: عام ثلاثة وخمسين ومائة وألف [1153هـ / 1740م] العام الذي قبل العام الأول، لم يقبل الله من الحجّاج إلّا سبعة، وباقي الحجّاج رجع خائبا غير أنّ السّبعة المقبولين أقبلوا على الله بالتوجه بالطّلب والسؤال والمغفرة لأهل الموسم إلى دخول رمضان، فأوّل ليلة منه تقبّل الله منهم، وغفر لأهل الموسم** »[2].

ومميزات هذا الخبر التَّاريخي في النَّص الرَّحلي أنَّه هجينٌ من الجغرافيا والتَّاريخ الواقعي المتعلق بأشخاص وأحداث والمتخيل المسموع والمرئي؛ ويتموضع بين الاختصار الكثيف أحياناً، **مثل قوله:** «**قلت: قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد ابن ناصر ما نصه -بعد ذكره كلاما يخصه-: وزرنا مسجدها، وطلعنا إلى مأذنته، وهي في غاية الإتقان والطول والسعة، تقدر الدابة على الصّعود إليها بِحملها**»[3] فالرَّحالة يلتقط الخبر الهجين من الرؤية والسّماع، ليورده بوضوح في عدد أقل من الجمل من دون إطناب.

أما إذا كان الأمر يتعلق بوقائع تتعلق بأشخاص وأحداث، فقد يميل نحو الإفاضة في السَّرد، ومثال ذلك ما نقله من أحداث قد شاهدها الرّحالة **أحمد بن ناصر** في "طرابلس" سنة 1096هـ، إذْ يقول على لسانه: «**وفي رحلتنا للحرمين الشّريفين سنة ستّ وتسعين وألف [1096هـ / 1685م] حاصرها الكفار -دمَّرهم الله تدميرا-؛ وذلك أنَّ يوم نزولنا بها بمنزل الرّكب بـ " سيف البحر"، إذا بسفن**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 344.
2) ـ نفسه، ص 41.
3) ـ نفسه، ص 105.

ثلاثٍ ظهرت على متن البحر، ثّم تتابعت الفلك في اليوم نفسه إلى أن كملت اثنين وعشرين سفينة، فأقاموا عليها - دمرهم الله - بقية الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وأهل المدينة في تلك المدَّة في هولٍ عظيمٍ، ونكدٍ جسيمٍ، وعناءٍ شديدٍ، وليس فيهم مُدَبِّرٌ، ولا ذو رأي حميدٍ أو نظر سديد؛ بل أخذوا في نقل أمتعتهم من المدينة لخارجها، ... فلما كان بعد صلاة العشاء ليلة السَّبت ضربَت الكفرة - دمرهم الله- بمدفعهم، فرأينا من ذلك ما لم نره قطُّ ولا سمعنا به؛ ترى البارود حين يخرج من بخش المدفع، فإذا بكرة محماة تحكي الشّهب خارجة منه صاعدةٌ، ثم يرمون بأخرى وترتفع أكثر من الأولى، ثم تتدلى هابطة، فإذا وقعت بالأرض سمع لها صوت هائل تُصَمُّ منه الآذان...» [1]، ولا يقتصر السّرد المضمن على سرد الأخبار بنوعيها ، إنما يتعداه إلى سرد الحكايات.

❖سرد الحكاية:

هي حكايات يتداولها العامة حول بعض الأماكن أو الأحداث، والتي يتخذ منها السَّارد موقفين متباينين:

الموقف الأول: مشكك، ويستهلها عادة بعبارة **"يزعم"** أو **"زعم"**، مثال ذلك المقطع الذي جاء فيه ذكر الشّيخ الشّريف **سيدي حسن الكوفي**، وهو: «**زعم أهل بلده أنّه طار من "الكوفة" (...) وقد قيل له ذات يوم: مل لنا بأنّك شريف؟ فذهب ساعتئذ فرجع قريبا، فإذا بيده صكّ فيه نسبه، كما كتب بخطّ كوفي، وكان واديهم لا يجري، فشكوا إليه ذلك، فقال لهم: جرّوني فيه، ففعلوا، فكان الوادي بعد ذلك يجري إلى الآن، »** [2]، فلفظة "زعم أهل بلده" توحي بشك، وعدم اليقين بصحة ما يصدر من أحداث، وكذلك لفظة "قيل" وما يشاكلها من صيغ كلفظة **"يُقَالُ"** أو **"حُكِيَ"** التي تعد صيغة للحكي العائم **(flottant)**، التي لا يمكن أن نحكم من خلالها لا متى ولا كيف ولا عن طريق من تم السَّرد [3]، مثل قول

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 170 -171.
2) ـ نفسه، ص 124.
3) ـ ينظر: أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية، ص 180.

الرَّحالــة: «**ويقــال: أنَّ بانيهــا الملــك دقيــوس، ...**» [1]، أو قولــه: «**وحكــي أنــه قــال: بينمــا أنــا فــي البريــة إذ...**» [2]، أو قولــه: «**قيـل: إنّــه ذهـب لــ "بنـي يمّـل" فـي "واد بجايـة"، وأتَـوا لـه بولـد كبيـر بلـغ حـدَّ المشـي وتجـاوزه ولـم يَقْـدِر علـى المشـي، بـأن صار مقعداً لا يقوم أصلاً، فمسح عليه ورقاه فمشى من حينه**» [3].

وتــأتي فــي خضــم هــذه السّــرود فــي الرّحلــة الورثيلانيــة مجموعــة مــن الصّــيغ، أهمهـا صـيغة "**ذكـر لنـا**" أوقـد "**ذكـر لـي**" مثالهـا هـذا المقطـع: «**وقـد ذكـر لـي بعـض الإخـوان أنّ سـيدي عبـد الحفيظ قـدم لزيـارة أهـل هـذه البلـدة ومعـه بَشَـرٌ كثيـر، كمـا هـو شــأنه إذا خــرج...**» [4]، وهــذه العبــارة تــدل علــى بعــد المســافة بينــه وبــين الــذاكر، ويوردهـا الرحالـة فـي الغالـب عنـد حديثـه عـن ماضـي المكـان، ويكـون القائـل مـن أهـل هـذا المكـان، ومـن العـارفين بتاريخـه، ويكتفـي الـورثيلاني فـي الإطـار بسـرد الخبـر أو الحكايــة دون تعليــق عليهمــا إلا بعبــارة الله أعلــم، ومــن الأمثلــة علــى هــذه الصّــيغة، حــديث السَّــارد عــن أحــدهم، إذ يقــول: «**وقــد ســمعت حكايــة عنــه إن صــحت، وهــي مشـهورة لـدى العامـة، ونصـها أنَّ الشّـيخ علـى المهـاجري كـان زمـاراً فـي الأعـراس بـأن بلـغ الغايـة فـي صـنعته(...) وهـذا إن صـحّ عنـه فغيـر بعيـد غيـر أنّـه وقـع والله أعلم**» [5].

وتنضــوي هــذه الصّــيغ الفعليــة، إضــافة إلــى أخــر مثــل صــيغة "**أخبرنــا**"، **كهـذا المقطـع: «أخبرنـي بعـض أهـل تلـك البلـد أنَّ الملـك الـذي بنـى هـذه المدينـة وقـع مَوَتَـانٌ فـي عسـكره حتّـى تفـانَوا، ولـم يُـدْر مـا سـببه، فَـأَمَرَ بشـقّ بطـنِ واحـدٍ مـنهم، وشـقّ عـن قلبـه، فوجـد فيـه دودة؛ فعلـم أنّ ذلـك سـبب مـوتهم، فـأمر بصـب جميـع الأدويـة عليهـا واحـدا فواحـدا، فلـم تمـت حتـى أخـرج زيتـاً كـان عنـده فـي قـارورة جـاء بهـا مـن أرض**

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 201.
2) ـ نفسه، ص 181.
3) ـ نفسه، ص 23.
4) ـ نفسه، ص 205.
5) ـ نفسه، ص 85 -86.

الشام، فصب عليها قطرة منه فماتت» [1]، ومن الواضح أنه يتم اللجوء لمثل هذا النوع من الصيغ عند تغيب المشاهدة ويحضر السّماع.

أمَّا **الموقف الثاني**، فهو المؤكد والواثق من صحة الحكاية، فنجده يلح في أحيان كثيرة عند السَّماع، على سنده الصّحيح الذي لا جرح ولا تعديل يشوش عليه، مستخدماً بعض الصّيغ مثل: "سمعت" أو "روى"، وبصفة عامة فإنّ صيغة الإسناد في الرّحلة تشكل «قطباً في توليد الحكي وإمداداه بأخبار تشكل لحمة بنيته، وكلما كان السّند متنوعا أفرز تعدداً في المعطيات وزوايا النظر، بحيث إنّ الصّيغتين البارزتين يمكن تحديدهما في: سند عام يحال على الغياب بالسّماع أو القول غير المباشر، وسند خاص مباشر عن طريق السّماع من الشُّيوخ وغيرهم» [2].

ومن أمثلة الإسناد الموظف في سرد الرّحلة الذي يحيل على الغياب قوله: **«وإنّي سمعت ممّن يوثق بخبره: أنّ السّيد أبا القاسم الحاج صاحب "قُرَايَة" في "بجاية"، أنّه رأى السَّيد إبراهيم في السَّماء الرَّابعة يجذب الشَّمس مع الملائكة، وكفى به»** [3] أو قوله: «**سمعت به في صِبَايِ أنَّه من أهل التَّصريف، وقد أخبرني بذلك البعض من أهل الخير ممّن يوثق بهم»** [4].

ومن أمثلة الأسناد المباشر قوله: «**قد سمعت من المبرز العدل الصّالح من أهل الفضل المرابط سعيد بن تقرين يحكي عن أبيه أو جده عن الشيخ سيدي الجودي، أنه سُرِقَ لبعض أحبابه سرقة ولم يَعْلَمْ بها إلا الله تعالى، فوقعت الشّكوى من أربابها له، فبعث لكل من اتُّهم بها، وكنت في جملتهم ...»** [5]، وأيضا قوله: «**الفقيه سيدي يحيى بن الواثق، وهو في غاية الفقه تلميذ جدِّنا، وقد سمعت منه أنَّه رأى الشّيخ خليل في النّوم، وأخذ بيده إلى أن وصل إلى الصّندوق المملوء**

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة ص 201.
2) ـ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص 230.
3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة ص 21.
4) ـ نفسه، ص 15.
5) ـ نفسه، ص 63.

بالكتب قال: فأخذ منه كتاباً وأعطاه لي، فوجدته الشيخ بهرام، فعلمت أنَّه أذن لي في مختصر الشيخ خليل» [1].

وتُجاور صيغة المسموع، صيغة أخرى هي المقروء، وهي خاصة بحكايات كرامات الأولياء التي أوردها متن رحلته إذ يقول: «**لم أذكر فيه كرامةً عظيمةً لم أرها مسطّرة**» [2]، ونضرب مثالاً على هذا النّوع من الحكايات، سرد لكرامة لأحد الأولياء إذ يقول: «**ومن كراماته -رحمه الله تعالى-أنَّه كان يعبدُ الله في خلوة بشاطئ البحر، فإذا سفينة من النَّصارى، فأخذوه ورفعوه في السّفينة، فلم تتحرّك بهم فأمرهم صاحبُها بردِّه إلى مكانه، وقال: إنَّه من رهبان المسلمين، فلم تتحرك أيضا، فقال لهم: أَبقي من حوائجه شيء؟ فوجدوا سجّادة فردّوها له، فلم تتحرّك حتّى أخرجوا عصاه وإبريقه فتحركت حينئذ**» [3].

❖ **تراجم:**

ويقصد بالتَّرجمة في الرّحلة **أن نحكي لأناس عن أناس آخرين**، أي عندما ينصب الاهتمام على شخصية معينة، والتُّراث العربي حافل بكتب التّراجم، إذ يتعلق الأمر بتقليدٍ راسخٍ في الثقافة العربية الإسلامية، وقد يضمن الرَّحالة في رحلته تراجم تشمل «الفقهاء والشُّيوخ والعلماء وبعض الأسماء المؤثرة في حياة الرَّحالة أو الآخر من الأحياء والأموات، ويتصف هذا النوع من السَّرد بالإيجاز والالتزام، بتراجم مختصرة تضيء سيرهم الثقافية والاجتماعية وتأثيراتهم، أو تقتصر على ذكر بعض الفضائل وما وقع للرحالة أو ما سمع» [4]، وعليه يتأسس كفعل سردي، في الرّحلة على المقومات الثلاثة التالية:

- «ما سمعه عنه من أخبار، فيكون الخبر خادما للترجمة.
- مكانة الشّيخ العلمية والاجتماعية والرمزية.

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 73.
2) ـ نفسه، ص 19.
3) ـ نفسه، ص 19.
4) ـ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص 224.

ـ تجربة الرّحالة رفقة العالم، ماذا قرأ عنه» [1]

ويتجسد هذا في ترجمته لأحد الأولياء بالقول: «**الشَّيخ العارف بالله تعالى، الزّاهد في الدّنيا رأساً، المتخلّي عنها نفساً، سيدي محمد بن قرّي، وقد اعتزل بأهله وسكنَ "القلعة" في غيضةٍ عظيمةٍ لا يسكنها إلا الوحوش لعدم الماء فيها، ومع ذلك، إنّه بَنَى دوره في الأوعار من الجبل مع بُعدهَا عن الوادي إلى رأس الجبل، وبنى فيها مسجداً بفضل الله سماه الجامع الكبير، فقد بناه بناءً معتبراً؛ إلاَّ إذا كان مثله في "تونس"، وأشار ـرحمه الله-إلى أنَّها تصير مدينة قاهرة آخر الزمان...**» [2]؛ وقد جسدت التَّراجم الواردة في الرّحلة مدى الوعي لدى الرَّحالة، وحرصه على تخليد ذكر العلماء ضمن رحلته الحجية.

2) ـ خصائص السَّرد في الرّحلة:

سنقف من خلال هذا العنصر عند قضيتن تخص السَّرد في الرّحلة، نسعى من ورائها إلى تمييز الخطاب السَّردي الرَّحلي بشكل عام والسَّرد في الرّحلة الورثيلانية بشكل خاص عن غيره من السُّرود الأخرى.

أ. تصنيف السّرد في الرّحلة:

يعتمد مؤلفو الرَّحلات بشكل عام على صنفين من الكتابة السَّردية هما:

❖ الصنف الأول: السَّرد المتتابع:

نجدُ الأحداث في الرَّحلات التي اعتمدت على هذا الصّنف من السَّرد «تتابع وتتوالى دون انقطاع ودون صرف نظر الرَّحالة إلى شيء آخر غير سرد هذه الأحداث بإيجاز» [3]، بدءًا من مكان الانطلاق وصولاً إلى المكان الهدف، ثم العودة إلى مكان الانطلاق؛ ويعود السَّبب الذي دفع مؤلفي هذه الرَّحلات إلى سلوك هذا المسلك حسب محمد الحاتمي، هو أنَّ هؤلاء الرَّحالين كانوا عاطلين من حلية الأدب، ولم يتمرسوا بالكتابة وأساليبها لكونهم فقهاء ورجال دين.

---

1) ـ أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية، ص 249.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 59.
3) ـ محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية (بين المعرفي والأدبي)، ص 290.

❖ **الصّنف الثاني: السَّرد المتقطع.**

الـرَّحلات التـي اعتمـدت السَّـرد المتقطـع، نجـد أنَّ الرَّحالـة لا يقتصـر فـي رحلتـه علـى سـرد أحـداث الرّحلـة فقـط، بـل يمزجهـا بشـيءٍ مـن الوصـف المنصـرف للأمـاكن الطبيعية والعمرانية والشّعر وتقديم جملة من المعلومات المعارف المتنوعة [1].

وقـد اعتمـد **الـورثيلاني** علـى الصّـنف الثـاني مـن السَّـرد، فنجـده كثيـراً مـا يوقـف السَّرد بين الفينة والأخرى من أجل تقديم أمور أخرى هي:

- **تقديم المعلومات والمعارف:**

قـد يوقـفُ الرَّحالـة سـرد أحـداث الرّحلـة بـين الفينـة والأخـرى، بهـدف تقـديم معلومـاتٍ ومعـارفَ أو نصـائحَ للقـارئ، مـثلاً فـي قولـه: «**فـلا ينبغـي للحـاج أن يكثـر الأكـل فـي هـذه المنـازل، لأنَّ كثرتـه تسـتدعي الشُّـرب الكثيـر، والشُّـرب الكثيـر فـي هـذه المعـاطن يـؤذي كثيـرا، وربمـا أهلـك، وذلـك مجـرب صـحيح، وقلـة الأكـل تشـدُّ العصـب وثاقـاً وتقـوي الأعضـاء، فـلا يظمـأُ صـاحبها أبـداً، وضـدها يرخـي الأعضـاء ويضـعف البـدن بـل ربَّمـا أمرضـه**» [2]، أو فـي قولـه أيضـاً عـن قريـة "سـيدي عقبـة": «**قـام الرَّكـب لتجهيـز الرَّواحـل مـن هـذه القريـة (...) وحسـنُها فـي المعنـى أكثـر بالسَّـيد عقبـة، وإنْ كـان لـيس بصـحابيّ وإنَّمـا سـمي صـحابياً لكونـه ولـد فـي زمـان الرَّسـول ﷺ، فمـن نظـر إلـى ذلـك سـمّاه صـحابيّاً، وإلّا، فالصَّـحابي حقيقـة هـو مـن اجتمـع بـالنبي ﷺ اجتماعـاً متعارفـاً، بحيـث تقتضـي العـادة أنّ ذلـك الاجتمـاع يفيـد الصّـحبة احتـرازاً عـن الاجتيـاز، فـلا تثبـت بـه الصّـحبة، ولا يشـترطُ فيهـا الرّؤيـة ولا الرّوايـة عنـه، وإنَّمـا هـو تـابعي؛ لأنَّ من رأى الصَّحابة تابعي**»[3]

- **إيراد الأشعار:**

وسـواء كانـت تلـك الأشـعار مـن نظمهـا الرَّحالـة أو تلـك التـي سـمعها ممـن التقـى بهـم، أو التـي نقلهـا عـن كتـب وقـف عليهـا، أو حتـى التـي يسـترجعها مـن الـذاكرة؛

1) ـ ينظر: محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية (بين المعرفي والأدبي)، ص292.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 551.
3) ـ نفسه، ص 136.

ونضرب في هذا السّياق بعضاً من النَّماذج الشّعرية التي وردت في الرّحلة، وكانت سبباً في توقف السَّرد.

-نموذج من نظم الرَّحالة في قوله:

«**أخذنا في الظعن والذهاب(...) فحينئذٍ نمشي خطوة بعد خطوة مع التَّوديع جملةً وتفصيلاً وقد قلت [1]:**

حَقِّي على الأوْطَانِ بالرّعَايَةِ * وحَقّهُمْ عَليَّ بِالهِدَايَةِ**

مَا أَصْعَبَ التَوْدِيْعَ لِلأحْبَابْ * وعِنْدَه بِالحُزْنْ واكْتِئَاب»**

- نماذج من منقول الرّحالة في قوله:

«**خلص النَّاس من تلك الضغطة، وخرجوا من ضيق القبض، وجلسوا على بسطة البسطة، ونزلَ النَّاس منها سالمين، وقيل الحمدُ لله رب العالمين، قال الشَّاعر [2]:**

كَمْ قَدْ فَكَكْنَا رَقَبَة * لَا اقْتَحَمْنَا العَقَبَة**

وَكَمْ لَنَا مِنْ أَمْنِيَةٍ * فِي حَجِنَا مُرْتَقَبَة»**

وقوله أيضاً: «**وقد انقضى عنَّا يوم العيد، وبتنا اللّيلة في "منى" في نعمة، شاملة، وبركة عظيمة، وعلينا منار الحجّ [3].**

بَلَغْتِ يَا نَفْسِي الْمُنَى في مِنَى * وَقَدْ أَزَالَ الله عَنْكِ العَنَا**

فَاسْتَنْفِذِي وُسْعَكُ في حَمْدِهِ * وَشُيِّدِي مِنْكِ بِنَاءِ الثَنَا»**

- **الوصف:**

كان الوصفُ وما يزال إجراءً أسلوبياً يسعى إلى تأنيق النَّسيج اللغوي، وتباين صفات الموصوفات الحيّة والجامدة، عبر نص أدبي تنهض اللغة فيه بوظيفة جمالية يتلاشى معها كل شيءٍ خارج حدود هذه اللغة الوصفية، وهو ملازمٌ لكل الأجناس الأدبية، وخاصة السَّرد الذي لا يقدر على تأسيس كيانه دون وصف [4].

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 93 -94.

2) ـ نفسه، ص 352.

3) ـ نفسه، ص 432.

4) ـ ينظر: عبد المالك مرتاض: في نظرية الرواية (بحث في تقنيات الرواية)، دار الغرب، وهران، 2005، ص 293.

والرّحلة بوصفها سرداً لأحداث يحتل فيها الوصف مكانة مرموقة، ويصبح دوره أكثر فاعلية عندما يعجب الرّحالة بمنظر من المناظر، أو ببناء من الأبنية، فيوقف سرد الأحداث قصد إطلاع القارئ على صورة الموصوف الذي أثار انتباهه واعجابه، فكأنّه يريد أن يشرك القارئ بما يشعر به من أحاسيس، ويقول **الورثيلاني** مثلاً واصفاً مدينةَ "قسنطينة": «**وهي مدينة في وطننا، وقاعدة من قواعد بلادنا وإن لم يكن فيها السُّلطان، ففيها نائبه السَّيد الباي، وهي مدينة قوية ليست كبيرة جدا ولا صغيرة جدا أيضا، وعليها سور كبير وفيها أبواب ثلاثة، باب الوادي وباب الجابية وباب القنطرة، وفيها بويب صغير يخرج منه الآدمي، وفيها أسواق كثيرة ودكاكين طيبة ومساجد للجمعة نحو الخمسة وبعضها في غاية الإتقان كمسجد الباشا في طرابلس، وأظن أنَّ صانعهما واحد، وهذه المدينة مبنية على كهف وجرف عظيم، يكاد من سقط منه أن يهلك بل يموت قطعا، وفيها قصبة عظيمة وعسكر من التّرك بقدر حالها، وباي سطوته عظيمة وحاله كبيرة وعساكره كثيرة، تنفذ منها للجزائر أموالٌ عظيمةٌ من المغرم، ومددها قوي وظلمها كثير وسعرها رخيص، واسعة الأرزاق... محصنة تحتها واد كبير وماؤه عذب منه يشربون إذ ينقلون ماءه إلى الدّيار، وفيه يسقون ويستقون ويغسلون ويغتسلون وعليه بنيت المدينة من قدم الزمان**»[1]

وهكذا يوقف الرَّحالة سرد الأحداث من أجل وصف محل النّزول وهو هنا مدينة "قسنطينة"، وتوقيف السّرد من أجل الوصف قد يطول كالمثال السابق، وقد يكون قصيراً، مثل وصفه "**بريكة**" في قوله: «**وهي "أرض طيبة"، وفيها نهر جاري مثل "النيل"، وهي لسيدي محمّد الحاج**»[2]

وما أشرنا إليه من توقفات سابقة هي توقفات مؤقتة آنية، لأنَّ الرَّحالة ما إن ينهي الذي من أجله أوقف السَّرد حتى يعيد إليه تدفقه، لتواصل العملية السّردية بين التدفق والتوقف إلى نهاية الدائرة السّردية التي تبدأ من نقطة الانطلاق بالمغادرة،

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 688 - 689.
2) ـ نفسه، ص 102.

وتقفل راجعةً إليها بالعودة، وبهذا يكون السَّرد قد أدى دوره، والسَّارد أنهى حكاية سفره، مستجيبا لأفق انتظار القارئ، الذي ينتظر بشوق نهاية الحكاية بناءً على الميثاق الرَّحلي الذي تعود فيه الانتهاء إلى نقطة البدء [1]

ب. نمط السَّرد في الرّحلة:

بعدما بيّنا الصّنف السَّردي الذي انتهجه **الورثيلاني** في الرّحلة، تجدر الاشارة إلى أنَّ هذا السَّرد لا يسيرُ على منوالٍ واحدٍ في المتن الرَّحلي، بل نجد أسلوبَه أحياناً يرتقي إلى درجة عالية من الأدبية، بينما ينزل أحياناً أُخرى إلى درجة التَّقرير؛ وتبعاً لهذا، فإنَّ **الرّحلة الورثيلانية** تضمنت نمطين سرديين هما:

❖ النَّمط الأول: السَّرد التقريري.

في السَّرد التقريري، تكون الأولوية لسرد الأحداث فقط، وإخبار القارئ بما وقع في مسار الرّحلة دون أي تأنق في الأسلوب، ودون إضفاء أي صبغة ذاتية على السَّرد، فيأتي السَّرد في صورةِ لقطاتٍ متتابعةٍ يتتبعها القارئُ دون أن ينفعل معها، كقول الرّحالة: «**مررنا على ولد الشَّيخ بو عزيز الحناشي، وهو الشَّيخ إبراهيم، (...) فأتى إلينا، ونحن السَّابقون، فسلّم علينا، وطلبنا في الدُّعاء، فدعونا له بالهداية والرجوع إلى بلده، وإنّه أمرنا بالنزول عنده، فامتنعنا من ذلك؛ لأنّه أول النّهار، ثم سرنا فبتنا عند "أولاد يعقوب" ثم رحلنا عند الضحى؛ فجاؤوا إلينا بجيوشهم ظنّا منهم أنَّ العرب غارت عليهم، فلمَّا التقى الجمعان علموا بنا أنّنا حجّاج، فرجعوا ونزلنا عند السَّبخة عند صلاة العصر**» [2].

والملاحظ أنَّ السَّرد هنا يتتابع في حيادٍ تامٍ، إذْ لا يوجد في القول المستشهد به أيّ فعلٍ أو صفةٍ تدلُ على موقف السَّارد أو أية مشاعر وأحاسيس اتجاه الأحداث المسرودة، رغم كونه مركز هذا السَّرد.

إنَّ تركيز الرَّحالة في السَّرد التقريري يتجه نحو إخبار القارئ بمراحل السَّفر المتتابعة، وبمحطات النُّزول المتتالية دون أي شيء آخر، كما في قوله: «**ظعنا منه**

---

1) ـ ينظر: محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية (بين المعرفي والأدبي)، ص 297.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 146.

فنزلنا شرف بني عطية (...) بتنا فيه خير مبيت، ثم ارتحلنا منه آخر الليل، ثم سرنا إلى أن نزلنَا بحفائر النَّخل (...) وبتنا فيه في أرغد عيشٍ وأتمّه، ثم ارتحلنا منه ونزلنا بندر العقبة أظنه عند الزوال أو بعد الظهر، وبتنا في ليلتين واستقينا من البئر التي في وسط القصر، فاشترى كل من أصحابنا كل ما يخصهم لأنَّ فيه سوقاً عظيمةً» [1].

❖ **النَّمط الثاني: السَّرد الأدبي.**

في السَّرد الأدبي لا يكون هَمُّ الرَّحالة منحصراً في إطلاعِ القارئ على مراحل السَّفر ومحطاته فحسب، بل إلى جانب هذا، يحاول نقل بعض الأحاسيس والمشاعر التي يشعر بها، مما يصبغُ السَّرد بظلالٍ ذاتيةٍ تزيد من شد انتباه القارئ لمتابعة القراءة، ويكشف **الورثيلاني** عمَّا جال في داخله حينما التقى بأحد الأعراب في طريق العودة، فيقول: «**وإذا برجل أتاني على رجليه زي الأعراب، غير أنَّه ليس عليه آثار السَّفر، تشتم منه رائحة الولاية، فلما دنا مني أصابني منه الرعب والفزع، ومع ذلك أسير مع أصحابي الفضلاء (...) نعم قلبي متعلق بذلك الرجل إلاَّ أنَّه استولت هيبته وجلالته عليَّ، فلم أستطع كلامه وأنا أسير، وهو يسير معي ملاصقاً ركبتي أظنها اليُسرى فلمَّا تمكن منه قلبي وملأت عيني من نظره من غير نطق مني إجلالاً وتعظيماً له، علماً مني أنَّه أحد أصحاب الوقت إذ يعلوه نور، ونحن كذلك، فإذا هو دفع لي مسواقاً رقيقاً يُساق به مثل البغلة لراكبها كأنه عود الأراك أو من الريحان (...) وعند مده ذلك العود فارقني بأن قال لي خذ هذا، ففهمت أنَّ الله فرَّج عنَّي»** [2]

إنَّ السَّرد في المقطع السَّابق ليس تقريراً محايداً بل مصطبغاً بأحاسيس الذات وشعورها، كما أنَّه ليس سرداً خالصاً وإنَّما امتزج بالوصف، فالرَّحالة يقدم لنا هذه السُّرود في لوحاتٍ أتقنَ تركيب أجزائها مع الوصف.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 555 - 556.
2) ـ نفسه، ص 546.

وفي مقطع آخر يسرد ما حدث له، حينما تخلف عن الرَّكب انتظاراً لأحد رفاقه، فيقول: **«انتظرناه إلى أن استوى رحله، وقام على جَادة الطريق، وإذا بالحجاج فاتُونا، فلم يقع لنا بصرٌ على أحد ومع ذلك ضل عنَّا الطريق (...) ثم أنَّي نزلت عن بغلتي وانثنيت إلى الجبل وتبعني سيدي أحمد، ومن معه وأنا كذلك أتحسس من الرَّكب، فلم أسمع صوتاً ولا همساً، ثم كذلك إلى قرب انقطاع الجبل فتحسست منه أيضاً، فسمعت صوت سائقة الإبل وراء الجبل ففرحت غاية الفرح، وبينما أنا كذلك إذْ رأيت الرَّكبَ يمشي، فكان الحجاج عن يمين الجبل ونحن عن يساره (...) فرجعتُ إلى سيدي أحمد الطيب، فذكرت له الخبر بعد أن آيس من لحوق الركب»** [1].

يتبينُ الفرق واضحاً بين السَّرد في المثالين الأخيرين، والسَّرد في المثالين السابقين عليهما، فبقدر ما كان الرَّحالة في النّموذج الأول حريصاً على إخبار القارئ بالأحداث مجردة وباقتضاب، كان في النموذج الثاني حريصاً على نقل هذه الأحداث في شكل صور ومشاهدات مصطبغة بأحاسيسه وشعوره، لتكون أكثر إثارةً للقارئ، وأكثر شداً لانتباهه، وأكثر تحقيقاً للمتعة.

كما نجدُ أنَّ النَّمط الأول يطغى على الكتابة الرَّحلية، بخلاف النَّمط الثاني، فهو أقل حضوراً في متن الرّحلة، ومردُّ هذا التَّباين في استخدام النَّمطين إلى طبيعة شخصية الرَّحالة الدينية، فلكونه من الفقهاء يقلُّ اهتمامه بالأدب وبالكتابة الأدبية، فمن المعلوم أنَّ الكتابة الأدبية تتطلب أن يبذلَ السَّارد جهداً أكبر بكثير من الجهد الذي يبذله حين يوظف السَّرد التَّقريري، فهو لا يتأتى لأحدهم إلاَّ بالميل نحوه وبممارسته المتكررة من أجل صقل أسلوبه.

خلاصةُ القَول:

■ السَّرد هو الرابط بين التجربة الفعلية الماضية للرحالة وبين استحضارها ذهنياً، ثم تحويلها الى كتابة خطية، أي إعادة إنتاج الفعل إلى خطاب مع الحفاظ على الزَّمن والمكان والشّخصيات، وقد تشكل في رحلة **الورثيلاني** وفق نظام كرونولوجي خطي تتابعت فيه المحطات الكبرى والصُّغرى، على امتداد مسار

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص627.

الرّحلة ذهاباً من الانطلاق حتى الوصول الى الهدف، وهيمنة بنية السَّفر سبيل لا مفر منه للتخطيب السَّردي للرّحلة، وهي بنية نمطية تؤهل النَّص إلى تمييزه كجنسٍ أدبي مستقلٍ.

■ التزم **الورثيلاني** في سرد المُشاهدات، بالسَّرد الذاتي لأحداث لا يكون فيها مشاركاً، ويكون إما سرداً ثقافياً للطقوس والممارسات الثقافية، تأكيدا للثوابت الدينية، وتقريبها للمسرود له، وإما سرداً اجتماعياً: للظواهر الاجتماعية للبلدان.

■ وظف **الورثيلاني** سرد الإخبار توظيفاً مكثفاً للإحالة على أحداث الماضي من المؤلفات التَّاريخية ومن رحلات سابقة، وهو إخبار هجين بين التَّاريخ والجغرافيا، كما وظف سرد الحكاية وأخذ من العامة حول الأماكن والأحداث، واتخذ منه موقف المشكك تارةً وموقف الواثق تارةً أخرى.

■ اعتمد **الورثيلاني** في رحلته على السَّرد المتقطع أكثر من المتتابع، فغالباً ما يوقف السَّرد، ليقدم معلومات للقارئ ويثير إعجابه، واعتمد على النَّمط التقريري كثيراً لسَّرد الأحداث مهتماً بمراحل السَّفر وبمحطات النُّزول، أما السَّرد الأدبي فقليل، لأنَّه يتطلب جهداً أكبر لنقل الأحاسيس، بالنظر لطبيعة شخصية **الورثيلاني** الدينية.

ثانياً: السَّارد في الرّحلة.

إنَّ تقنيةَ السَّارد تُعدُّ «من أقدم التّقنيات توظيفاً في مجال السَّرديات، فلو عُدنا إلى أقدم أنماط السَّرد في التراث العربي، لوجدنا أنَّ هذه التقنية قد وظفت بأشكال مختلفة، لكنَّها تتفق جميعها على أنَّها تمثل الذات الثانية للكاتب، التي من خلالها ينقل خطابَه السَّردي للمتلقي» [1] فالسَّارد إذن: «ممثلٌ سردي يقوم بدور الوساطة بين الأحداث والوقائع من جهة، ومتلقيها من جهة أخرى، إنَّه الشَّخص الذي يقوم بالسَّرد، والذي يكون شاخصاً فيه، وهناك على الأقل ساردٌ واحدٌ لكل سرد، ماثلا

1) ـ عماد خالد: تجليات الخطاب الروائي (مقاربة في تقنيات السرد)، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2016م، ص 54.

في مستوى الحكي نفسه، مع المسرود له الذي يتلقى كلامه، وفي سرد ما قد يكون هناك عدة ساردين، لعدة مسرودين لهم، أو لمسرود واحد بذاته» [1]، أو «إنَّ السَّارد هو الشَّخص أو الفكرة أو الشَّيء الذي يقوم بتقديم الخطاب السَّردي وإرساله باتجاه المسرود له، أي متقبل السرد» [2].

وإذا كان السَّارد هو من يقدم المادة القصصية، فإنَّه لا يقدمها في العمل السَّردي بشكل يجعلها مجردةً أو في صورة موضوعية تقريرية، وإنَّما تخضع لآلية وتنظيم خاصين، ينبثقان من المنظور الذي ترى من خلاله، ويخوض النَّقد السَّردي المعاصر في تباين كبير حول ما يتعلق بوضعية السَّارد في القصة، وتعدد فيما يخص المصطلح، ومنشأُ هذا الاختلاف يعودُ إلى اختلاف وجهات النَّظر في دراسته، ولم يتسن للنَّقد العربي إلاَّ الأخذ من هذه المنابع الغربية، التي هي أصل كلّ عملية نقدية معاصرة، يتصدرها المذهب الرُّوسي ثم المذهب الانجلو أمريكي، ثم المذهب الفرنسي، فالألماني؛ وبالرغم من التباين في وجهات النَّظر وتحديد المصطلح، بيد أننا نجد تصورهم واحداً، وأنَّ معظم مصطلحاتهم تصبُّ في مفاهيم متقاربة جداً، نجملها بالقول بأنَّها: «ذلك الموقع المتخير قصداً بحيث يمكن رؤية أحداث القصة من خلاله» [3]

ولو توقفنا عند وجهات نظر كل من **جان بويون (Jean Pouillon)** و**تزفيتان تودوروف (Tzvetan Todorov)**، و **"توماتشفسكي"** نجد أنَّ الأول يحدد منظور السَّارد من ثلاث زوايا:

الرؤية من الخلف (Vision par derrière): ويكون السَّارد عارفاً أكثر مما تعرفه الشَّخصية الحكائية، إنَّه يستطيع أن يصل إلى كل المشاهد، كما يستطيع أن يدرك ما يدور بخلد الأبطال.

الرؤية مع (Vision avec): تكون معرفة السَّارد هنا على قدر معرفة الشخصية الحكائية، فلا يقدم لنا أي معلومات أو تفسيرات، إلاَّ بعد أن تكون الشَّخصية نفسها قد توصلت

1) ـ يوسف حطيني: مصطلحات السَّرد في النقد الأدبي، عالم الكتب الحديث، عمان، ط1، 2019م، ص 123.
2) ـ عليمة قادري: رحلة السرد (السندباد يعود من بعيد)، دار الكتاب، عنابة، ط 1، 2013م، ص 134.
3) ـ عماد خالد: تجليات الخطاب الروائي (مقاربة في تقنيات السرد)، ص 64.

إليها، ويستخدم هذا الشَّكل ضمير المتكلم أو ضمير الغائب، والسَّارد في هذا النوع إما أن يكون شاهداً على الأحداث أو شخصيةً مساهمة في القصة.

الرؤية من الخارج (Vision de dehors): تكون معرفة السَّارد أقل مما تعرفه الشَّخصيات الحكائية، وهو هنا يعتمد على كثير من الوصف الخارجي أي وصف الحركة والأصوات. [1]

أما الثاني فكان تقسيمه على النحو التالي:

1/الرؤية الخارجية/ سارد خارجي غير موجود في القصة ولا في الخطاب فهو خارج المتن.

2/ الرؤية الداخلية/ سارد داخلي موجود في القصة وفي الخطاب مشارك في الأحداث.

3/ الرؤية الخارجية / السارد الخارجي موجود داخل القصة والخطاب بصفته مشاهداً للأحداث لا غير. [2]

أما الأخير فيميز بين نمطين: السَّارد الموضوعي **(Objectif)** والسارد الذاتي **(Subjectif) .**

ففي الحالة الأولى، يكون غير مشارك، لا يتدخل ليفسر الأحداث، وإنَّما ليصفه وصفاً محايداً كما يراها.

وفي الحالة الثانية، يكون السَّارد مشاركاً في الفعل، ولا تقدم الأحداث إلاَّ من خلال زاوية نظره، فهو يخبر بها، ويعطيها تأويلاً معيناً يفرضه على القارئ، ويدعوه إلى الاعتقاد به. [3]

للسَّارد وضعيتان في الحكي، إما أن يكون ساردا خارج نطاق الحكي (**Narrateur hétérodiégétique**)، أي: «لا يكون جزءاً من المادة المحكية الّتي يقدمها، وهو ليس شخصية مشاركة في المواقف والوقائع» [4]، وإمَّا أن يكون

---

1) ـ ينظر: حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ص46-47.
2) ـ نفسه، ص 46-47.
3) ـ نفسه، ص 46.
4) ـ يوسف حطيني: مصطلحات السرد في النقد الأدبي، ص 123.

ساردا ممثلا داخل الحكي (**Narrateur homodiégétique**)، فهو «جزء من المادة المحكية الّتي يقدمها، إنَّه شخصية من الشَّخصيات المشاركة في الوقائع والمواقف المسرودة» [1] ، وتمثيل هذه الشخصية الحكائية الموجودة داخل الحكي له مستويات، فإمَّا أن يكون السَّارد مجرد شاهدٍ متتبعٍ لمسار الحكي، ينتقل عبر الأمكنة، ولكنَّه لا يشاركُ مع ذلك في الأحداث، وإمَّا أن يكون شخصية رئيسة في القصة [2].

إنَّ ما يميز السَّرد الخارج حكائي والمتماثل حكائيا هو المسافة الزمنية الفاصلة بين السَّرد والأحداث المسرودة، فتخلق هذه المسافة هُوية مزدوجة للسَّارد؛ الأولى هي: هُوية الذي يعيش أحداث ومراحل قصته بوصفه شخصية، أما الثانية فهي: أكثر نضجاً منها، هُوية الذي يحكي القصة. [3]

1) ـ الوضعيات السَّردية للرَّحالة.

إنَّ ما يحكيه (السَّارد/الرَّحالة) من أحداثٍ وقعت له أثناء الرّحلة، قد عاشها مرتين [4]:

الأولى: معايشة فعلية، وهي لمَّا كان يتنقل من مكان إلى آخر، وما يصادفه من أشخاصٍ، وما يقع له من أحداثٍ، وقد تذهبُ به من أقصى حالات اليأس والقنوط إلى الإحساس بالأمن والاطمئنان.

والثانية: معايشة لغوية، أي عندما يُحَوّلُ الرَّحالة تجربتَه وسفره من الفعل إلى اللغة؛ أي لما أصبح حاكياً وساردا لما جرى.

ومن الأكيد أنَّ أحداث السَّفر -لا سيما إذا كان السَّفر لأداء فريضة الحج - ليست بالأحداث العادية في حياة الرَّحالة، ونظراً لأهميتها لم يشأ الرَّحالة أن يطويها

1) ـ يوسف حطيني: مصطلحات السرد في النقد الأدبي، ص 124.
2) ـ حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ص 49.
3) ـ بشار سامي يشوع: "الراوي والمروي له والهوية المزدوجة"، الراوي والمروي له والقارئ، تر بشار سامي يشوع، (دار الرافدين، بيروت، ط 1، 2018م)، ص72.
4) ـ ينظر: محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية (بين المعرفي والأدبي)، ص 304.

فـي الـذاكرة -والـذاكرة محـدودة القـدرة فـي الاحتفـاظ بتفاصـيل الأحـداث -وإنَّمـا أراد أن يراها مبسوطةً أمامه بواسطة اللغة.

إنَّ امـتلاك الرَّحالـة الرَّغبـة فـي تخطيـب فعـل رحلتـه، هـو أهـمُّ دافـعٍ ومحفـزٍ علـى السَّـرد، ومـا دام أنَّـه يمتلـك هُويـة السَّـارد، التـي سـيختار لهـا وضـعيات مناسـبة لتحقيـق أحـداث الرّحلـة؛ وبخـلاف الأعمـال الأدبيـة السَّـردية الأخـرى التـي تـتمخض عـن تراكمـات لأحـداث افتراضـية، فالرّحلـة تمـتح مـن واقعيـة السَّـفر، فـإذا كـان السَّـارد لا يقـوم إلاَّ علـى سـرد موضـوعات الرّحلـة مـن تفاصـيل وأحـداث قائمـة علـى طـول المسـار، فـإن ذلـك لا يتحقـق إلاَّ مـن خـلال أسـئلة يسـتفيد مـن الإجابـة عنهـا مـن قبـل أهـل المكـان المُـزار، كمـا أنَّ رغبـة الرَّحالـة فـي السَّـرد تسـتدعي الاستكشـاف الـذي سـيكون موضـوع الكتابـة، والـذي لا يتـأتى إلا عبـر المكـان ذاتـه فـي صـورة تـأثيرات تسـتجيب لها ذات الرَّحالة مفرغاً لها كل شعوره.[1]

إذن وفـي حالـة اسـتفاد (الرَّحالـة/ المسـرود لـه) مـن التَّجـارب الجديـدة، فإنـه يضـمُّ إلـى رصـيده كمـاً مـن المعـارف، التـي يقـف سـارداً لبثهـا إلـى القـارئ، وكلمـا تحقـق أن يكـون الرَّحالـة سـارداً، فإنَّـه يكـون قـد هضـم الشَّـيء المبـأر ليكـون فـي موضـع يسـتطيع فيـه أن يكـون هـو مرجـع المعلومـة، ولا يـتمُّ للرَّحالـة ذلـك إلاَّ مـن خـلال مـا اكتسـبه مـن قبـل لمـا كـان راصـداً وسـائلاً عـن المكـان ومـن فيـه [2]، ومنـه نقـول: إنَّ الرَّحالـة يكـون فـي موضـع المسـرود لـه قبـل أن يتحـول إلـى وضـعية السَّـارد، فبمجـرد رجوعـه «إلـى الوطن، يخلع عنه صفة المسرود له ليصبح في وضعية السَّارد» [3].

إذن وبنـاءً علـى مـا تقـدم قولـه، يتعـين علينـا البحـث والتَّفصـيل أكثـر فـي وضـعيات الرَّحالـة (سـارد ومسـرود لـه)، فهـو حالـة الوصـل بـين المتلقـي والمواضـيع التـي ينقلهـا مـن / إلـى، فقبـل أن يكـون الرَّحالـة سـارداً فهـو يـتقمص دور المسـرود لـه، لأنَّ عمليـة الاستكشـاف لا تـتمُّ إلا عبـر جملـة مـن العناصـر التـي توصـله إلـى الشَّـيء المحـدد بالسَّـرد حتى يستحيل سارداً.

1) ـ ينظر: عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 484.
2) ـ نفسه، ص 484.
3) ـ عبد الرحيم مودن: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2006، ص 247.

أ. الرَّحالة في وضعية سارد.

سعى النَّقد السَّردي الحديث إلى التَّمييز بين المؤلف صاحب العمل السَّردي وبين السَّارد الذي هو كائن من ورق، لكن وعلى خلاف هذا، فالذي يهيمنُ على نص الرّحلة صوتٌ واحدٌ، هو صوتُ الرَّحالة المؤلف والسَّارد، فالرحالة هو نفسه «الرَّاوي الذي يحكي خبر رحلته في فترة محدودة وأمكنة معينة» [1]، فهو كائنٌ «واقعي تُحيل هُويته في النَّص على هُوية الكاتب خارجه، مجسدةً في اسم العلم المثبت في أول النَّص أو موقعاً في آخره، فالرَّاوي في الوقت نفسه، وهو الفاعل المتحدث في النَّص، فلا ينفصلُ المؤلف داخل النَّص عن الشَّخصية خارجه» [2].

وفي رحلة **"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"** نجد أنَّ المؤلف **"الحسين الورثيلاني"** يُعلنُ عن اسمه صراحةً ثلاث مرات في متن الرّحلة، أولاها: في ترجمة المصنف فقد وجد مكتوباً فيها ما نصه: «**يقول زابر هذه الأسطر الفقير إلى الله القدير، عبد القادر بن محمد الصغير، وفقه الله لما يحبُّ ويرضاه. اعلم أيُّها الواقف أنَّ مؤلف هذه الرّحلة وجامعها هو مولانا وقدوتنا إلى الله تعالى (...) سيدي الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلاني، رحمه الله تعالى**» [3]، وهو اسم العلم ـ موسوم بقرائن مرجعية شملت الاسم والنَّسب، الذي لا يتعارض مع المرجع التاريخي (الواقعي).

وأمَّا الموضع الثاني فقد ورد في متن الرّحلة، حينما كان الرَّحالة بصدد ذكر من حج معه من الفضلاء والمشايخ، بالقول: «**الزابر لهذه الرحلة العبد الضعيف الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف نجل الشيخ الولي سيدي على البكاء البجائي هكذا ثبت بخط جدي وهو ثقة**» [4].

وأخر ورد إشارة مقيدة لاسمه الصَّريح كانت في خاتمة كتاب الرّحلة، وقد جاء فيها: «**انتهت الرّحلة المباركة تأليف الشّيخ الصَّالح، والقطب الواضح، شيخ الطريقة، وإمام أهل**

---

1) ـ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص 230.
2) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 499.
3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 05.
4) ـ نفسه، ص 609.

الحقيقة، شمس العقول، الجامع بين المعقول والمنقول، ذي النور الرباني، والوهب الصمداني الشيخ سيدي الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلاني» [1].

إنَّ ما نسجله في متن الرّحلة من تماهي بين الرَّحالة كالسَّارد والمؤلف والشَّخصية المركزية، قد لخصه **أوديل غانيي (Odile Gannier)** بالعلاقة التي تحكم الرَّحالة مع مختلف الفاعلين في فعل الرّحلة وفعل التقييد، قائلاً: «يعدُّ الكاتب ـ الرَّحالة منتجاً لمحكي الرّحلة، منظماً للسَّرد ومبئراً نحو شخصيته، إنَّه ساردٌ وممثلٌ ومجربٌ وموضوع التَّجربة، مذكورا بأفعاله وسكناته، وبطلاً لقصته على مسرح غريب يموضع نفسه فيه كمؤرخ لسنواته وماسح لتضاريسه، إنَّه على الخصوص مقنع، فلأنَّه مسافرٌ، فهو الشَّاهد الوحيد» [2]، إذن، فالمؤلفُ الرَّحالة لا يهندس شخصية السَّارد ـ كما هو حال مؤلف الرّواية ـ للوصول إلى مبتغى سردي، بل شخصيته هي التي بإمكانها أن تحدد مجرى السَّرد، وهي التي تجبره على خوض مسالك وفضاءات متعددة.

فالسَّارد في الرّحلة هو بؤرة السَّرد ومحركه، ومركز للعالم، فكل شيء يدور حوله؛ إذ يقوم بدور مزدوج، فهو من جهة بؤرة الحكي، فهو الذي يرى العالم- الفضاء الذي يتحرك فيه ويقدمه لنا من خلال منظوره الخاص، ومن جهة ثانية هو من "يتكلم" عنه وينقله لنا [3]، فوضعية الرَّحالة كسارد يزدوج إلى سارد مبئر وسارد شخصية في آن واحد، فالأولُ يتكفل برصد العالم – الفضاء الموضوعي وهو منه على مسافة، وهذه المسافة قد تبعدُ وقد تقتربُ، أمَّا الثاني فيقوم برصد العوالم المشاهدة والأشياء المسموعة عن الفضاء الذي هو بصدد التَّواجد فيه، وذلك بهدف نقل التَّجربة الموضوعية عن العالم كما تكتشفه الذات وتراه. [4]

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة ص715- 716.

2) ـ أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية، ص 173. عن: Odile Gannier la littérature de voyage, Ed. Ellipses,.... Paris, 2001, p.9.

3) ـ ينظر: سعيد يقطين: السَّرد العربي مفاهيم وتجليات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1433هـ- 2012م، ص 184.

4) ـ نفسه، ص 186.

وبناءً على ما تقدم ذكره، فالرَّحالة كسارد في الرَّحلة يتخذ لنفسه موضعين، الموضع الأول سارد ذاتي، والموضع الثّاني سارد موضوعي، وسيجري التَّفصيل في كل وضعية تحت عنوان خاص به.

❖ **وضعية الرَّحالة كسارد ذاتي.**

يسبق مولد شخصية (الرَّحالة/السارد) تجربته للفعل الحكائي، من خلال نسيج الأحداث والمشاهدات الفعلية والواقعية، كل هذه المكونات، التي تنتج عن فعل السَّفر -الذي يبدأ من نقطة الانطلاق إلى نقطة العودة- تحفز الرَّحالة وتحمله على أن يكون تارةً ذائباً في الأحداث متأثرا بها، وتارةً مشاركاً بالحوارات والتجسيدات المختلفة [1]، وبالتالي يتجسد (الرَّحالة/السَّارد) في الرّحلة كشخصية عاطفية تتأثر وتؤثر، وتتفاعل بالأحداث، فهي «"تجربةٌ" حياتية عاشها الرَّاوي الشَّخصية، وقدّمها لنا بكثير من الانفعال والتَّأثر» [2]، ولا يتأتى له خوض غمار تخطيب أحداث الرّحلة ما دام أنَّه أراد الخوض في تجربة الخطاب بعد أن استشعر بطفوح المركب النَّفسي على تجاوز الفعل، ونقل التجربة للمتلقي.

إذن (الرَّحالة- السَّارد) يعيد برنامج السَّفر الواقع مسبقاً، الذي يقوم أساساً على اعتبار ذاتي، للتَّطابق الحاصل بين شخصية السَّارد في الرّحلة وشخصية المؤلف، حيث يكون فيه موضع السَّارد هو الإطار الذاتي، فلا تخلو الأحداث من رؤى عين ومسمع الشَّخصية الفاعلة في الرّحلة، التي هي بدورها الشَّخصية التي تتحول إلى بطل يحكي عن نفسه، مغامراته أو ما ترتب عن مسار رحلته، وإذا كان السَّارد هو بطل الحكاية، فإنَّنا سوف نواجه ضمير **الأنا** «باستعماله ضمير المتكلم (مفرد - جمع)، وهو يتكلفُ بواسطته السَّرد بتقديم ما "وقع" له هو بالذات» [3]، ليشعرنا بحضوره في ثنايا الحكي، كما يمكنه أن يجعل الحكاية تحكى على لسان إحدى شخصيات الحكي نفس الضمير المتكلم، كما يمكنه أيضا أن يحكي على لسان سارد

1) ـ ينظر: عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 498.
2) ـ سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، ص 188.
3) ـ نفسه، ص 187.

أجنبي عن هذه الحكاية؛ النَّوع الأول يُسمى المتماثل حكائياً والثاني المتباين حكائياً، وعليه ينقسمُ وضع السَّارد الذاتي في خطاب الرّحلة إلى مستويين رئيسيين:

- **السارد المتماثل حكائيا:**

ونقصدُ به السَّارد **"الممسرح"** المنضوي في خانة **"الرؤية مع"** أي أنَّه فاعلٌ في الأحداث التي يرويها بمشاركته، وهو بالتَّالي ساردٌ عليمٌ يدرك جميع الأشياء التي يروي عنها بضمير **الأنا**، إذ يسند لنفسه كل خبر عن رحلته (تعرض له أو وقع فيه) فهو يقصُّ شيئاً قد امتلك زمام العلم به، فهو يرويه من داخل القصة كونه شخصية من شخصياتها، بل تجدر الإشارة إلى كون «السَّارد في الرّحلة هو البطل الذي نرى من خلال وعيه مجرى القصة، ذلك أنَّه يحدثنا عن صراعه وما لاقاه من خلال ضمير المتكلم أو الغائب متجسدا في انفعالاته وتأثراته» [1]، ويتموضع من خلال الرّحلة في:

- سارد ابتدائي.

إنَّ السَّارد الابتدائي أو الرَّئيس هو: «الذي يقدم السَّرد الكلي، ويُناط به تقديم العناصر السَّردية بما فيها المواقف والوقائع في السَّرد برمته، إضافة إلى المقدمة والتمهيد» [2]، فهو الأساس في العملية السَّردية بالنسبة للخطاب الرَّحلي، فعلى عاتقه تنظيم العملية وتقوم المحافظة على وتيرة سيرها، باعتباره «شخصيةً رئيسيةً ــ أي البطل - وهو ينقل لنا الأحداث ومجرى سيرها، بموجب مشاركته فيها» [3]؛ ولكونه جزءاً من الحكي **(Diégése)** الذي يقدمه، أي له شخصية في المواقف التي يرويها، وهو حاضرٌ في القصة، فيحقق بذلك دورين، فهو سارد داخل النَّص المروي وهو شخصية فعّالةٌ مشاركةٌ في صنع الأحداث ويعتمد في هذا النَّوع من السَّرد ضميرُ المتكلم، ومثل ذلك ما نجده متجسداً في قول الرَّحالة بضمير المتكلم المفرد: «**وأنا قد وقع لي غيظ من أجل ظلم الحجاج بعضهم بعضا، فأقسمت بالله أني لا أبيت معهم، فسرت مع الرَّكب المصري راكباً على بغلتي مع بعض أصحابنا**

---

1) ــ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 499.

2) ــ يوسف حطيني: مصطلحات السرد في النقد الأدبي، ص 124.

3) ــ يمنى العيد: تقنيات السرد الروائي (في ضوء المنهج البنيوي)، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2010م، ص 100.

وهو الحاج يوسف إلى أن أشرفنا على بدر بعد صلاة الصُّبح... فلما نزل الرَّكب المصري ذهبت أنا وصاحبي الحاج يوسف الشَّياني إلى قرب القرية لنستظل بظل جدار المدشر...، وبينما أنا كذلك، وإذا بأخينا في الله سيدي محمد المحفوظ قد رآني عند السقائف التي تشرب فيها القهوة، فأخذ بيدي وذهب بي إلى شياله المصري ودخلت خيمته، ففرح بي فرحاً شديداً فقام فجعل لنا الغداء وتكرم علينا غاية وأخذت في القيلولة عندهم وكل ذلك وأنا والحاج يوسف» [1].

أو قوله بضمير جمع المتكلمين: «**سرنا كذلك إلى مغيب القمر، نزلنا وبتنا مفترقين وأنَّنا تهنا أعني الرَّكب شيئاً قليلاً عن الطريق، غير أنّنا سبقنا أول الرَّكب فلما قرب طلوع الفجر ارتحلنا، وسرنا إلى أن صلينا الصُّبح في جماعة فقطعنا المفاوز وبعد الضُّحى الأعلى دخلنا الشَّجر القريب من الجبل المشرف على وادي فاطمة الذي يسمى جبل العميان**» [2]، وقوله أيضا: «**تخلفنا في جماعة من الفضلاء في آخر الركب، فأصابنا عطش شديد ونحن كذلك إلى أن أشرفنا على النبط، فزاد بنا شدةُ الحر وقوة العطش، وإذا بواحد من العرب لقينا بقربة من الماء فأسقى جميعنا ظنا منَّا أنَّ هذا الشَّخص لم يرد منا إلا الفلوس فشربنا الماء أحلى من العسل وأبرد من الثلج، فلا نعلم أنَّه من ماء المطر أو من ماء العيون التي في الجبال**» [3].

ينهض السَّارد في النَّماذج السَّابقة على نسبة الأفعال إلى نفسه سواء بضمير المفرد مثل: (سرت، ذهبت، وصلت، دخلت ...) أو بضمير الجمع مثل: (سرنا، نزلنا، قطعنا، ارتحلنا، مررنا، أشرفنا، دخلنا، وصلنا، تخلفنا ...)، مما يوحي بتمكنه في مجاله الذي لا يخوض فيه إلاَّ من داخل المتن من خلال المعايشة الفعلية، فمشاركته هنا في الحدث لم تكن مشاركةً ثانويةً، بل ذات شأن فهي محركة للسرد ككل، وهو فيها فعَّالٌ من أجل الأخذ والعطاء، إلا أنَّه لا يطلعنا على باطن

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 390.
2) ـ نفسه، ص397.
3) ـ نفسه، ص550.

الشَّخصيات المشاركة على صعيد النَّص، إلاَّ من خلال منظوره للأحداث التي قامت بها.

ـ سارد ثانوي.

إنَّ (الرَّحالة/السَّارد) لا يدخرُ أيَّ مجهودٍ ليفسحَ المجالَ أمام ساردين آخرين لتولي سرد تفاصيل منقولة على ألسنتهم، حتى يتمَّ الرَّبط بين السَّارد الفعلي والسَّاردين المندمجين كطرف أساسي أو ثانوي في الحكاية التي يؤطرها السَّارد الرَّئيس، وذلك بهدف «خلق جوّ من التَّنوّع وإثراء المتن وكسراً للملل في وتيرة السّرد ضماناً لكسب المتلقي الذي يستحسنُ التنوع إضافةً إلى أنَّ تعدّد الأصوات من شأنه ألاَّ يجعلَ من السَّارد المؤطّر محتكِراً» (1)، الذي قد يجعله عرضةً لفقد مصداقيته لدى المتلقي، وعليه فمن «الطبيعي أن تظهر الشَّخصية الثانوية في لحظات محددة من الرّحلة، أو في مقطع من مقاطعها، بالقياس إلى مرابطة الشَّخصية المركزية في الرّحلة من البداية إلى النّهاية ذهاباً وإياباً» (2)، لأنَّ (الرَّحالة/السَّارد) يمنحُ الكلمة لبعض شخصيات رحلته لتتحدث عن ذاتها ولتقاسمه أعباءَ الحكاية في بعض تفاصيلها الفرعية، وحينما تكون أصواتُ هذه الشَّخصيات بضمير المتكلم، فهي تعوض السَّارد الأصلي كمتماثل حكائي، وتسرد من مستوى داخل حكائي ما دام أنَّها تفقدُ الدَّعامة المركزية للسَّرد، فإنَّ السَّارد المركزي (الرَّحالة) يقوم بوظيفة **تهيئة المقام**، فيتبين أنَّ هذه الشَّخصيات تخوض الحدث في سياق معين، هي راجعةٌ إلى السَّارد الأصلي، مثلاً يقول على لسان الحاج سيدي **محمد بن القاضي**: «**قال: أحكي لك رؤيا إنّي رأيتها، فقلت له: وماهي؟ فقال: إنّي رأيته ﷺ وكنت أسأله الشَّفاعة ـأو كلاماً هذا معناهـوأعيدُ له ذلك المرةَ بعد المرة، حتى قال لي: إنّي شفعت فيك أو إنَّك مغفورٌ لك، أو لا تخف مما هو حاصل**» (3)

إنَّ الرَّحالة ـالسَّارد لا ينقلُ القول على لسانه، وكان بإمكانه ذلك، إلاَّ أنَّه فسحَ المجالَ للقائل الأصلي ليحتلَ مكانَه كسارد أولي دون وسيط، بهدف إضفاء

1) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 502.
2) ـ عبد الرحيم مودن: (الرحلة بوصفها جنسا أدبيا)، مجلة ألف الشعر المقارن، ع 39، القاهرة، 2006م، ص 30.
3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 543.

المصداقية على القول وللتنويع السَّردي، كما تستدعي الضرورة أحيانا السَّارد بالتَّصرف الجُزئي في القول المنقول، متخلياً عن الدَّور الذي منحه لهذه الشَّخصيات في أقوالها، فتجده ينقله بشطرٍ مهمٍ منه فقط، وليس كما سمعه تماماً، ومن الأمثلة على ذلك قول **الورثيلاني** على لسان سلطان "مكة" حينما وعده برد الإبل المسروقة للرَّكب: «**قال: نعمْ، فإن دخلنا "مكة" تأتكم الإبل التي ضاعت لكم، واعتذر لي بأن قال: ما ضيع الأحكام إلاَّ الأشرافُ، فإنَّ أمرهم قد قويَ عليّ وعلى غيري، أو كلاماً هذا معناه**» [1].

- **السَّارد المتباين حكائياً:**

قد يحضرُ السَّارد في الحكاية تارةً ويغيب عنها تارةً أخرى، بحسب ما تقتضيه دواعي وطبيعة الأحداث في الرّحلة، ما دام أنَّ الرّحلة محفوفةُ الجوانب غير مضبوطة الوقع، فهي تسمحُ بالاسترجاع، ولو كان ذاتياً يحيل عليه السَّارد الذي يكون **بطلاً خارج الحكاية**، أو **حكايةً ذات مرجع سابق** لا تربطها بموضوع الرّحلة إلا قناة الإحالة.

وفي **الحالة الأولى** يتخذُ الرَّحالة موضعَه **كسارِدٍ ابتدائي**، مقدماً سرده بضمير المتكلم لكون الحكاية تعودُ نسبتها إليه باعتباره بطلها، أو يَعرف عنها تفاصيلها، كما في قوله عن أحدِ الشُّيوخ في "بجاية": «**قد اجتمعت معه في بجاية، وكان يلازمها في رمضان، وهي رباط وزيارة، فمررت عليه فوجدته في حانوت الحفاف، وإذا بالحلاق يحلق شعر رأسه، فلما فرغ قبّل الحَلاقُ رأسه وسأله الدُّعاء، ثم سألته الدُّعاء أيضاً**» [2]، علينا أن نميزَ داخل المثال المتباين حكائيا بين ما إذا كانت **أنا** المتكلم شاهداً أو بطلاً لحكايته، وفي هذه الحالة بما أنَّه شخصية حاضرة يسمى ساردا ذاتياً، وعلى العكس، فإن تبني ضمير الغائب في ثنايا السَّرد لا يعني أنَّ السَّارد ليس شخصيةً، حيث أنَّه بضمير الغائب وسارد ذاتي في الوقت نفسه.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 435.
2) ـ نفسه، ص 628.

وقد تبدو درجةُ الغياب جلياً في **الحالة الثانية**، حينما يفسحُ الرَّحالة للغير من الرَّحالة الذين مروا بالمكان نفسه الذي مرَّ به، فيتحول من سارِدٍ مركزي إلى سارِدٍ ثانوي، هذا التَّراجع يسمحُ باستراحة الرَّحالة، فاسحاً المجال للسارد الأصلي الذي يُعدُّ ثانوياً في المتن العام للرّحلة، فيقولُ مثلاً: «**قال أبو سالم العَياشي نزلنا مغيب الشَّفق قبيل "الخضيرة"، وصلينا بها الصُّبح، وقطعنا الوعرات السَّبع المسمّاة على ألسنةِ الحَاج بـ: "سبع وعرات"، وخرجنا إلى متَّسَعٍ من الأرض، وبلغنا "ينبع النَّخل" غروبَ الشَّمس**» [1]، وأيضاً في قوله: «**قال الشَّيخ البكري: سرنا من "المويلح" إلى دار السُّلطان"، التي هي لعرب البادية أوطان، ونزلنا بوادي سلمى" و "كفافة"، وحصل مزيد الأمن بعد المخافة، ... ثم سرنا إلى بندر الألزم"، فأقمنا به من غير إقبال، ورحلنا منه بعد الزوال، ومدة المسير إليها ست عشرة ساعة محرّرة، وخمس من الدّرج مقدّرة، ثم سرنا إلى مرحلةٍ تسمّى إسطبل عنترة**» [2]، إنَّ السَّرد في المثالين ينهض به ساردٌ بضمير المتكلم، لكن الأمر هنا يتعلق بسارد متباين (غير متجانس) حكائياً، لأنَّ استعمال ضمير المتكلم لا يعني أنَّ السَّارد متماثلٌ حكائياً، إذ يجب بالإضافة إلى ذلك أن يكون أحد شخصيات القصة الإطار؛ ومثل هذه السُّرود يستدعيها السَّارد في الرّحلة عندما «يشعرُ بأنَّ الرّواية الأصل هي الأحق في تقديم مادتها السَّردية، وهي تتمحور في خانتين، أولهما: أنَّ السَّارد يستشعرُ القارئ بقوة المحكي ومصداقيته، ومن ناحية أخرى يريدُ السَّارد أن يترك السَّرد لسارد أخر احتراماً لشخصيته المرموقة في مجتمعها» [3]، مبيناً مدى تأثره كسارد مركزي بالسَّارد البديل.

وعلى أية حالٍ، فإنَّ السَّارد في مثل هذه السُّرود التي تستمد طاقتها من زمن استرجاعي، يتوارى فيها عن الحكاية الإطار، إلى ما يجعله في مستوى ثانوي، بعدما كان في مستوى ابتدائي، حيث أنَّ الحكاية مستمدةٌ من داخل المتن، لكن

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 365.
2) ـ نفسه، ص 362.
3) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 509.

السَّارد ليس له حظ المشاركة فيها، وهي تقع على مسافة بعيدة، لها مرجعيتها المختلفة، سواء الدّينية أو التَّاريخية أو الثقافية.

❖ **وضعية الرحالة كسارد موضوعي.**

إن كون (الرَّحالة/السَّارد) ينتقل في المكان، فهو يكتسب معرفة جديدة به وبمحيطه وفضائه وأشخاصه، لذا فإنّنا نجد أن وضع السَّارد الموضوعي يقوم على **تبئير الأمكنة** برؤية ذاتية تقف على زوايا الموصوفات التي يتضمنها وصف الرّحلة والحركة في جغرافيا المكان، فهو يحاولُ من خلاله السَّارد أن يؤكدَ للمتلقي بواقعيتها، معتمداً على أدوات التبئير من عين وأذن ووعي، التي ستتحول لديه إلى آليات لغوية تحتكم إلى الضمير النَّحوي الذي يترك فيه ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب، «لذلك نجد هذا الرَّاوي-المبئر يصفُ ما يراه وينقل ما يسمع، إنه تبعاً لكل هذا يسعى في علاقته بالمتلقي، إلى تقديم "معرفة" مبنية على "العيان" أو على السَّماع الذي تناهى إليه، وهي بذلك معرفة "موضوعية" لا مجال فيها للكذب أو الاختلاف» [1].

• **السَّارد المتماثل حكائياً:**

باستطاعتنا أن نميز بين مستويين مختلفين من السَّاردين: سارد ابتدائي وسارد ثانوي:

ـ سارد ابتدائي

يكون السَّارد داخل الحكاية حاضراً في متنها في مستوى سردي ابتدائي، عندما يريد الكشف عن موضوع من الموضوعات التي تبئرها الشَّخصية، **كقوله مثلاً: «إنَّ الحُجّاج تسابقوا إلى ذلك الوادي، فوجدُوا فيه غديراً صغيراً لا يفي بدوابهم، فازدحموا عليه وخوّضوه إلى أن صار طيناً، فلم يوفِّ أحدٌ مقصوده منه، وبعد ذلك بمرحلة تفضّل الله على الحجّاج، فوجدوا ماءً مستبحراً في مواضعَ عديدةٍ يكفي أركاب الدّنيا كلّها سقياً واستقاءً ورفعاً، فأغناهم الله عن النّظر إلى**

1) ـ ينظر: سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، ص 187.

"التميمي"» [1]، وقال أيضاً حينَ وصول "التَّميمي": «**وقد وجدنا هناك عرباً متفرقين أكثرهم بلا بيوت، قد أضرَّ بهم الجوعُ، إذْ قلَّ ميرهم، ووقع القحط فيهم سنين متعددة، وبلادهم في غاية الجدب، ومع ذلك الغالب سلب بعضهم بعضاً على أنَّهم مسلوبون إذ تعدى عليهم عرب، فأخذوهم فكان الرجل يبيع أولاده، وكذا المرأة تبيع أولادها»** [2]، بيد أنَّ الموضوعية لا يمكنها أن تكون خارجاً عن الذات التي ستصبح معياراً للفرز في الجلاء أو الإقصاء من مجموع العناصر الموضوعية التي تتشكل في عينها أو سمعها، «فالموضوعية في الرّحلة ليست عبثيةً ولا عشوائيةً يمارسها الرَّحالة اتجاه موضوعه السَّردي، بينما لا تتمُّ الموضوعية إلاَّ من خلال وجهة نظر السَّارد المخول له كل الصَّلاحيات لاستكناه مواضيعه النَّصية المستمدة من جملة العناصر الموضوعية المتراكمة أثناء الفعل» [3].

ـ سَارد ثانوي.

في بعض الحالات يفسحُ السَّارد الرَّئيس للحكاية المجال، لترد صيغة سردية تبدأ بالسَّارد بياناً على توسطه تشخيص الماهية السَّارد، ثُمَّ يتركُ مجالها للسارد الأصلي الذي يعد ثانوياً في النَّص العام للرّحلة، مثل قوله: «**أخبرني شيخُنا سيدي أبو مهدي عيسى الثعالبي، أيّام كنت أتردد معه إلى مجلس شيخنا شهاب الدّين الخفاجي، فقال لي: من لَدُن دخلت هذه المدينة ما رأيت أحداً يمشي في أزقّتها على مهلٍ وسكينةٍ وتؤدةٍ؛ بل كلّ من تلقاه تراه مشمراً جاداً في سيره، إن كان راكباً فراكباً، وإن كان ماشياً فكذلك، فتأملتُ ما ذكر لي فوجدته صادقاً»** [4].

إنَّ السَّارد الذي يستفتح السَّرد في هذا المقطع، وهو يتحدث عن ذاته يؤكد فيه على ضمير المتكلم (المفرد) بمستوى سارد داخلي متماثل، لكنَّه في الأصل سيبرح مكاناً محايداً ذا مستوى ثانوي، حينما يُسلم المشعل إلى سارد آخر شاهد «سارد ينتمي إلى عالم الحكي الداخلي، الذي لا نعرف عنه أي شيء من خلال سرده،

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 247.
2) ـ نفسه، ص 248.
3) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 506.
4) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 265.

سوى أنَّه موجود» [1]، وعندما يعطيه الكلمة يبدأ السَّارد الثانوي في احتلال مستوى سارد ابتدائي، وينوب عنه في تبئير المكان، كلّ هذا يتم بإشارة من السَّارد المؤطر، أي الرَّئيس في العملية السَّردية.

- **السَّارد المتباين حكائياً:**

يهيمنُ الرَّحالة على دور السَّارد في الرّحلة، فهو مستبد بطبعه، يقوم بالوظيفة السَّردية لوحده في أغلب مراحل السَّرد، إلاَّ أنَّه أحياناً تجبره بعض المشاهد والأحداث على إيجاد مبررات تيماتية للخوض في سرد حكايات ذات صلة بالماضي، ويأتي بها إمَّا للتبرير، وإمَّا لأنَّ لها علاقة مباشرة بواقع الرَّحالة المقترن بمرجعيته الثقافية والتَّاريخية.

وأيّ كان السَّبب فإنَّ (الرَّحالة/السَّارد) يحضر فيها ضمنياً عبر انتماءاته العاطفية، فلا يجد من مبرر للغياب، فهو حاضر متخف وراء اللغة، لكن دون استحضار ضمير المتكلم، فموضع السَّرد هو الذي دفع به لاستجلاء حكاية المكان كونه تسري فيه روح التَّراث والتَّاريخ، كقوله لما نزل بـ "سيدي عقبة": «**نزلنا سيدي عقبة عصراً، وهو عقبة بن نافع الفهري التّابعي القرشي، ولد زمن النبي، ولذلك عدَّه بعضهم من الصَّحابة، ولّاه معاوية بن أبي سفيان على "إفريقية"، ووجهه إليها في عشرة آلاف من المسلمين فافتتحها، وقاتل من بها من النَّصارى حتَّى أفنى أكثرهم... ولما كانت سنة إحدى وخمسين [51هـ / 671م] عزل معاوية عقبة بن نافع عن "إفريقية"، وولَّى مسلمة بن مخلد "مصر" و"إفريقية"، فنزل مسلمة "مصر"، واستعمل على "إفريقية" مولَى له يسمى دينار اً، ويكنى أبا المهاجر، فلما أنتهى إلى "إفريقية" كره أن ينزل بلداً اختطّه عقبة، فمضى خلفه بميلين مما يلي "تونس" فاختط هناك مدينة وبناها، فسماها البربر "بتكيروان"، وأخذ النَّاس بعمارتها، وإخلاء القيروان**» [2]، ويقول أيضا لما مرَّ بـ "قصور حسان": «**مررنا ببئر حسان وحسان الآن اسم علم على موضع (...)**

1) ـ يوسف حطيني: مصطلحات السرد في النقد الأدبي، ص 124.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 111- 112.

وكان في الأصل اسم لعلم بعض ملوك بني مروان بعثوه لغزو إفريقية بعد موت عقبة بن نافع أمير إفريقية ومفتتحها، وارتداد غالب افريقية، فنزل في هذا الموضع وبنى فيه قصورا تسمى الآن قصور حسان وكان يغير من هناك على إفريقية، وأقام بذلك المحل مدة» [1]، يتضح من المثالين السابقين أنَّ السَّارد الممثل لشخصية الرَّحالة ذاته، يعتمد ضمير الغائب كونه له سيرة ذاتية مستقلة بعيدة كل البعد عما يرويه ، «منصباً نفسه راوياً من مستوى ثانوي، متخلياً عن المستوى الابتدائي لغايات سردية يكون فيها الاعتماد على مرجعية» [2]، فهو هنا ليس جزءاً من محكيه، لكونه يسرد وقائع تاريخية لا يمكنه المشاركة فيها؛ وباعتماده على ضمير الغائب، تضمحلُ شخصيته، ويتلاشى دوره في إدارة دفة الأحداث التي يرويها، متخلياً عن موقع السَّارد الابتدائي، ليحتلَ موقع سارد من مستوى ثانوي.

وقد يستخدم الرَّحالة تقنية مباشرة، متخلياً عن المستوى الابتدائي من خلال الإشارة إلى الرَّاوي الحقيقي الذي قام بتبئير المكان، وهو سارد ثانوي متباين مع حكاية المتن الرَّحلي، ونسوق هذا المثال في قوله: «**إنَّ شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر قال: في قرب "الزعفران" رأينا ساقية غزيرة الماء، إلّا أنَّ ماءها ليس بذلك، فسقى النَّاس إبلهم ودوابّهم، وملئوا أسقيتهم، وهي أوّل "عمالة سرت"، واكتفى النّاس بما ملئوا منها عن ماء "الزعفران" لضيق الوقت**» [3]، أو في قوله أيضا: «**قال الشَّيخ العياشي في رحلته: فإذا كان اليوم الحادي والعشرين من شوال خرج المحمل من "القاهرة"، وهذا اليوم هو يوم خروج المحمل الكبير؛ الذي هو من أيّام الزّينة ويجتمع له النّاس من أطراف البلد، ويؤتى بكسوة البيت الشَّريف المعظّمة المنيفة من موضع خياطتها، وتجعل في المحال التي تحمل فيه، ويجتمع الأمراء والسَّناجق والجند جميعاً (...)؛ ثم يمرُ بالمحملِ وسائر الإبل**

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 622.
2) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 505
3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 236.

والعسكر وسط المدينة، والنَّاس مشرفون من الدّيار، والمساجد التي تلي الشّوارع، ويتعطّلُ غالبُ الأسواق في ذلك اليوم» [1].

إنَّ ما تمَّ تبئيره من أماكن يعدُّ متباينا حكائياً، لكون السَّاردين هم خارج الحكاية الإطار للرحلة الورثيلانية غائبين عن متنها، غير أنَّهم يحتلون في رحلاتهم مستوى سردياً ابتدائياً، ويتخلى **الورثيلاني** عن دور السَّارد المستوى الابتدائي، لغايات سردية، وذلك حينما يعتمد على مرجعية مكانية، فبعض الأمكنة تجعل منه مستعرضاً جملة من التّفاصيل على المستوى المكاني مستوحياً معالمه الدالة عليه كما أشرنا من الأشخاص الذين يلجأ السَّارد إلى ضخ ما اكتسبه منهم من علم ومعرفة، محتلا بذلك مستوى ثانوي.

ب. الرَّحالة في وضعية مسرود له.

إذا كانت تمظهرات وضعية (الرَّحالة/السَّارد) في الرّحلة لا يكتنفها أي لبس، بحسب ما تقدم ذكره في العنصر السَّابق، فإنَّ اللبسَ كلَّه سوف ينصب على وضعية الرَّحالة المسرود له، التي تعددت جوانب تمظهرها، وتماسها مع السَّارد أحياناً إلى درجة عدم التَّفريق، فـ «المسرود له في جوهره مستوى من مستويات السَّارد يحاور ذاته قبل محاورته للآخر» [2]، فالعلاقة بين السَّارد والمسرود له تقوم على الجدل في التَّحديد وفي التَّمركز، فالسَّارد «الذي يستند إلى الذاكرة التي تعرف عدة تقاطعات، بحسب وقع المشاهدات التي التقطها الرَّحالة في نفسه وفي نفس المتلقي الذي يسكنه، فالانتقال إعلان عن معلومات جديدة ومغامرات جديدة من جراء الأخطار التي قد يلاقيها، واكتشاف لأماكنَ جديدةٍ» [3]، وتحتاج هذه العملية القائمة على المستجد من المعارف إلى إدراك، كما تحتاج إلى اكتفاء عن المعلومة واحتوائها من كل جانبها.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص282-283.

2) ـ عبد الرحيم مودن: (الرحلة بوصفها جنسا أدبيا)، ص 30.

3) ـ بوشعيب الساوري: الرحلة والنسق (دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا)، ص 207.

إنَّ رحلـةَ **الـورثيلاني** إلـى البقـاع المقدسـة رحلـةٌ تمَّـت فـي زمـان ومكـان واقعيـين، ممـا يعنـي أنَّ جنـين قصـة السَّـفر لـم يكتمـل نمـوه إلاَّ بعـد نهايـة تجربـة الرَّحالـة بتفاصـيلها المختلفـة، وهـذا يسـتدعي منـه أن يقـوم فـي أثنـاء رحلتـه بعمليـة جـس المكـان فـي محمولـة لاستكشـافه، ومراودتـه علـى الإفصـاح عـن كـل معلومـة عنـه، وبالتـالي: «فإنَّـه سـوف يلجـأ إلـى تقمـص دور المسـرود لـه، وهـي الخاصـية التـي يتـوارى خلفهـا لـلإدلاء عـن كـل تفاصـيل، وهـي فـي الوقـت نفسـه تعـزز مصـداقية أقوالـه المسـرودة، وحكايتـه المفتـرض حقيقتها» [1].

إنَّ مَهمـة **الـورثيلاني** السَّـارد المركـزي الـرَّئيس فـي الـنَّص الرَّحلـي، تبـدأ مـن كونـه مسـروداً لـه، مـع الاسـتعداد الكلـي للسـرد، انطلاقـاً مـن أول فعـل أو تفكيـر فـي الكتابـة، كونـه سـيخبرنا عـن تفاصـيل أحـداث رحلتـه الحجيـة، بينمـا لا تـتمُّ لـه تفاصـيل عـن الأشـياء إلاَّ مـن خـلال مكتسـب سـمعي أو إيحـائي الـذي يكـون مـن خلالـه فـي وضـعية مسـرود لـه ، فمـا يمثلـه الرَّحالـة فـي هـذه الحالـة هـو الرَّغبـة الملحـة فـي تجـاوز الغمـوض عـن المرئيـات المبهمـة، فهـو يـتقمص دور المسـرود لـه سـعياً وراء الفهـم، وهـذه الرَّغبـة هـي الحـافز الـذي يجعـل منـه متلقيـاً لسـارد غيـر مركـزي فـي الرّحلـة، بـل سـاردين متعـددين، كلمـا اسـتدعى الأمـر الشـرح أو التَّفسـير أو الإبانـة عـن أمـر مـا [2] وعليه فإنَّ وضعية الرَّحالة المسرود له تنشطر إلى شطرين:

الشطر الأول: يقوم على الأسئلة المباشرة لسارد مباشر.

الشطر الثاني: يتم بالانجذاب والتأثر عبر التقاط المرئيات والمسموعات.

❖ السَّارد المباشر.

يعـدّ السَّـارد المباشـر للرَّحالـة المسـرود لـه أهـم قنـاة لاسـتقبال المعـارف المختلفـة عـن المكـان المُـزار، واسـتخلاص شـؤونه وتفاصـيله، وتـتم عـن طريـق مباشـر يكـون فيهـا الرَّحالـة المسـرود لـه فـي معايشـة مـع السَّـارد فيـتم ربـط القنـاة التَّواصـلية باسـتعمال الأدوات والصّـيغ الدَّالـة علـى الكـلام المباشـر، كـ **(أخبرنـي بعـضُ أهـل تلـك الـبلاد، أو**

1) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 484.
2) ـ نفسه، ص482.

قد ذكر لي بعض الإخوان، أو قال لنا، أو قد حكى لنا)، والسَّارد ـ الرَّحالة هنا حين أعاد السَّرد على ألسنة أصحابه يتخذ من وضعيته كمسرود له وسيطا بين السَّارد الحقيقي الأصلي (وهو سارد غير مركزي في الرّحلة) والمسرود له الضمني (الرَّحالة الورثيلاني)، مثال ذلك قوله عن عرب "برقة" حينما مرَّ بهم وقد أضرت بهم المجاعة: «**فقد حكوا لنا أنَّ بعضهم لم يذق طعاماً أربعة أشهر، وبعضهم ستة أشهر وإنَّما يأكلون الحشيش والنبق**» [1].

هنا في هذا المثال قد نعلم ضمنيا بأن الرحالة ليس هو السَّارد بل هو المسرود له، بينما الفارق الوحيد يكمن في الضمير، فالرَّحالة يسردُ ما سرد له، إلا أنَّه يستعملُ ضمير الغائب، إلاَّ أنَّ المتلقي يبقى مرتبطاً ذهنياً بالصّيغة التي ابتدأ بها الرَّحالة ـ المسرود له الكلام على لسان السَّارد الأصلي.

وعلى العموم، فإنَّ وظيفة (الرَّحالة /المسرود له) على هذا المستوى تكمن في المعرفة التي يتلقاها من أهالي المكان المُزار، فهم بطبيعة الحال أدرى وأعلم بشؤونه وخفاياه، فعملية تعليمية يتفاعل معها (الرَّحالة/ المسرود له) جامعاً ومُستوعباً لما يمكنه أن يكون مادة سرده مستقبلاً، بمعنى أنَّه هو من يضع نفسه في هذا الموضع، كاشفاً عن رغبته وفضوله في اكتساب المعرفة، «التي يتولاها رواة متعددون أصحاب معارف، فيتزود من خلال ذلك الرَّحالة كونه في وضعية مسرود له وليس التنويه فيها بالنسبة للرَّحالة إلاَّ لإشراك نفسه كطرف فاعل من أجله كان هذا السَّرد والتَّحري، وتارةً لا يذكر إلاَّ صيغة الاستشعار الدالة على أنَّ الرواية نقلت عن راوي» [2]

وأحياناً يبدأ المسرود له الكلام على لسان السَّارد الأصلي، فيربط ـ أناه ـ ضمن العملية في أول ما يبتدئ به الكلام، ثم يحرص على إعادة التّأكيد على القائل دون أن يتحدث عن أناه التي بدأ بها الكلام مرت أخرى، ومثالنا على هذا ما يخبرنا به الرَّحالة عن الولي الصَّالح سيدي **محمد العيدلي**، فيقول: «**سمعتُ منه أنَّه قال**

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 614.
2) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 486.

لـي: رأيـتُ النَّبـي ﷺ يقظـة فـي مسـجدنا فـي صـلاة المغـرب قـال: وقـد صـلى خلـف والـدك، فقـال: نـوره ﷺ انعكـس فيـه نـور السّـراج بـل خفـي، فلمَّـا سـلم الوالـد مـن الصَّـلاة، خرجنـا مـن الصَّـلاة أردت أن آمـر جميـع مـن فـي المسـجد بالقيـام إليـه ﷺ فلـم أسـتطع النُّطـق، ثـمَّ كـذلك إلـى أن صـلى الرَّواتـب بعـد المغـرب، فخـرج مـن المسـجد وخرج معه ﷺ» [1].

إنَّ الهـدف مـن وراء هـذه العمليـة التَّواصـلية هـو التَّأكيـد علـى مصـداقية مصـدر الخبـر وواقعيتـه، لـذلك كـان **الـورثيلاني** حريصـاً كـلَّ الحـرص علـى دور السَّـارد بالنسبة لـه، فهـو «الـذي يُقـوم جهلـه بالشـيء علـى التَّواضـع مـع مبـدأ العمليـة ليصـغي إلـى سـارده، فنـراه يحتـرم هـذه المسـافة بـل يحـرص علـى احترامهـا، ليـدل علـى أمانتـه فـي السَّرد» [2].

❖ الالتقاط (المرئيات والمسموعات):

وهـو تقنيـة التـي نجـدها بقـوة فـي الرّحلـة الورثيلانيـة، إذ يقـوم الخطـاب الرحلـي بالدرجـة الأولـى علـى المشـاهدة، ممَّـا يعنـي أنَّ الرَّحالـة يسـعى مـن خـلال هـذه المشـاهدات إلـى خلـق عـالم يتعلـق بسـرد الصُّـور، «فالمرئيـات هـي بمثابـة الخطابـات العلاماتيـه التـي تسـتقبلها عـين الرَّحالـة الماسـحة للمكـان، وهـذه المرئيـات هـي عبـارة عـن خطابـات تحولهـا العـين إلـى مسـتويات إشـارية يكـون لهـا الأثـر فـي نفـس أكبـر ممـا تـدل عليـه العبـارة» [3]، وقـد نـدركُ ذلـك مـن خـلال مـا رصـده الرَّحالـة مـن تعامـل بعـض أفـراد الرَّكـب معـه أهـل **برقـة** وقـد ألمـت بهـم المجاعـة فيقـول: «**فتـراهم يـردونهم بالشـتم واللعنـة والخـزي، وبعضـهم بالضـرب، فـلا يكـادون يسـمعون لتضـررهم مـن شـدة جـوعهم (...) فأهـل برقـة يموتـون بـالجوع موتـاً كثيـراً عنـد الـدّيار، وإنَّمـا شـأنهم معهـم غلـق الأبـواب فتـرى السَّـائل الكثيـر يصـيحُ علـى البـاب بالطعـام إلـى أن يمـوت على عتبة الدّار، فهلك من أجله كثير من النَّاس**» [4]

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 699.
2) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 486.
3) ـ نفسه، ص 486-487.
4) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 617.

إنَّ مـا يتلقـاه (الرَّحالة/المسـرود لـه) مـن خطـاب مرئـي فـي الرّحلـة ، يُعـدّ مـن أهـم الخطابـات، ولـيس فـي هـذا مـن مبالغـة، بسـبب تعـدد أشـكاله وتبـاين صـيغه، و**الـورثيلاني** فـي حديثـه عـن المرئيـات ومـا استكشـفه مـن خـلال الالتقـاط يـدل علـى مصـداقية مـا يقـول ويقـرر عـن رحلتـه، فكلمـا جـاء حـديث الرَّحالـة عـن المرئيـات إلاَّ وجـاء كلامُـه قويـاً صـادقاً لا يشـوبه الظَّـن، بـل هـو يؤكـد علـى الخبـر بمصـداقية ذاتيـة، ومنـه يصـبحُ الرَّحالـة فـي حالـة تأكيـد أو تفنيـد، ممـا استكشـفه عيانـاً، حتـى وإن بلـغ سـمعه مـا بلـغ مـن أعلـى مراتـب التأكيـد، فـالمرئي سـاردٌ ممتـازٌ، تتلقفـه العـين كمسـرود لهـا، فمـثلاً فـي قولـه لمـا أُخبـر أنَّ أهـل "تـونس" زعمـوا أنَّهـم رأوا الهـلال: «**ولمَّـا طـرق أسـماعَنا مـا ذُكـر مـن الخبـر عـن التّونسـيين، اجتمـع رأينـا علـى الـذّهاب وقتئـذ لـ"عرفات" فنسـتيقن الخبـر، فـدخلنا وقتئـذٍ، وبَلَغنَـا "نَمِـرَةَ" وقـد غـاب الشَّـفق، وبتنـا بإزائهـا فـإذا بخبـر الـرّائيين خبـر سـجاح، ثـم اضـمحل مـدارج الريـاح**» [1]، وهـذا يؤكـدُ أنَّ الرُّؤيـة بـالعين تكون أقوى من كل خبر وأبلغ من كل قولٍ، لأنَّه استقبل هذا الأثر بصرياً.

إنَّ الرَّحالـة يجلـبُ صـور المرئـي ليجعلهـا مـادة سـرده، فهـو فـي كـلّ الأحـوال مسـرود لـه، ثـم بعـدها يكـون سـارداً ولا يهـم إذا كـان قـد قـدم خـلال الكتابـة وضـعية السَّـارد علـى وضـعية المسـرود لـه، مثـال قولـه: «**سـمعنا النّسـاء يصـرخن ولهـنّ صـوت التّولـول؛ كـأنَّ عروسـاً زفـت لزوجهـا، وصـوت البنـادق والبـارود وغيـر ذلـك مـن أصـوات النَّـاس... فلمَّـا نظرنـا أبصـرنا نـوراً يلمـع ويلـوح جهـة اليسـار نحـو المدينـة المشـرفة علـى سـاكنها أفضـل الصـلاة والسـلام يلمـع كـالبرق ... وإن احتمـل أن يكـون مـن البـرق لكثـرة رعـود أرض الحجـاز، نعـم الرَّعـد بـين وعلامتـه ظـاهرة وآثـاره سـحاب، وتغيـر فـي الهـواء بـالتَّحرك وإن لـم يكـن معـه مطـر، وأمَّـا مـا وقـع هـذه الليلـة فـلا رعـد ولا ريـح ولا حركـة ولا تغيـر فـي الهـواء، بـل ولا سـحاب أصـلاً ولا غـيم بـل السَّـماء صـاحيةٌ، ولـيس فيهـا شـيءٌ مـن السَّـحاب أصـلاً، وإنَّمـا هـو النُّـور الـذي تـواتر نقله عن الحجاج قديما وحديثا لا مجال لجحوده**» [2].

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 406.

2) ـ نفسه، ص396 -397.

وهـذا تأكيـد علـى أنَّ مـا كـان مرجعـاً فـي ذاكـرة الرَّحالـة عـن هـذا البلـد أصـبح حقيقـة بفعـل مـا تلقـاه مـن ممارسـات فعليـة تأكـدت منهـا العـين الراصـدة، «لأنَّ الرَّحالـة يخـرج مـن وطنـه مـزوداً بمعلومـات تقريبيـة مـن مختلـف الرَّوافـد عـن البلـد المقصـود بالزيـارة، ثـم سـرعان مـا يقـف موقفـاً نهائيـاً بعـد المعاينـة، فبإمكانـه المصـادقة علـى مـا كـان مـن خبـر أو النَّفـي أو المبالغـة، فتقـف فـي ذلـك العـين موقفـا تصـحيحياً» [1]، كقولـه عمّـا يسـمعه الحُجـاجُ مـن صـوت للطبـل فـي "بـدر": «**قيـل إنَّ صـوت الطبـل الـذي وقـع بـه النَّصـر للنبـي ﷺ يضـربُ هنـا ويسـمعه مـن خصـه الله بتلـك المزيـة العظيمـة... نعـم الصَّـوت شـاهدناه فـي ذلـك المحـل قطعـا كمـا شـاهدنا الأنـوار تبـرق جهـة المدينـة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام**» [2].

يـأتي الالتقـاط السَّـمعي فـي الرّحلـة بدرجـة أقـلٍ مـن الالتقـاط البصـري، إلا أنَّـه يقـوم كآليـة ضـرورية لاسـتكمال ملامـح الصُّـورة المشـاهدة، ويبـدو جليـاً دور السَّـماع فـي رسـم الصُّـورة الذهنيـة للمكـان فـي ذهـن الرَّحالـة حتـى فـي حالـة غيـاب المشـاهدة، فيصـرح بـالقول مـثلا عـن بلـدة "درنـة": «**هـذه درنـة لـم أرهـا وكانـت قريبـة غيـر أنَّ الأركـاب لا تـدخل إليهـا لأنَّهـا ليسـت طريـق الرَّكـب غيـر أنَّ أسـماعنا مملـوءة مـن أخبارها فحصل لنا العلم بها وبأحوالها**» [3].

وإنَّ الالتقـاط السَّـمعي «عبـارة عـن صـدَى عـام يـأتي بـه تيـار الصـدفة ليكبّـه فـي أذن الرَّحالـة باعتبـاره غريبـا عـن المكـان» [4]، فالرَّحالـة وأثنـاء إقامتـه بالمكـان المـزار يتحسـس نبضـه بمـا يصـادفه مـن معلومـات، فيقـول مـثلا: «**ولمـا طـرق أسـماعنا مـا ذكـر مـن الخبـر عـن التونسـيين، اجتمـع رأينـا علـى الـذهاب وقتئـذ لعرفـات فنسـتيقن الخبـر**»[5]، أو مـا التقطتـه أذنُـه مـثلاً عـن قصـة حمـام سوسـة لمـا مَـرَّ بهـا فيقـول: «**وقـد سـمعتُ أنَّ بعـض النَّـاس يحكـي عـن بعضـهم أنَّ الجنـون التـي أمرهـا سـليمان عليـه**

1) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 488.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 391.
3) ـ نفسه، ص614.
4) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 489.
5) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 406.

السلام بتسخين الماء، فلم يستطيعوا خلافه غير أنهم لا يسمعون ولا يرون، فظنوا بقاءه إلى الآن» [1].

والرَّحالة هنا مهيأ دائما للسماع، مطلق العنان لسمعه ومفتوحاً لالتقاط كلّ غريب وعجيب، ويتضحُ من خلال استخدامه للصيغ الصَّريحة **"سمعت"**، وهي عموماً إشارةٌ دالةٌ على العفوية في الالتقاط السَّمعي.

وقد يستخدم الرَّحالة صيغ أخرى مثل: **"حكي أو قيل"**، كقوله حينما مَرَّ بالقرب من "بدر": «**قد قيل صوت الطبل الذي وقع به النصر للنبي ﷺ يضرب هنا ويسمعه من خصه الله بتلك المزية العظمى**» [2]، وقوله أيضا لما مرَّ بـ "عسفان": «**غاية النَّاس أن بعضهم شرب من ماء عسفان تبركا بآثاره ﷺ إذ قد قيل: إنَّ ماء بئرها كان مُراً، فتفل فيه ﷺ فصار حلواً طيباً... وهذه البئر التي تفل فيها ﷺ سمعنا بها من قبل وليس من ألسنة العوام فقط**» [3].

وتتميزُ هذه الإشارات بأنَّها تأتي دائماً مبنية للمجهول، إذ لم يحدد (الرَّحالة/المسرود له) ساردها، فهو ليس واحداً، بل نسقها ضمير جمعي مبني للمجهول دائماً حتى وإن تقلص مشهدها فهي لا تبوح بالمفرد مطلقاً، ويكون فيها الرَّحالة غير مشاركٍ ولا دخل له في العملية، بل يقوم بنقل ما التقطه للتزود بمظهر من مظاهر المجتمع المسرود عنه.

كما تتميز أيضاً بأنَّها لا تقصد الرَّحالة المسرود له مباشرة إذ الساردون فيها لا يوجهون خطاباتهم مباشرة نحوه، بل يتشكل على هيئة فضاء **"يتطفل"** عليه سمع **الورثيلاني**، فيأخذ منه ما كان فعالاً أثناء وضعه السَّردي.

2) ـ وظائف السَّارد

لقد حدد النَّاقد **جيرار جنيت** خمس وظائف ينهض بها السّارد بشكل عام أثناء العملية السَّردية، هي: الوظيفة السّردية، والوظيفة التنظيمية (التنسيقية)، والوظيفة

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 662.
2) ـ نفسه، ص 391.
3) ـ نفسه، ص396.

الإبلاغيــة (التواصــلية)، والوظيفــة الاستشــهادية، والوظيفــة التعليقيــة[1]، وسنســعى مــن خـلال الرَّصـيد النظـري الـذي توصـل إليـه الناقـد إلـى تحديـد مـا يضـطلع بـه السَّـارد فـي السَّرد الرَّحلي من وظائف تمليها طبيعة الخطاب الإجناسية.

أ. الوظيفة السَّردية:

يؤدي السَّارد في النَّص السَّردي بشكل عام وظائف أساسية، وإذا ما عدنا إلى كتاب **جيرار جنيت** (خطاب الحكاية)، فإنّنا نجده قد أسند للسَّارد مجموعة من الوظائف والأدوار، التي يقوم بها شخص ما حتى يستحق هذه الصّفة، والوظيفة السَّردية [2] هي واحدةٌ من الوظائف الخمس التي حددها **جيرار جنيت** ، وهي الوظيفة الأساسية والبديهية التي ينهض بها كل سارد على مستوى القصّة [3]، مهما اختلف موقعه في النَّص المسرود، فمن خلالها يتمكن من «عرض الأحداث أو قصّها، ويتولد عنها خطابٌ لغوي محكوم بصيغ زمنية معينة، أو كما قيل: عرض بواسطة اللغة المكتوبة» [4]، إذ لا يمكن لأي سارد أن يتجاوزها أو يلغيها، لأنَّها هي التي تحدده وتجعل منه قائما بالسرد، فهي تمنح له هذا الوضع **(statut)** الذي يستمد منه علة وجوده [5]، أيا كانت درجة حضوره في الخطاب.

إذن، ما ينبغي التأكيد عليه هو أنَّ أهمَّ وظيفةٍ من وظائف السَّارد في جميع الأعمال الأدبية هي وظيفة السَّرد نفسها، فإنَّ السَّارد هو الذي يعتلي عرش القصّ والحكاية بغض النظر عن الصُّور اللغوية التي يُمارسها كفعل لغوي يعبر عن الأحداث، لا يمكنه أن يفقدها وإلاَّ فقد صفته، ولولا هذه الوظيفة لما وجد العمل السَّردي من أساسه، فهي أهمُّ أسباب وجود الحكاية [6]

إنَّ هـذه الوظيفـة موجـودة فـي كـلّ الأنـواع السَّـردية، ولهـا مـن الخصوصـية مـا تتميـز بـه مـن شـكل تعبيـري إلـى آخـر، وإذا عـدنا إلـى الـنَّمط السَّـردي الـذي نشـتغل عليـه فـي هـذ الخطـاب، أي خطـاب الرّحلـة الورثيلانيـة، فإنّنـا نلاحـظ أنَّ هـذه الوظيفـة تـنهض

---

1) ـ يوسف حطيني: مصطلحات السرد في النقد الأدبي، ص 245.

2) ـ أو ما يسميه **ياب لنتفلت** بوظيفة التمثيل، ينظر: محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، دار محمد على للنشر، تونس، ط 1، 2010م، ص 473.

3) ـ ينظر: يوسف حطيني: مصطلحات السرد في النقد الأدبي، ص 248.

4) ـ إسماعيل زردومي: فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، مخطوط رسالة دكتوراه دولة، جامعة باتنة، 2005م، ص439.

5) ـ ينظر: عليمة قادري: رحلة السرد (السندباد يعود من بعيد)، ص 142.

6) ـ ينظر: محمد بن عبد الله: السرد العربي، أوراق مختارة من ملتقى السرد العربي، رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، ط1، 2011، ص 334.

فـي هـذا الخطـاب، «بموقـع أساسـي إلـى جانـب القواعـد الأخـرى المكونـة للرحلـة» [1]، فهـي **البـؤرة** التـي تتشـكل حولهـا العناصـر وبـاقي الوظـائف، وتسـتجيب لأفـق انتظـار القـارئ أو تصـدمه، وبالتـالي فإنَّهـا بحسـب **شـعيب حليفـي**: «أداة مركزيـة للتفعيـل والتحفيـز، وخلـق الانفعـال والتـأثير عبـر سـرد كرونولـوجي مشـهدي، يسـتثمر العديـد من التّقنيات لتحقيق فعل الكتابة والتواصل» [2].

مـن خـلال الوظيفـة السَّـردية يقـوم السَّـارد بـالتَّتبع المنطقـي والمتسلسـل للأحـداث مـن دون إخـلال، فالمَهمـةُ المُوكلـة إليـه هـي نقـل مجسـدات عـن الآخـر فـي ضـوء العمليـة الانتقائيـة، وهـي «العمليّـة التـي تـتمّ بـوعي مـن الرَّحالـة حيـث يتعـين عليـه الحـديث عـن قضـاياه حسـب الـدّافع مـن الرّحلـة، فهـي سـرود يضـطّلع بالإخبـار عنهـا الرَّحالـة فـي دائـرة معينـة، هـي دائـرة الحـدث نفسـه الملتـبس بنـوازع الـذات الرَّاحلـة التـي يقُـوم وِفقهـا التحليـل والانطبـاع عـن المكـان مـذوّتا بتغليـب الواقعيـة، فتقـف لتنقـل مـا بلـغ درجـة الانتبـاه أو التَّـأثير، وتسـوق الأحـداث والأفعـال متدرجـة فـي سـلمها الزَّمنـي الـذي لا يسـتوي علـى سـرعة واحـدة، فهنـاك التَّلخـيص وهنـاك الاسـترجاع والاسـتباق وهنـاك المشهد القائم على الحوار» [3] وسنفصل في هذا في الفصل الثالث من هذا البحث.

إنَّ الوظيفـة السَّـردية هـي المحطـات التـي تكشـف مسـيرة الرّحلـة وأحـداثها الهامـة التـي يبـدو فيهـا جليّـاً مـا هـو مُهـمٌ ومـا هـو أهـمُّ، ومـا هـو اسـتثنائي ومـا هـو طبيعـي ومـا هـو إيجـابي ومـا هـو سـلبي، بـالنَّظر إلـى عمليـة العـرض التـي يَتَـراوح فيهـا السَّـرد والوصـف والاسـتطراد والاطنـاب وتنويـع الأزمنـة، وتقـوم عامـة الـرَّحلات بهـذه الوظيفـة ولعـل الشَّـاهد مـن ذلـك لا يبـدو إلاَّ مـن خـلال الأعمـال الرَّحليـة كلّهـا فكـل الـرَّحلات تتـوفر علـى هذه الوظيفة لأنَّ انعدامها يعني انعدام السَّارد وما يسرده. [4]

فالوظيفـة السَّـردية وظيفـة خطيـة اسـترجاعية تحيـل فـي سـياقها العـام إلـى الماضـي، كمـا تسـتخدم سـروداً مستحضـرة فـي الحاضـر، ليتحـول الرَّحالـة «مـن فاعـل

1) ـ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص 293.
2) ـ نفسه، ص 291.
3) ـ عيسى بخيتي: أدب الرّحلة الجزائري الحديث، ص 510 511.
4) ـ ينظر: عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 511.

فـي الملمـوس إلـى فاعـل لغـوي للرّوايـة، يعيـدُ صـياغة التأريخـات الأخبـار وآثارهـا، تتحقـق عبـر توظيفـات أساسـية ممثلـة فـي التَّسلسـل مـن جهـة، ثـم التَّشـويق والحكـي المسـتمر والمتنقـل تبعـا للمشـاهدات والانتقـالات مـن جهـة أخـرى، داخـل فضـاءات متعددة» [1].

كمـا أنَّ هـذه الوظيفـة التـي يقـوم بهـا السَّـارد فـي الـنَّص الرَّحلـي: «هـي وعـاءٌ اسـتراتيجي عـامٌ، تـتمُّ بداخلـه عـدة عمليـات لتنظـيم البرنـامج السَّـردي وتوجيهـه، والنُّهـوض بوظيفـة السَّـرد والعـرض، وبالتَّـالي التَّقـديمات التـي يقـوم بهـا لأنـاه وللآخـرين، والتلقيـات التـي يعيـد صـوغها وتقـديمها مـن جديـد فتصـبح هـذه الوظيفـة جـزءاً مـن المراقبـة والـتَّحكم بقصـد التَّوجيـه، عبـر اللجـوء إلـى تقنيـات وطرائـقَ لعـرض الرّحلـة: منهـا التَّـراوح بـين الـرُّؤى مـن الخلـف، ومـع، ومـن الخـارج»[2]، ذلـك أنَّـه فيمـا يتعلـق بـبعض المعلومـات التـي يقـدمها (السَّـارد/الرَّحالة) فـي رحلتـه متعجبـا منهـا، أو مسـتنكرا لهـا، تكـون رؤيتـه مـن الخـارج ذات معلومـات أقـل، وخصوصـاً حينمـا يتعلـق الأمر بالمعلومات التاريخية للأمكنة التي مرَّ بها.

وتنضـاف إلـى الوظيفـة السَّـردية هـذه الوظيفـة الأساسـية وظيفـة مـن جنسـها هـي وظيفة التنسيق أو المراقبة.

ب. الوظيفة التَّنسيقية:

لمـا كانـت الوظيفـة السَّـردية فـي السَّـرد تقـوم بالأسـاس علـى البنيـة المحكمـة، مـن عـرض لمختلـف الأحـداث بطريقـة مـا انضـبطت عليـه فـي عمليـة التَّسلسـل المنطقـي للأحـداث، فـإنَّ الوظيفـة التَّنسـيقية وهـي واحـدةٌ مـن خمـس وظـائف حـددها **جيـرار جنيـت** للسـارد، يضـطلع مـن خلالهـا السَّـارد بمَهمّـة التَّنظـيم الـدَّاخلي للخطـاب وتوجيـه الرؤيـة، وتوزيـع الأصـوات [3]، وكـذلك «إبـراز مفاصـل الحكايـة الكبـرى والـرَّبط بـين أجزائهـا وضـبط مـا بينهـا مـن علاقـات والتَّصـرف فـي طرائـق إدراج أقـوال الشَّخصـيات

1) ـ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص 291.
2) ـ نفسه، ص 291.
3) ـ ينظر: يوسف حطيني: مصطلحات السرد في النقد الأدبي، ص 248.

واختيار نمط الخطاب المناسب لنقلها» [1]، انطلاقاً من الرَّبط بين الجمل والأجزاء، والتَّذكير بالأحداث، وخلق إشراقات للدهشة والإثارة، والتَّنوع في الرَّبط.

إنَّ السَّارد بشكل عامٍ يأخذُ على عاتقه التَّنظيم الدَّاخلي للخطاب القصصي أو العمل السَّردي الذي يجبُ أن يتمتع بالتَّنسيق من أجل استتباب ما يرى النَّص قوله بغض النظر عن أخلاقيات النَّص، فلابد من أنَّ يقدم ما يريد قوله بصورة منظمة منسقة، ولا يمكن أن يحدث هذا دون أن يقوم السَّارد بهذه الوظيفة، لذا يسعى إلى شدَّ الرَّوابط السَّردية بعناصر تحكم السَّرد وتزيده حرارة وتشويقاً وتدفع به إلى الانسجام والتَّفاعل مع الأحداث بما تحيل عليه المشاهد من التأثير ذاته، أو ما يحيل عليه للنظر من زوايا نفسية مختلفة، ومن نوافذَ مرجعية كثيرة، تستدعيها مقامات العملية السَّردية التي تتوازى مع القصة الفعلية [2]، وعليه فإنَّ التَّنسيق هو ما يجمع البنية السَّردية العامة ويجعل فيها روح التَّأثيث، بعد أن قام السَّرد بقطعها وتجزئتها.

وبما أنَّ الحكاية في الرّحلة «لا تقوم على عامل الشَّد التَّخييلي الذي يكون فيه السَّارد عارفاً بطقوسِ واستراتيجيات أحداث شخصياته، فإنَّ الرّحلة تقوم على التَّراكم المادي الذي يتكون عند الرَّحالة كمادةٍ خامٍ، يقفُ فيها موقف الانتقاء، فعملية التَّوظيف والاقصاء داخل المتن يجبُ فيها وظيفة التَّنسيق التي تتأسس على مبدأ ترتيب العناصر المسرودة وفق رؤية السَّارد، ولتصبح جملة الممكنات المحتملة قابلة لتكون مادة للحكي» [3].

وتقوم الرّحلة **الورثيلانية** وكل النّصوص الرَّحلية على الوظيفة التَّنسيقية، بما أنَّ (السارد الرحالة) سيكون في سرده مختصراً لطول المسافة الزَّمنية وكم الأحداث والأفكار المترتبة عنها، المتراكمة في ذهنه أو المقيدة في مسوداته، لذلك كان لزاماً عليه إعماله لهذه الوظيفة كي يبقى متحكماً في زمام سرده ولا ينفلت من يده، فيُبْقيَ بذلك علاقته بمتلقيه قائمةً على وتيرة مضبوطة.

---

1) ـ محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، ص 473.
2) ـ ينظر: عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 511.
3) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 511.

قد يحتاجُ السَّارد في بعض المواضع السَّردية إلى الدقة والاسترسال، إلا أنَّه يرى أنَّ المجال الذي يريد الخوض فيه لم يتهيأ له المقام، فيعلن عن تجنبه موضوع ما هو بصدد الحديث عنه، وهو إعلان هنا عن عدم تجاهله للقارئ فيشير إلى ذلك حتى لا يترك الرّيبة في نفسه، من قبيل قوله: «**لولا الإطالة لذكرنا من أوصافهم نبذة، ومن أخبارهم ووقائعهم**» [1]، وقد يعمد إلى التنويه إلى تهيئة المقام لبعض الموضوعات التي لم يحن وقت سردها، كقوله مثلا: «**وأنّي سأذكر من ذهب معنا من الفضلاء تبركا بهم**» [2]، فحتى ولو لجأ إلى الاستطراد فإنَّ السَّارد يشعر ببدء الاكثار والخروج عن السِّياق العام للحدث، فلا يتجاهل بدوره القارئ بل يعمد إلى تنبيهه على ذلك مشعراً إياه بوضعه السَّردي، وبأنَّه منتبه غير غافل عمَّا يربطهما من ميثاق.

تشكل هذه الوظيفة درجة وعي يمارسها السَّارد يتقف فيها عند حدود معينة إذا همَّ بتفسير موضوع ما، فإنَّه يرجع إلى الحلقة المتوقف عندها من السَّرد، ففي كثير من الأحيان يريد الاعتذار بطريقة ما حسب ظروف السّياق وطبيعته [3]، ودائما يقوم الميثاق على الصّيغ الدالة على العودة للحديث الأصل للحكاية الإطار من خلال ألفاظ صريحة مثل (**انعطاف، لنرجع، تتمة، رجوع، تكملة، نعود**)، كقوله مثلاً: «**رجوع إلى ما كنا بصدده وهو خروجنا من هذا الجبل**» [4] أو قوله أيضا: «**تتمة وانعطاف إلى ما كنا بصدده؛ من الإقامة بالمدينة المذكورة**» [5]، وأيضا مثل: «**انعطاف؛ في تكميل ما تعلق بأحوالنا بـ "بسكرة"**» [6]، وقوله في موضع أخر: «**انعطاف للمقصود؛ وهو أنَّنا ارتحلنا من سيدي عقبة**» [7].

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 687.
2) ـ نفسه، ص 604.
3) ـ ينظر: عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 515.
4) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 616.
5) ـ نفسه، ص 130.
6) ـ نفسه، ص 127.
7) ـ نفسه، ص 123.

وهي تقنيةُ استدراكية قائمة في الوظيفة التَّنسيقية، خاصةً عند الاستدراك السّياقي نحو القارئ (الضمني/الحقيقي)، كما أنَّ الاستدراك له مجاله الخاص في الخطاب الرَّحلي يلجأ فيه السَّارد للتَّعويض عن الجهل المعرفي عن مكنونات المكان، حيث لم يكن بمقدور الرَّحالة أن يلمَّ بجميع المستويات المعرفية عن المكان المزار وفي كثير من الأحيان تكون صور نمطية غير قائمة على المعرفة الصحيحة فهذا التعويض هو تصحيح استدراكي في صلب الوظيفة التَّنسيقية [1].

وعلاوةً على هاتين الوظيفتين يمكن للسارد أن ينهض بوظائف ثانوية، أول أصنافها مرتبط بالحكاية الصّرفة وأما ثانيها فمتعلق بالخطاب [2]، وفي الصّنف الأول المرتبط بالحكاية نجد الوظيفة الاستشهادية التي تظهر حين يكشف الرَّاوي عن مصدر معلوماته، وإلى هذا الصّنف أيضا تنتسبُ الوظيفة المعرفية التقويمية التي يجسدها ما يطلقه الرَّاوي من أحكام وآراء في شأن الشَّخصيات والأحداث.

ج. الوظيفة الاستشهادية:

تعدّ الوظيفة الاستشهادية «واحدة من خمس وظائف حددها **جيرار جنيت** للسّارد، وهي الوظيفة التي يضطلع بها السَّارد حين يشير إلى مصدر معلوماته، أو درجة دقة ذكرياته» [3]، ومن هذا المنطلق يمكن أن نُعد «الخطاب الرَّحلي كله مادة استشهادية من حيثُ انَّه يعتمد كلياً على الواقع الجغرافي المخول بتبني كل نشاط إنساني تتشكل عليه المجتمعات، وهو الدَّافع أيضاً على تشكيل التَّفاعل النَّصي، إضافةً إلى المصدر الذاتي الذي يقوم على الذَّاكرة والعاطفة، المصدر الأساس لكل إبداع، ثم السَّند الإنساني القائم على السُّؤال والحوار وذكر للشخصيات الواقعية والتَّاريخية والسَّند التَّاريخي من مؤلفات أو أقوال خالدة لأبطال أو زعماء أو علماء، فالنَّص الرَّحلي يعدّ وثيقةً بلجوئها إلى سند متين، هو في حد ذاته يعد سنداً ومصدراً ضمنياً» [4].

---

1) ـ ينظر: عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 515.
2) ـ ينظر: محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، ص 473.
3) ـ يوسف حطيني: مصطلحات السرد في النقد الأدبي، ص 247.
4) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 528.

وتعتمدُ الوظيفةُ الاستشهاديةُ بالأساس على المكان المسرود[1] الذي يفرض الوجود الواقعي مدناً كـ (بسكرة ، طرابلس، القاهرة، مكة، المدينة...) أو أماكن كـ (نهر النيل، واد الرهبان ، واد العقيق، جبل ثور، جبل حراء...)، وتكمن أهمية هذه الوظيفة ليس التَّحقق من المكان وحسب، بل في إعطائه بعداً نفسياً أيضاً، فالرَّحالة وهو في مقام اختيار مادته السَّردية ينتخبُ منها ما كان ذا أهمية، لذلك كان المكان مستلزماً لتضافر أو تعاضد الجغرافيا بالتَّاريخ، فالموقع المكاني جزءٌ لا يتجزأُ من مسافته الزَّمنية، مما يستدعي ألاَّ يكون المكانُ مجرد جمادٍ، كقوله مثلا: «**و"درنة" مدينة على "ساحل البحر" بها مرسى، بينها وبين " التميمي" مسافة يوم ونصف من غربَيّه، وكانت خالية منذ زمان إلى أنَّ عمرها الأندلس قرب الأربعين والألف [1040هـ/1630هـ]، ولم يزالوا بها إلى أن بطروا، فأنشبوا الحرب بينهم وبين أمير "طرابلس"، فأخرجهم منها صاغرين**» [2]

فالمكان الذي ذكره (الرَّحالة/السَّارد) يتماس مع الزَّمن القديم، فهو يمثل السَّند في الإحالة التَّاريخية، وهذه الخاصية يستخدمها الرَّحالة، فيعمد أولاً إلى تحديد الموقع جغرافياً ثم يلحقه بنبذة تاريخية والسَّارد في ذلك مندفعٌ للسرد ومُنطَلِق من بعد نفسي، فكلما كان المكان ذا أهميةٍ تاريخيةٍ يتوقفُ عنده السَّارد بالشَّرح، وهو ناتج من اعتزازه الآني، كونه جسّد عياناً الأبعادَ المادية للصّورة الذهنية للمكان، والمقروءة من صفحات الكتب، وفي مثل هذه الوضعيات يكون السَّارد أمام سندين، «سند الرُّؤية، وسند التَّاريخ، فالجغرافيا تلتقط المكان وتحدد مجاله وصفته الآنية بينما التَّاريخ تحيل عليه الذاكرة الحافظة لسند المصدر التاريخي» [3].

ولقد اعتمد الرَّحالة كثيراً على الذاكرة والحفظ، والمشاهدات وما سمع اعتماداً ذاتياً فكان سارداً آنياً يسردُ ما رأى معززاً ذلك بما سمع ومُحيلاً إلى مرجعيته الثقافية والمعرفية، راضخاً لهُويته وخلفياته، كما كان أيضاً يعود في سرده للأماكن إلى روايات وأقوال السابقين من الرَّحالة أصحاب الخبراء، وكثيراً ما يورد إشارات

1) ـ ينظر: عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 528-529.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 251.
3) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 529.

تحيل على أنَّ السَّارد قد اعتمد على بعض شهادات الرَّحالة، كقوله: «**قال سيدي أحمد بن ناصر ما نصه: "تورغا"، وهي بلدة منقطعة أول "برقة"، وفيها نخلٌ كثيرٌ، وتمرها أطيب من تمر غيرها من بلاد الساحل" وأجود منه، لبعده شيئاً ما عن البحر، ورطوبته ودخوله قليلاً إلى الصَّحراء، حيث تكاد اليبوسة تستولي على أبدان الحيوانات فضلا عن النَّبات**» [1]

وقد يتحققُ هذا الاستشهادُ في الشّعر كما يتحقق في النَّثر، وما دام أنَّ «الشعر يغلب كنسق ثقافي عند السَّارد في الرّحلة» [2]، فإنَّه كان دوماً يمتثل في الخوض في كل مناسبة مواتية إلى الاستشهاد بالشّعر سواء أكان ذلك سَوقاً لحكمة أو لبعد جمالي كما في قوله عند الخروج من "مصر: «**قلت: وهكذا كانت العادة، وقد يؤخرون في هذه الأواخر بحسب تجهيزهم وتهيئة زادهم، وما يحتاجون إليه لمسافة الدَّرب أمامهم، ولله درّ العلامة الصّلاح الصفدي إذ يقول:**

دربُ الحجاز مَشقّة لَكن إذا * الجمّال هانَ تَسهَلتْ أهوالُه**
أَصبحْت في تَصريفِ جِمالي على * ما يَشتهي فَكأنّني جَمّالُه**
قَدْ كانَ خفّ على فُؤادي لو غَدا * من فوقِ ظَهري بالسَّوا أحمالُه**
ويَكون طَوعي في الّذي أختاره * لكن قَسَا وتَضاعفت أثقالُه**» [3]

إنَّ (الرَّحالة/السَّارد) وهو يمارس وظيفته الاستشهادية، لا يذكر في خطاب رحلته أمكنةً تخطر على باله عشوائياً، وإنَّما يَخصُّ بالذكر فقط ما رأى منها، وبحسب مقام المكان المزار تتحدد هُوية السَّرد، ولعل رمزيته أحياناً تجعل السَّارد لا يَتدفقُ في السَّرد إذ يكفيه ذكر الأسماء للدلالة على الشُّعور والموقف خاصة إنْ كانت جليلة وعظيمة في التَّاريخ الإسلامي، كقوله عن المدينة المنورة: «**دخلنا "المدينة المشرفة"، ونزل الرَّكب المغربي عند الباب الذي يذهب منه إلى " جبل أحد"(...) ولمَّا استقرّ بنا المنزل، واجتمعت فيه بالأصحاب والأهل، ذهبنا إلى الحرم الشَّريف"، والمسجد المنيف**» [4].

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص233.
2) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 531.
3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص299.
4) ـ نفسه، ص 470.

د. الوظيفة التَّقويمية:

يُدرجها **جيرار جنيت** واحدة من بين الخمس وظائف التي يضطلع بها السَّارد، وذلك «حين يقوم بالتَّعليق على الأحداث وتسويغها مقدّماً آراء تعليمية أو وعظية أو من خلال اشتغاله على آليات التَّفسير والتَّأويل» [1]، وقد حضرت عند (الرَّحالة/السَّارد)، فكان كثيراً ما يقوم بالتَّعليق على بعض الأحداث، انطلاقاً من وجهة نظره، ومن موقفه الفكري أو الأخلاقي، وعلى سبيل المثال قوله لمَّا مرَّ بحمام الآنف بـ "تونس": «**نعم هو معلوم البركة والشّفاء، فتجد أهل العلل فيه دائماً ولا يخلو عنهم وقد سكن فيه بعض النَّاس، غير أنَّه كثير الفتنة من كثرة النساء وهن يرعن من فتن نعم تونس من لم يكن على حذر فيها من النساء زل في مهواة الضلال وسقط في مفازة الهلاك**» [2].

و. الوظيفة التَّواصلية:

وهي واحدةٌ من خمس وظائف حددها **جيرار جنيت** للسارد، والتي تظهر على مستوى الوضعيّة السَّردية، وتحددها علاقة السَّارد بالمسرود له، يتجه الأول إلى الثاني بقصد التَّأثير فيه أو التَّثبت من وجود التَّواصل بينهما [3]؛ ويذكر هنا أنَّ **رومان ياكوبسون (Roman Jakobson)** قد حدد في المجال الإبلاغي وظيفتين أساسيتين هما: **والوظيفة الإفهاميّة، الوظيفة الانتباهية** [4].

فالوظيفة الإفهامية تتمثل في إدماج القارئ في عالم الحكاية، ومحاولة إقناعه، كقول الرَّحالة على سبيل المثال: «**فإن قلت: هل يجوز لمن كان في تلك المدرسة من عالم أو متعلم الأخذ من تلك المدرسة والانتفاع بما فيها... قلت: الحق الجواز من غير شك**» [5].

---

1) ـ يوسف حطيني: مصطلحات السرد في النقد الأدبي، ص 248.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 662.
3) ـ محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، ص 473.
4) ـ ينظر: يوسف حطيني: مصطلحات السرد في النقد الأدبي، ص 248.
5) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 153.

أمَّا عندما «يتم التَّركيز في فعل التَّواصل على قناة التَّواصل يكون لهذا الفعل وظيفة انتباهية، وخاصة تلك الفقرات السَّردية التي تركز على الصّلة السّيكولوجية بين الرَّاوي والمروي له» [1] إذ يكون فيها وجود المسرود له أثناء الخطاب بصورة واضحة، من خلال استحضار السَّارد له عبر ملفوظات معينة، فبالإمكان القول: إنَّ قول الرحالة مثلاً: «**فأنت ترى أيّها المخاطب أنّ هذه دسيسة دسّها اللّعين لهم**» [2] يحقق وظيفة انتباهية.

إنَّ الوظيفة التَّواصلية واحدة من أهمّ الوظائف في الرّحلة التي يمكن بها بنينا أي فعل من أفعال التَّواصل (اللفظي) وتوجيهه، فهي تقوم بالأساس على التَّنوع بين «الخطاب المباشر وغير المباشر، تارةً نحو متلقي مماثل وأخر مختلف، بيد أنَّها تستعمل فيها أدوات وآليات لغوية وإشارية وهي الصّيغ الملائمة في التَّواصل بالكيفية اللائقة» [3]، كاستعمال الأفعال بكافة أزمنتها، ففعل الأمر (إعلم، أُشدد) **مثلا: «فإعلم هذا رحمك الله، وأشدد عليه حاصله الحق يدور مع أهل المحفل»** [4]، ويتضمن هنا النّصح بهذا الخطاب المباشر، والأفعال الماضية (علمت) مثل: «**فإذا علمت هذا، علمت أنَّ والي "بولاق" قد تعدى على ركبنا**»[5]، وهي تدل على التَّقرير وتأكيد المعلومة، وكذا الأفعال المضارعة (تغتر) مثل: «**نعم، فلا تغترّ أيّها الحاج بحلاوة اللسان من الشَّيطان، ولا بإظهار المودّة، ولا بكثرة الإيمان، فإنهم ذئاب في ثياب**»[6] وهي تدل على الانتباه واستمرارية التَّواصل والمباشرة في تعليم والتَّوجيه والنُّصح.

إنَّ السَّارد في الرّحلة على العموم يعمد إلى تدعيم وجود الاتصال بينه وبين المرسل إليه، حيث يسعى باستمرار لإيجاد مكان للمتلقي وسط المحكي من خلال هذه الوظيفة وذلك عن طريق الحوار أو النّداء أو ضمائر المخاطب أو الصّيغ اللافتة لانتباه القارئ [7].

---

1) ـ جيرالد برنس: قاموس السرديات، تر: السيد إمام، ميريت للنشر، القاهرة، ط 1، 2003م. ص 147.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 137.
3) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 522.
4) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 495.
5) ـ نفسه، ص 335.
6) ـ نفسه، ص 301.
7) ـ ينظر: عمران بن محمد الأحمد: أدبية الرحلة عند العبودي، ص 315.

وقد حرص الرَّحالة على اختيار فعالية الاتصال بينه وبين القارئ من خلال ضمائر المخاطب أو صيغ لفت الانتباه، فقد يوجه الخطاب للقارئ مباشرة بضمائر الخطاب الظاهرة المتصلة أو المنفصلة، كقوله مثلا: «**فأنت ترى أيُّها المخاطَب إلى هذا الجانب الأعلى الأعظم**» [1] أو قوله: «**فإياك والغفلةَ فيها وفي غيرها فإنَّ الغفلةّ فيها مظنة التَّلف**» [2]، أو قد يستخدم الضمائر المستترة، من قبيل قوله: «**فاِعلم أنَّ هذه المفازة كما وصفناها أولاً غير أنَّ الله تبارك وتعالى يسرها علينا بفضله**» [3].

ويمكننا أيضاً إدراك هذه الوظيفة في هذه الرّحلة من خلال ما أورده الرَّحالة من صيغ لافتة للنظر ومستفزة لتلقي ما بعدها، وتكمن هذه الصّيغ في مجموع الكلمات التي يصدر الرَّحالة بها «**الكلام أو النَّص بتحديد أسماء دالةٍ على (نوع) الكلام**» [4] نحو الألفاظ المعبرة عن غرابة الكلام أو نُدرته أو طرافته أو أهميته وغيرها، من قبيل قوله: (غريبة، أعجوبة، نكتة، لطيفة، فائدة، تنبيه وإعلام)، ومثال ذلك قوله: «**لطيفة وفائدة، استقرار الشَّيخ في هذه البلدة وهي بلدة "مسراتة"، إذ هي ليست من الأمصار**» [5]، أو قوله أيضا: «**نكتة مما ينبغي لزائر المدينة الإكثار من الصلاة في المسجد النبوي**» [6].

يوجه الرَّحالة خطابه السَّردي «**التَّواصلي إلى متلق (قارئ) مفترض يرغب في التَّعلم والمعرفة**» [7]، لذا فإنَّ عليه أنْ يحرص على ذكر كلّ ما يمكن أنْ يغذي عقل القارئ من معارفَ ومعلوماتٍ، وذلك هو المكون التَّعليمي، فالرَّحالة يرتحل ليتعلمَ، ويعود إلى بلده ليعيدَ إنتاج المعرفة بصيغ عديدة، يقول **الورثيلاني** وهو بالمزدلفة: «**ثُمَّ سرنا آمين المصلى بـ "المزدلفة"، فبلغناها بعد مغيب الشَّفق فجمعنا بين العشاءين، ونزلنا فبتنا فيها، فتفرّق للقط الجمار هنالك من أراده مِنَ**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 137.
2) ـ نفسه، ص 148.
3) ـ نفسه، ص 246.
4) ـ عمران بن محمد الأحمد: أدبية الرحلة عند العبودي، ص 316.
5) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 228.
6) ـ نفسه، ص 479.
7) ـ عمران بن محمد الأحمد: أدبية الرحلة عند العبودي، ص 313.

النّـاس، فلـو شـاهدت يـا هـذا تلـك الحـال ومـا عليـه النَّـاس فـي "جبـل عرفـات" ووقوفهم بتلك العرصات، لهالك ذلك المشهد» [1].

تبـدو الصّـبغة التَّعليميـة واضـحةً مـن خـلال هـذا المثـال، فالخطـابُ «يـتمُّ بطريقـةٍ مباشـرةٍ فـي مواجهـة المرسـل إليـه باعتبـاره قارئـاً، هـذا الأخيـر يكـون دائمـاً فـي حضـرة السَّـارد، فهـو يتلقـفُ مـا يحملـه الـنَّص مـن خطـابٍ تعليمـي، لـذلك نجـد السَّـاردَ يحـرص علـى الفكـرة أن تصـلَ للقـارئ فـي صـورةٍ ناصـعةٍ» [2]، وقـد يبـالغ الرَّحالـة فـي هـذا أحياناً حتّى يكونَ الخطابُ خاليا من اللبس تماماً.

خُلاصة القَول:

▪ السَّارد في الرّحلة كائنٌ واقعي، هو من يقدم المادة القصصية من المنظور الذي يراه، فالرَّحالة يسردُ الأحداث التي عاشها معايشة فعلية، أو معايشة لغوية وتعدّ الرَّغبة في تخطيب الرّحلة أهم دافع للسرد.

▪ اختار **الورثيلاني** وضـعيات السَّـارد المناسـبة: فمرة هو **(الرَّحالة/السَّـارد)**، فتحيل هُويته في النَّص على هُويته كاتباً خارجه، ويعلن ذلك صراحةً في المتن الرَّحلي، فهو الرَّحالة والكاتب والبطل.

▪ السَّارد في الرحلة هو بؤرة السرد ومحركه، فشخصية الرَّحالة /السَّارد تحدد مجرى السَّرد، فيكون سارداً ذاتياً يؤثر ويتأثر، ويأتي سارداً متماثلاً: الممسرح الفاعل في الأحداث، وهو إمّا سارداً رئيساً، أو ثانوياً يفسح المجال لساردين آخرين، ويأتي سارداً متبايناً قد يحضر أو يغيب، كما يكون سارداً موضوعياً للتأكيد على واقعية السرد.

▪ يعرف نص الرّحلة، حضـور عدة سـاردين ينوبون عن الرَّحالة، وذلك عندما يتوارى السَّـارد **الرَّئيس**، مدرجاً خبراً تاريخياً أو حكايةً، لكنَّه سرعان ما يعاودُ الظهور ليظل مستبداً بالسَّرد من انطلاق الرّحلة إلى عودته إلى وطنه.

▪ ويختار **الورثيلاني** -أحيانا-في وضـعية المسـرود له رغبةً منه في فهم المرئيات المبهمة بظهور السَّارد المباشر يلقي المعلومات عن الأمكنة والأشخاص.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 407.

2) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 521.

▪ حرص الرحالة على استغلال وظائف السارد في رحلته: السردية والاستشهادية والتَّنسيقية هدفها التَّنظيم الداخلي للرحلة، وتوجيه الرؤية والتقويمية والتَّواصلية وهدفها التَّأثير في المسرود له وإدماجه في عالم الحكاية.

ثالثاً: المسرود له في الرّحلة.

المكون الثالث من مكونات السَّردية الذي سندرسه في الرّحلة هو المسرود له (Narrataire/Narrateé)، وأول خطوة تبدو لنا مُهمة في هذا السّياق قبل الحديث عن تشكلاته ووظيفته داخل بنية الخطاب السَّردي الرَّحلي هي تحديد هويته وفرزه عن بعض المصطلحات الأخر كـ (القارئ الضمني والقارئ الحقيقي)، ثم بعد ذلك بحث تشكلاته في نص الرّحلة الورثيلانية، ليكون السُّؤال المطروح ماذا نقصد بالمسرود له؟

1) ـ مفهوم المسرود له:

لقد كان الاهتمام بدراسة المسرود له كمصطلح بنيوي/سردي متأخراً، إذا ما قارناه بغيره من تقنيات السَّرد الأخرى، فمن المعلوم أنَّ أول ظُهورٍ له كان بصورة خاصة في كتابات **رولان بارت**، خلال ستينات القرن الماضي، ثم نظّر له من بعد ذلك، النَّاقد الفرنسي **جيرار جينيت**، وكان أول من ألحَّ على مفهوم (المسرود له) في كتابه الذي نشر سنة 1972م، وقد أشار النَّاقد في هامش الصَّفحة ذاتها إلى أنَّه أخذ هذا المصطلح عن **رولان بارت**، وقد صاغه وفق النّموذج التّواصلي الذي اقترحه؛ ويبدو أنَّ النَّاقد الانجلوساكسوني **جيرالد برنس (Gerald Prince)** - على ما يذهب إليه **سيمور جاتمن (Seymour Chatman)** -هو أولُ من اهتمَّ بالمسرود له كعنصرٍ بنيوي وظيفي من الدَّرجة الأولى في البنية السَّردية، وذلك من خلال بحثه الموسوم **"مقدمة لدراسة المسرود عليه"**، والذي نشرت ترجمته الفرنسية في العدد 14 سنة 1973 في مجلة "الشَعرية" **(Poétique)**، أي بعد سنة من بحث **جيرار جينيت**، وقد كان الاهتمام قبل هذا ينصبُّ على السَّارد إضافة إلى المسرود" المضمون الحكائي" فأحدث بحثه هذا ثورةً حقيقيةً في تحليل النُّصوص السَّردية من

وجهة نظر شكلية ووظيفية، نظراً للصرامة العلمية والجدية التي تحلى بهما، فأصبح المرجع الأساس في كل بحث يتناول البنية السردية بمكوناتها الثلاثة. [1]

يتفق منظرو السَّرد، على أن السَّارد لا يروي الحكاية لنفسه، إذا لا معنى وراء هذا الفعل العبثي المطلق الذي سيضع -لو تم فعلا-جوهر الحكاية موضع التَّساؤل، لأنَّ الحكايةَ بالأساس **"موقف اتصالي"** وفق المعنى الذي أراده **رومان ياكوبسون** من هذا المصطلح الأخير.

فالخطاب يتكون من (مرسلٍ ورسالةٍ ومرسلٍ إليه)، كما تمَّت الإشارة سابقاً، لذا نجد خطاب القصة أي «قصة محكية يَفترضُ وجود شَخصٍ يحكي، وشخص يُحكى له، أي وجود تواصلٍ بين طرف أول، يدعى "راوياً" أو ساراً(Narrateur)، وطرف ثانٍ يدعى مرويا له أو قارئاً(Narrataire).» [2]، إذن المسرود له هو بمثابة متلقي الإرسال اللغوي المرسل من قبل المتكلم والذي هو في حالة النَّص السّردي السّارد وليس الكاتب، إذ يصبح النّص بهذا المفهوم فضاء اتصال ليس بين الكاتب والقارئ كما يظن البعض، بل بين السَّارد والمسرود له.

وما يمثل الحكي في هذا الموقف إلا الرّسالة المشفرة التي يريد مرسل ما إيصالها عن طريق قناة خاصة، إلى مرسل إليه معين أو غير معين، بقصد التّأثير عليه سردياً، يعني هذا الكلام من جهة، أنَّ (السَّارد / المُرسل) ليس بحاجة لأنْ يسرد لنفسه معلومات هو يعرفها أصلاً، كما يعني من جهة أخرى، أنَّ السَّارد لا يستطيعُ في أي حالٍ من الأحوال أن يستغني عن (المسرود له/ المرسل إليه)، إلاَّ إذا كان يريدُ لحكايته أن تكون بلا أثرٍ أو تتحول إلى هذيانٍ لا مبررَ له، وهذا أمر مستبعد لمخالفته الصَّريحة بسبب وجود (الرّسالة/ النص)، إذن يستحيل تصور سارد بلا مسرود له، يستمع إليه، ويتلقى منه حكايته أو مجموع حكاياته، ويَضمن له إنجاح عملية التَّواصل.

إنَّ تعقب المعجم السَّردي الغربي قد كشف لنا عن مدونةٍ هامةٍ للنَّاقد **جيرالد برنس**، عرض فيها معظم مصطلحات (النَّظرية السردية) وما دمنا هنا بصدد الكشف عن مصطلح

1) ـ ينظر- عليمة قادري: رحلة السرد (السندباد يعود من بعيد)، ص 182.
2) ـ حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ص 45.

(المسـرود له)، فإنَّنا نجده معرفاً إياه في كتاب قاموس السَّـرديات بالقول: أنَّه هو «الشَّـخص الذي يسـرد له أو المتموضـع أو المنطبع (Inscribed) في السَّـرد، وهناك على الأقل (واحد أو أكثر يجري إبرازه ظاهريا)، مسرود له لكل سرد يقع في مستوى الحكي للسارد نفسه الذي يوجه الكلام له أو لها، وفي سـرد ما يمكن أن يكون هناك عدة مسـرودين لهم، كل واحد منهم يوجه له الكلام بالتَّناوب من ســـارد واحد(Vipers Tangle) أو ســـارد مختلف (the immoralist)» [1]

وقد استقطب المصـطلح اهتمام لفيف من الباحثين العرب في شؤون السَّرديات، وعليه لابدَّ من التَّنويه إلى ما قد نجده من تباين في التَّسميات الاصطلاحية المقابلة لـ (المسرود له) عند هؤلاء، «فبعضـهم يطلق عليه تسـميات خاصـة نابعة من ثقافة وذوقية ورؤيته للمصـطلح فيسميه بـ " المروي له"، والمروي عليه» [2]، كما هو الحال عند **عبد الله إبراهيم** الذي يعرف المروي له بأنَّه: «هو الذي يتلقى ما يرسـله الرَّاوي» [3]، وعلى العموم رغم تعدد التَّسـميات إلا أنَّها تشيرُ جميعاً إلى ما يعدّ أحد عناصر الوضع السَّردي ، الذي يقع في مستوى السَّارد، لكن وفي مطلق الأحوال، لا بـدَّ من تجنـب الخلط بين هـذا المصـــطلح السَّـــردي وبعض المصـطلحات الأخرى، كالقارئ الحقيقي والقارئ الضـمني، التي تتجانس معه ظاهرياً، رغم وجود اختلافات واضحة بينهما، التي نسعى إلى ابرازها في هذا المقام لرفع اللبس.

وأول مـا نبينـه، التَّمييـز بـين المسـرود لـه والقـارئ الحقيقـي، فـالأول كيـان داخـل نصـي يسـتقبل الكـلام الـذي يُوجَـه إليـه مـن السـارد، أمـا الثـاني فهـو علـى العكـس مـن ذلـك شـخص واقعـي ذو وجـود مـادي طبيعـي، فهـو جسـمٌ حـيّ يستصـحب معـه لحظـة قراءتـه للنص تاريخه الشَّخصي وذاكرته وتجربته في العالم وفي القراءة.

إذن، فـالتمييز بـين هـذين الكيـانين وجـودي حيـث أنَّ القـارئ الحقيقـي للـنص، هـو مخلـوق حـيّ وحقيقـي ذو وجـود صـريح وواضـح، يقـع خـارج عـالم السَّـرد الـوهمي أي

1) ـ جيرالد برنس: المصطلح السَّردي، تر: عابد جزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1، 2003م، ص 142.
2) ـ مصطفى بو جملين: (ثنائية (السارد /المسرود له) في كتاب (في نظرية الأدب) لـ عبد المالك مرتاض)، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر بسكرة، ع 10، 2014م، ص 268.
3) ـ عليمة قادري: رحلة السرد (السندباد يعود من بعيد)، ص 181.

فـي العـالم الـواقعي، يضـطلع بحـل شـيفرة الـنَّص أو تفسـيره [1]؛ أمـا المسـرود لـه، لـيس أكثر من كائن من ورق لا يتجاوز حضوره حدود النَّص.

ويجـب أيضـا التَّمييـز بـين القـارئ الضـمني **(Implied reader)** والمسـرود لـه، «فـالأول هـو جمهـور المؤلـف الضـمني الـذي يسـتنتج مـن كامـل الـنَّص، بينمـا الأخـر هـو جمهـور السَّـارد الـذي ينطبـعُ أو يـدرج inscribed بهـذا الوضـع فـي الـنَّص، ولـو أنَّ التَّمييـز يمكـن أنْ يكـون إشـكالاً (علـى سـبيل المثـال فـي حالـة المسـرود لـه الخفـي تمامـا)» [2] كمـا قـد يكـون أحيانـا غايـة فـي الوضـوح مـثلا فـي حالـة السَّـرد الـذي يكـون فيه المروي له شخصية.

كمـا يتعـين أيضـاً التَّمييـز بـين القـارئ الضـمني لأحـد النَّصـوص السَّـردية وقارئـه الفعلـي أو الحقيقـي، ولتبـين الفـرق بينهمـا نعـود للتعريـف الـذي أطلقـه **جيرالـد بـرنس** علـى القـارئ الضـمني، إذ يقـول: بأنَّـه «الجمهـور الّـذي يفتـرض الـنَّص وجـوده، إنَّـه الـذّات الأخـرى للقـارئ الحقيقـي (التـي تُصـاغ وفقـاً للقـيم والأعـراف الثَّقافيـة للمؤلـف الضـمني)» [3]، فمـن جهـة يمكـن لقـارئ حقيقـي واحـد أنْ يقـرأ نصوصـاً متعـدّدةً تفتـرضُ قـراءً مختلفـين مـن الجمهـور (ويسـمح لنفسـه أن يتشـكل وفقـاً لقـيم ومعـاييرَ مـؤلفين ضـمنيين مختلفـين)، ومـن جهـة ثانيـة فـإنَّ نصـاً واحـداً يمتلـك - شـأنه شـأن كـل النُّصـوص- قارئـاً ضـمنياً واحـداً، كمـا يمكـن أنْ يكـون لهـذا الـنَّص أكثـر مـن قـارئ حقيقي، بل مجموعة متفاوتة ولا نهائية من القراء الحقيقيين [4]

إذن، فالقـارئُ الحقيقـي هـو ذلـك الـذي يقـرأ الكتـاب (أو الكتـب) فعـلاً، أمَّـا القـارئ الضـمني أو **(القـارئ المتـوهم)** كمـا يصـطلح عليـه النَّاقـد (سـعيد علـوش): هـو القـارئ الـذي يمتلكـه الكاتـب، إذ «تسـتحيل (علـى المؤلـف) كتابـة عمـل مـا دون مقصـدية تتوجـه بالعمل إلى نوع من القراء» [5]، فهو إذن القارئ الذي من شأنه أن يقرأ الكتاب.

---

1) ـ ينظر: يوسف حطيني: مصطلحات السرد في النقد الأدبي، ص 177.
2) ـ جيرالد برنس: المصطلح السردي، ص 111.
3) ـ جيرالد برنس: المصطلح السردي، ص 111.
4) ـ ينظر: يوسف حطيني: مصطلحات السرد في النقد الأدبي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2019م، ص 178.
5) ـ سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1985م، ص 175 176.

يـرى النَّاقـد **جيرالـد بـرنس**: «أنَّ السُّـرود، شـفاهية كانـت أم مكتوبـة، وسـواء أكانـت تسـجل أحـداثاً حقيقيـةً أم أسـطوريةً، وفيمـا إذا كانـت تخبـر عـن حكايـة، أم تـورد متواليـة بسـيطة مـن الأحـداث فـي زمـن مـا، فإنَّهـا لا تسـتدعي راويـاً فحسـب، إنَّمـا مرويـاً لـه أيضـا، والمـروي لـه شـخص يوجـه إليـه الـراوي خطابـه» [1]، وإذا كـان فـي عمـوم فنـون القـول السَّـردية «للسـارد داخـل القصـة مسـرود لـه داخـل القصـة» [2]، وهـذه حقيقـة بديهيـة تمَّـت الإشـارة إليهـا، فـإنَّ هـذا أجـدى وأولـى فـي الخطـاب الرَّحلـي، لمـا يتمتـع بـه مـن معـارف تسـتقى مـن مصـادرها الواقعيـة التـي لا تتجلـى إلا بالبحـث والاستكشـاف، عكـس فنـون القـول الأخـرى التخييليـة التـي تبـدع مباشـرة مـن مخيلـة إبـداعات السـارد وفق طبيعة الأحداث واستراتيجيات أهداف القصة.

إذن، فوجـود سـارد كطـرف أول يضـطلع بروايـة القصـة ـ قصـة الرّحلـة ـ يقتضـي وجـود طـرف ثـان وهـو المسـرود لـه، الـذي يتلقـى السَّـرد، وذلـك مـن أجـل إحـداث عمليـة التواصـل بينهمـا، باعتبـار خطـاب الرحلـة شـكلاً مـن أشـكال التَّواصـل القـائم علـى ثنائيـة المرسل والمرسل إليه.

بيـد أنَّ هـذا الإقـرار لا يحـل المشـكلة لأنَّـه يفضـي إلـى أسـئلة أخـرى أكثـر تعقيـدا مـن قبـل: فمـن هـو المسـرود لـه فـي حالـة الموقـف السَّـردي فـي الرّحلـة الورثيلانيـة؟ وأيـن يتموضـع؟ أهـو خـارج الـنَّص أم داخلـه؟ إنْ قلنـا بتواجـده داخـل الـنَّص، فكيـف هـي تمظهراته؟ ووجب علينا حينئذ تحديده.

2) ـ تشكُلاته في الرّحلة:

المسـرود لـه كـائن خيـالي لـيس لـه وجـود حقيقـي، ولا يتجـاوز حضـوره حـدود الـنَّص الـذي يتحـرك علـى سـطح مسـاحته السـردية، وتتعـين أصـناف المسـرود لـه حسـب **جيـرار جنيـت** «مـن جهـة المسـتوى الـذي يحتلـه: فإمَّـا أنْ يكـون مرويـاً لـه مـن خـارج الحكايـة، بإمكانـه التَّمـاهي والقـارئ المفتـرض، وإمَّـا أنْ يكـون مرويـاً لـه مضـمناً فـي

1) ـ عبد الله إبراهيم: السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي)، لمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1992م، ص 12- 13.

2) ـ جيرار جنيت: خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، تر: محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط2، 1997، ص 268.

الحكايـة، وتتعـين أصـنافه مـن جهـة أخـرى بعلاقتـه بالحكايـة: كـأن يكـون مشـاركاً فيهـا أو غيـر مشـترك فيـه» [1]، فيكـون لـدينا بـذلك نوعـان [2] مـن المسـرود لـه: المسـرود لـه الممسـرح أو الظـاهر، والمسـرود لـه غيـر الممسـرح أو الخفـي، وسـوف نقتصـر فـي دراستنا للمسرود لـه في الرّحلة على هذين الصّنفين:

أ. المسرود له الممسرح:

يتجلـى المسـرود لـه ممسـرحاً عنـدما تتحـول شخصـية مـن الشَّخصـيات الموجـودة داخـل الـنَّص السَّـردي بصـفتها مشـاركةً فـي الأحـداث، ولـديها معرفـة كمعرفـة بـاقي الشَّخصـيات فـي القصـة إلـى مسـتمع، نتيجـة إطالـة شخصـية أخـرى للحـوار معهـا، فتتخـذ موقـع المسـرود لـه المسـتمع لمـا تقصـه الشخصـية الأخـرى (السَّـارد)؛ وقـد تلعـب هـذه الشَّخصـية دورًا أقـلَّ أو أكثـر أهميـة فـي الوقـائع المسـرودة، وقـد تكـون شخصـية رئيسـة أو ثانويـة أو مجـرد مسـتمع[3]، فالمسـرود لـه الممسـرح هـو مـن شخصـيات العمـل السَّـردي، إذ يتمـاهى معهـا تماهيـاً كليـاً داخـل الحكايـة التـي يشـكل جـزءاً منهـا، وتتكـون صورته تدريجياً، ليكون معادلاً ومقابلاً للسارد يتلقى عنه السَّرد.

نقـف علـى تجسـد المسـرود لـه الممسـرح فـي الخطـاب السَّـردي الرَّحلـي مـن خلال تبـدل الموقـع السَّردي للرحالة من سارد إلى مـسرود لـه:

إنَّ السَّـارد الـرَّئيس فـي الرّحلـة هـو سـاردٌ مهـيمن علـى السَّـرد، لكنَّـه أحيانـاً يفسـح المجـال لأحـد السَّـاردين الثـانويين لتـولي سـرد بعـض الأحـداث، وهـذا التَّعـدد فـي السَّـاردين يجعلـه فـي موقـف سـردي يُمَكّنُـه مـن التَّحـول إلـى مسـرود لـه ممسـرحاً، وذلـك

1) ـ محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، ص386.

2) ـ كما أنَّ الناقد **جوف** (ت1993)، قد حاول تمييز ثلاثة وجوه للمسرود له، تتجلى من خلال مستويين: الحكاية والقصة. أولهما: المروي له الشَّخصية الذي يضطلع بدور في الحكاية، وهو الذي يساير لدى **جنيت** المسرود له المضمن في الحكاية، وأما ثانيها: فهو مروي له مستدعى يحيل على قارئ غفل، دون هوية حقيقية، يتوج إليه السارد أثناء القصة، وهو ليس شخصية في الحكاية ولا القارئ المفترض في النَّص، وإنَّما هو تعلّة تستخدم للفت انتباه القارئ ورسم أفق انتظار مخصوص، أمَّا الوجه الثالث: فهو مروي له ممحو لا يوصف، ولا يسمى إلاَّ أنَّه حاضر ضمنياً من خلال ما يفترضه السَّارد من معرفة وقيم لدى متلقي نصه، وإنَّ هذا المروي له الممحو ليساير المروي له من خارج الحكاية لدى جنيت. **ينظر:** محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، ص387.

3) ـ ينظر: جيرالد برنس: المصطلح السردي، ص 143.

عندما يسلم زمام السَّرد إلى سارد آخر، وهكذا فتبادل المواقع وتعدد السَّاردين في الخطاب السَّردي يخلق مسروداً له ممسرحا داخل البنية السردية [1]

إذن، يحضرُ المسرود له ممسرحاً في الرّحلة عندما تتحول شخصية السَّارد الرَّئيس إلي مسرود له نتيجة لتنازله عن وضعيته كسارد رئيس إلى سارد ثانوي في القصة الإطار وابتدائي في القصة التي يسردها؛ والسَّرد الموضوعي في الرّحلة أحد مظاهر تبدل الموقف السَّردي للسارد/الرَّحالة، فهو عندما يسرد سرداً موضوعياً يكون قد تلقى ذلك من سواه، فالسَّارد الموضوعي كان في لحظة تلقيه السرد مسروداً له ممسرحاً، ولكن قد يكون من تلقى عنه سارداً ممسرحاً وقد يكون غير ممسرح، ولكن يبقى المسرود له سواءٌ كان السَّارد ممسرحاً أو غير ممسرح، مسروداً له ممسرحاً[2].

فعلى سبيل المثال نجد **الورثيلاني** عندما كان يحكي عن الشَّيخ محمد المغربي الطرابلسي ليتحول من موقفه كسارد ليقف موقف المسرود له الممسرح، ويستلم السَّارد الثانوي في الرحلة السَّرد، فيقول: «**قال لنا عام ثلاثة وخمسين ومائة وألف [1153هـ/ 1740م] العام الذي قبل العام الأول، لم يقبل الله من الحجاج إلاَّ سبعة، وباقي الحجاج رجع خائباً، غير أنّ السَّبعة المقبولين أقبلوا على الله بالتَّوجه بالطلب والسُّؤال والمغفرة لأهل الموسم إلى دخول رمضان، فأول ليلة منه تقبل الله منهم، وغفر لأهل الموسم**» [3]، عندما كان (الشَّيخ محمد المغربي) السَّارد الثانوي في الرّحلة والابتدائي في القصة (الحجاج) يسردها، كان الرَّحالة في تلك الأثناء مسروداً له ممسرحاً، والسَّارد (الشَّيخ محمد المغربي) حكى له هذه القصة التي لم يعش أحداثها الرَّحالة وكان سارداً ممسرحاً.

1) ـ أحمد العزي صغير: المروي له ودوره في التلقي والتأويل (قراءة في نصوص روائية معاصرة)، جامعة الحديدة اليمن، 12 ماي 2012، https//:m.facebook.com.

2) ـ أحمد العزي صغير: المروي له ودوره في التلقي والتأويل قراءة في نصوص روائية معاصرة.

3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 41.

فالسَّارد الرَّئيس الذي يمسك بزمام السَّرد من مستهل الرّحلة إلى نهايتها، يتنحى عن موقعه، ويسلم زمام السَّرد (الشَّيخ محمد المغربي)، ويقف هو موقف المسرود له الممسرح، ليكون كلّ من السَّارد والمسرود له ممسرحاً.

وفي الرّحلة أيضاً نجد أنّ السَّارد/ الرَّحالة كان ينطلق في بعض المواقف السَّردية من وجهة نظر موضوعية، حيث كان يسرد أحداثاً تلقاها من مصادر متعددة، فعندما كان يروي عن (الولي سيدي عبد الحق الفجيجي) كان يروي وفق ما سمعه من أحد الطلبة «**سمعت عن بعض طلبة "بجاية" بأنْ قال: الشَّيخ عبد الحقّ هذا هو الذي قتله السُّلطان ظلماً وعدواناً، وسببُ ذلك أنَّ بعض الزّنادقة كان يتعبّد في الظّاهر في الموضع المُسمّى "المضيق"، فلمَّا اشتهر أمره صار النّاس يأتونه أفواجاً، فَمُكِرَ به - والعياذ بالله تعالى- فكان من أمره أنَّ كلّ امرأة لا تلد في بجاية تأتيه فيختلي بها فتلَدُ طفلا، فَعَلَا صيته بهذا الأمر(...) وكانت امرأة السُّلطان فَعَلَ بها ما فَعَلَ قبل بالنّساء، ولَمّا رجع الشَّيخ عبد الحق نادى بالويل على الرَّجُل، وقال: إنَّه زنديق، ونبه على فِعْله الخسيس، وافتضح أمرُ الرَّجل، وأصابت السُّلطان المعرّةُ العظيمة، فطلب سيدي عبد الحَقّ على مَقَالَته، فقتله وجعل رأسه عند باب المدينة**»[1]، فـ (الرَّحالة /السَّارد) يصرح أنَّ مصدر الأحداث التي تسرد هو أحد الطلبة، وهذا الطالب الذي سمع عنه هذه القصة سارد غير ممسرح في قصته، لكن الرَّحالة أثناء تلقيه هذه لأحداث القصة كان مسروداً له ممسرحاً.

الملاحظ على موقع المسرود له الممسرح، أنَّه كان له حضور على مسرح الأحداث، فهو مسرود له مشارك، يتموضع في الشَّخصية الرَّئيسة للرّحلة، التي تتحول من سارد إلى مسرود له وفق ما يقتضيه الموقف السَّردي، ليكون طرفا العملية السَّردية السَّارد والمسرود له حاضرين على مسرح الأحداث.

1) – الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 30.

ب. المسرود لـه غير الممسرح:

هـو المسـرود لـه الـرَّئيس الواقـع خـارج الحكايـة الغائـب عـن أحـداثها [1]، فهـو خفـي غيـر متعـين فـي السَّـرد، ولا تمـنح لـه القصـة هُويـة محـددة، إذْ لا يمتلـك أيـة ملامـح تحـدده، أو صـفات خاصـة بـه تـدل علـى وجـوده داخـل الخطـاب السَّـرد، أو مشـاركة فـي الأحـداث، لأنَّـه كـائنٌ متخيـلٌ فـي ذهـن السَّـارد، ولـيس لـه مـن الخاصـيات التَّخييليـة التـي ترسـم صـورته كالشَّخصـية السَّـردية [2]، غيـر افتـراض تواجـده، إمَّـا ظهـور صـوت المسـرود لـه فـي الخطـاب السَّـردي، وإمَّـا بمـا توجـه بـه السَّـارد إليـه مـن الخطـاب بشـكل صـريح عنـد سـرد للحكايـة، و يظهـر تواصـل السَّـارد فـي شـكلين مـن أشـكال التَّوجـه نحـو المسـرود لـه: مـن خـلال الضـمائر الشَّخصـية الظـاهرة أو المسـتترة (أنـت...) والاسـم الموصـوف (الأخ، الانسـان، الحـاج) ويحتـل هـذا المسـرود لـه موضـع المـتعلم الـذي يسـتوجب عليـه مـن خـلال سـارد ذي خبـرة ودرايـة استكشـاف ومعرفـة مواضـع وأمـاكن ومعلومـات وردت فـي السَّـرد [3]؛ يمكـن أن نقـف علـى هـذين الشَّـكلين مـن ظهـور المسرود له غير الممسرح في الخطاب السَّردي الرَّحلي، على النحو الأتي:

❖ **ظهور صوت المسرود له:**

يطـرح بوضـوح الحـوار بـين السَّـارد والمسـرود لـه الظهـور الصَّـريح لهـذا الأخيـر فـي السَّـرد، وتعبيـراً عـن هـذا الحضـور يحـاول السَّـارد أن يعلـن عنـه مـن خـلال إظهـار صـوته الـذي يتخلـل الخطـاب السَّـردي، إمـا مستفسـراً أو متسـائلاً لغـرض إيضـاح فكـرة مـا أو تفسـيرها، فعلـى سـبيل المثـال عنـدما كـان (السَّـارد/ الرَّحالـة) يتحـدث عـن اسـتقبال أهـل طـرابلس وخاصـتهم للرَّكـب الجزائـري، وقـد كـان قائـد "عمـورة" فـي زنـزور - الـذي تربطـه بالرَّحالـة مـودة كبيـرة- مـن بـين المسـتقبلين، فيقـول عنـه «**وأمَّـا قائـد عمـورة فقـد خـرج عـن أجناسـه مـن العمـال، إذ بنـى مدرسـة عظيمـة متقنـة...جزاه الله**

---

1) ـ إيمان صابر سيد صديق: الراوي والمروي له في رواية عادل كمال، مركز جيل البحث العلمي،13 أفريل 2014م، https://jilrc.com

2) ـ محمد حليم حسن: (المروي له في قصص جاسم عاصي ورواياته)، ع 18، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، كانون أول 2014م، ص 178.

3) ـ ينظر: بشار سامي يشوع: "الراوي والمروي له والهوية المزدوجة"، الراوي والمروي له والقارئ، تر بشار سامي يشوع، (دار الرافدين، بيروت، ط 1، 2018م)، ص 73.

عنا خيرا وتقبل منه»[1]، لنسمع صوت المسرود له يتخلل العملية السَّردية في هيئة سؤال مباشر، مستنكراً على لسان السَّارد: «**إنْ قلت: ما هذا الثَّناء الذي تثني على صاحبك قائد "عمورة"، فإنَّ هذا الرَّجل لو كان يبني من ملكه، وهو من جملة من يبني المساجد والطّرق والقناطر لكان الثَّناء عليه في محله، والذي يبني به ليس ملكاً له شرعاً**» [2]، ليأتي بعده رد السَّارد/ الرَّحالة بالقول: «**{قلت}: الغالب (...) وهو تعذر الرَّد (للمال) لجهل أربابه، وحينئذ يجب شرعاً صرفه في مصالح المسلمين، فيكون فعل هذا القائد ممدوحا شرعاً، نعم بقي له أمر لا بد من فعله، وهو أن ينكف عن الأخذ بهذا الوجه من المسلمين**» [3]، وكأنَّ ثمَّة حواراً ضمنياً بين المسرود له والسَّارد، يسأل فيه الأول، ليجيب الثاني عن هذا السُّؤال الضمني.

يتداعى الحوار بين السَّارد والمسرود له ويتناسل، فيقول: «**{فإن قلت}: هل يجوز لمن كان في تلك المدرسة من عالم أو متعلم الأخذ من تلك المدرسة والانتفاع بما فيها، {قلت}: الحق الجواز من غير شكٍ، إذْ قال صاحب المدخل: إنَّ المدرسةَ إذا بنيت من مال حرامٍ، وجهلت أربابه فيجوز للعالم أن يأخذ منها بوجه العلم، أنظره فأنت ترى أيّها المخاطب أنَّ نصه هذا إنَّما هو في عين النَّازلة، فهو طوق في عنق**» [4].

نلاحظ هنا أنَّه نصياً، لم يطرح المسرود له مثل هذا التساؤلات التي تخللت الخطاب السردي وأخذ مكانه في السّياق، بسبب أنَّ الحوار (التَّواصل) الذي نتكلم عنه مُتخيل فقط؛ ليكون الهدف الحقيقي من ورائها هو إثارة اهتمام القارئ وجذب انتباهه [5]، لكون جمهور القراء يمتلكون من الفضول ما يدفعهم لطرح مثل هذه التَّساؤلات ومعرفة الإجابة عنها، هذا فضلاً عن تأكيد (السَّارد/الرَّحالة) حضور المسرود له في الخطاب.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 150.
2) ـ نفسه، ص 152.
3) ـ نفسه، ص 152.
4) ـ نفسه، ص 153.
5) ـ ينظر: إيمان صابر سيد صديق: الراوي والمروي له في روايات عادل كامل.https://jilrc.com

فنجد الخطاب السَّردي يتعامل بهذه الوسيلة بشكل واسع في ثنايا الرّحلة، فعلى سبيل المثال أيضاً في معرض ذكره أسباب تأليف الرّحلة، يقول (الرَّحالة/السَّارد): **«فإن قلت: كتاب واحد يكفي، قلت لأنَّ الزمان والمكان يتغير، فاحتيج إلى التَّعدد... فكلّ ذلك فيه إعانة للحاج»** [1]، وكأن السَّارد ها هنا يقصد من وراء إشراك المسرود له، هو التَّأكيد على وجهة نظره مع وضع القارئ الضمني في الصُّورة.

هكذا يتجلى حضور المسرود له غير الممسرح من خلال صوته المفاجئ الذي يقتحم بنية الخطاب لأغراض فنية، حيث أسهمت العناية بالمسرود له غير الممسرح في تأسيس الإطار السَّردي للخطاب، وعملت على فاعلية الحبكة القصصية في بنية الرّحلة، إذْ إنَّ علو صوت المسرود له المتضمن وجهة نظر أخرى تناقض وجهة نظر السَّارد أو تحاورها أعطى نوعاً من الصّراع الفكري في الرّحلة؛ بيد أنَّ (الرَّحالة/السَّارد) لا يعتمد على هذه الوسيلة فقط في تعامله مع المسرود له غير الممسرح، بل يعتمد وسيلة أخرى.

❖ **مخاطبة المسرود له بما يدل عليه:**

يعتمد الخطاب السَّردي في الرّحلة في بعض المواقف السَّردية على استعمال بعض الضمائر التي تكشف عن خطابها المباشر للمسرود له، كأنما هو حاضر يتلقى السَّرد بشكل مباشر، فنجد الخطاب السَّردي في الرّحلة يستحضر المسرود له غير الممسرح في كثير من المواقف السَّردية، بل إنَّ (الرَّحالة/السَّارد) يتجه منذ الاستهلال بخطاب مباشر للمسرود له غير الممسرح فيقول له: **«اِعلم أيُّها الأخ، لمَّا أراد الله المشي منّا إلى الحج»** [2]، فالخطاب هنا موجه إلى المسرود له، ليكون بذلك حاضراً في ذهن (الرَّحالة/السَّارد) بصورة دائمة طول الرّحلة، هذا التَّوجه المباشر بالخطاب يعد إحدى الوسائل لتجليات المسرود له غير الممسرح في بنية خطاب الرحلة.

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 163.
2) ـ نفسه، ص 11

وهذ الخطاب السَّردي قد يستعمل بعض الضمائر التي تكشفُ عن مخاطبة المسرود له بصورة مباشرة، ومثال ذلك استخدام (السَّارد/الرَّحالة) ضمير المخاطب الذي يتوجه به إلى المسرود له غير الممسرح في قوله: «**فصاحبُ الرّحلة حين يخبرك بأنَّه فعل كذا، كأنَّه قال لك: السُّنة في هذه الطريق فعله، إذ التَّوكل في القلب وهو لا ينافي الأسباب بل فعله يقويه ويؤيده**» [1]، فـ**(كاف)** الخطاب في قوله:**(يخبرك، لك)** دليل على توجيه الخطاب الى مسرود له غير ظاهر، وكذلك عندما يقول: «**فأنت ترى أيُّها المخاطب أنَّ هذه دسيسة دسَّها اللعينُ، ولم يتفطنوا لما هم عليه من الكفر**» [2] أو قوله: «**فلا تغترّ أيُّها الحاج بحلاوة اللسان من الشَّيطان، ولا بإظهار المودّة، ولا بكثرة الإيمان، فإنهم ذئاب في ثياب، وكذا إن أَتَوا لك بهدية فلا تقبلها منهم، فإنَّهم يريدون التّحيُّل بالوصول بها إلى مالك**»[3]، من الواضح استخدام (الرَّحالة/السَّارد) لضمائر المخاطب في قوله: **(أنت، لك، مالك)** ليؤكدَ على وجوده وتلازمه مع المسرود له ملازمة الظل لصاحبه، فهما معاً ينقلان إلينا النَّص، كما لا تنعدم الإشارات النَّصية الصَّريحة التي تدل على وجوده المسرود له غير الممسرح في الرّحلة الورثيلانية، كقوله في المثالين السابقين: **(أيُّها المخاطب)** و**(أيُّها الحاج)**، ومثل هذين النَّموذجين ما يتناثر في عدة مقاطع في خطاب الرّحلة.

ويرتبط هذا المسرود له في رحلة **الورثيلاني**، أول شيء بالدافع الأساسي للرّحلة، وهو أداء مناسك الحج، وبالطابع التَّعليمي الذي أملاه هذا الدافع، ظل هذا المسرود له حاضراً في وعي (الرَّحالة/السَّارد) على امتداد الرّحلة مخاطباً إياه بشكل مباشرٍ، وتتجلى مواقع هذا الحضور عند:

- **عند التَّنبيه على صحة القول:**

لقد كان الرَّحالة كسارد يتحرى الصَّدق والأمانة فيما يقدمه، وقد سبق الإشارة إلى ذلك، فكان كثير ما يشير إلى هذا الموقف حينما يتوجه بالحديث مع المسرود له،

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 11
2) ـ نفسه، ص 137.
3) ـ نفسه، ص 301.

على سبيل المثال قوله: «**فاعلمْ هذا ـ رحمك الله ـ واشدد يدك عليه، حاصله: الحق يدور مع أهل المحفل، فإن كان الغالب فيهم أهل العلم والعمل والجذب الصَّحيح والصّدق الصّريح فقاصدهم يفوز من غير شك، لأنَّهم العبرة**» [1]، أو قوله أيضاً: «**فصاحبُ الرّحلة حين يخبرك بأنَّه فعل كذا كأنه قال لك: السّنة في هذه الطريق فعله، إذ التَّوكل في القلب وهو لا ينافي الأسباب بل فعله يقويه ويؤيده**» [2]، ويبدو جلياً من خلال هذين المقطعين ظهور المسرود له من خلال توجه السَّارد مخاطباً إياه، وهدفه من وراء الخطاب هو التأكيد على صحة القول وصدقه.

- **ترتيب المناسك:**

التَّجلي الثاني يظهر من خلال ترتيب المناسك، كقول السَّارد مثلاً وهو في "مكة المكرمة": «**ثم سرنا آمين المصلى بـ"المزدلفة"، فبلغناها بعد مغيب الشّفق، فجمعنا بين العشاءين، ونزلنا فبتنا فيها، فتفرق للقط الجمار هنالك من أراده مِنَ النَّاس، فلو شاهدت يا هذا تلك الحال وما عليه النّاس في "جبل عرفات"، ووقوفهم بتلك العرصات، لهالك ذلك المشهد الذي هال أمره وعجز عن وصفه زيد البيان وعمره**» [3]، والسَّارد في هذا المقطع يلعب دور الدَّليل للرَّاغب في أداء مناسك الحج والمتمثل في المسرود له وتقديمه له معرفة تامة بالمناسك.

- **وصف الطريق:**

لقد تولى الرَّحالة مَهمَة تبسيط الطريق وتوضيحها على امتداد مسار الرّحلة، وهي في ذلك تقترب من كتب المسالك والممالك، وقد حاول الورثيلاني رسم هذه الطريق نحو مكة لغيره من الراغبين في زيارتها، هذه الطريق التي كانت ملأى بالعوائق، ولم يكن ليبخل بمعلوماته التي تحصلت له من التَّجربة الحيَّة، ويصرح بهذا مخاطباً المسرود له، قائلاً: «**فاِعلمْ هذا، فإنَّ فيه فضلاً عظيماً، وأيضا النَّفس إذا علمت الطريق اشتاقت إلى الذهاب إلى بيت الله الحرام، وأيضاً معرفة الاستطاعة وعدمها إنَّما تكون ببيان المراحل، وصعب الأماكن وسهلها، وبيان**

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 495.
2) ـ نفسه، ص 11
3) ـ نفسه، ص 407.

المسافة بين المعاطن، وبيان العذب منها وغيره ليعرف من يتزود من الماء وقدر ما يعرفه من الأحمال، وكل ذلك يحتاج فيه إلى تصوير الطريق بالتَّفصيل ليعرف الإنسان حصول الاستطاعة لنفسه» [1].

وهنا تتلاشى المسافة بينه وبين المسرود له، إنَّه يقيم حواراً معه دون رد، وبذلك يقدم (الرَّحالة/السَّارد) سرداً تعليمياً ومعرفياً وتواصلياً بغيةَ نشر معرفة لوضع معين، ويحتل هو في السَّرد موضع المُعلم بينما المسرود له في موضع المُتَعلِم.

يمكن أن نستشفَ من النُّصوص السَّابقة، أنَّ المسرود له هو الرَّاغب في الحج والذي قدم له الرَّحالة دليلاً بمناسك الطرق وآداب المناسك، يؤدي هذا التَّواصل إلى مسرحة السَّرد من خلال التَّفاعل بين المسرود له والسَّارد، فيؤدي هذا إلى التَّماهي بين القارئ الضمني والمسرود له [2] الذي يتوجه إليه (الرحالة/ السارد) بالخطاب فالسَّارد يريد أن يُعلّم المسرود له، ومن ثم يُعلّم القارئ الضمني الذي يتماهى مع هذا المسرود له الخفي، في كيفية التَّعامل مع أوضاع الطريق ومشاقها فيتخذ (السَّارد/ الرَّحالة) من تجربته وسيطاً لحثّ القارئ الضمني على التَّعلم وأخذ الحيطة والحذر وعدم مخالفة النَّصائح، لأنَّه بمقدار قبول النَّصائح وتطبيقها يكون نجاحه في أداء فريضة الحج.

وهذا الدَّور الذي يضطلع به المسرود له ها هنا، هو الوظيفة الأساسية له «حيث يتوسط بين الرَّاوي والقراء» [3]، فهو يحتل موقعاً بينهما فالسَّارد /الرَّحالة يسعى من وراء هذا التَّوسط لإخراج نصه إلى غيره، وما المسرود له إلاَّ الأداة التي ينقل عبرها سرده ومحكيه لـ (القارئ الضمني/الرَّاغب في الحج الواقعي).

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 163.

2) ـ ينظر: بشار سامي يشوع: "الراوي والمروي له والهوية المزدوجة"، الراوي والمروي له والقارئ، تر بشار سامي يشوع، (دار الرافدين، بيروت، ط 1، 2018م)، ص 73.

3) ـ أيمن بكر: السرد في مقامات الهمذاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د ط، 1998، ص 49.

خُلاصة القول:

▪ إنَّ كـلَّ نـصٍ لا بـدَّ أن يتوجـه إلـى مسـرود لـه، ظـاهراً كـان أم مضـمراً، وإنَّ هـذا المسـرود لـه لـيس هـو فـي كـل حـال القـارئ الحقيقـي للـنص، أو القـارئ الضـمني الـذي يعمل المؤلف يشكل له نموذجاً مفترضاً مسبقاً.

▪ نجـد أنَّ المسـرود لـه فـي رحلـة **الـورثيلاني** إمَّـا مسـروداً لـه غيـر ممسـرح، وهـو المسـرود لـه الـرَّئيس الـذي يحتـل مسـتوى نفسـه موقـع السَّـارد، وهـو موقـع خـارجي، غائـب عـن الحكايـة، مـع وجـود إشـارات نصـية تـدل علـى وجـوده داخـل الحكايـة مسـتمعاً ومراقبـاً ومحـاوراً فـي بعـض الأحيـان، مثلمـا رأينـا تسـاؤلاته أحيانـاً وتعجبـه واندهاشـه ممـا يرويـه **الـورثيلاني** أحيانـا أخـرى، وإمَّـا مسـروداً لـه ممسـرحاً، وهـو شخصـية السَّارد الرَّئيس، حينما تتحول إلى مسرود له مستمع في الرّحلة.

▪ يتوجـه (الرَّحالة/السَّـارد) إلـى المسـرود لـه إمـا بغـرض التَّنبيـه لصـحة أقوالـه، أو بغـرض ترتيـب مناسـك الحـج لـه، أو وصـف الطريـق لـه وتحديـد معالمهـا، بسـرد تعليمـي معرفي تواصلي وذلك نظراً لارتباط رحلته بالدَّافع الدّيني الحج، وبالطابع التَّعليمي.

▪ إنَّ نظـرة إلـى العلاقـات التـي تـربط بـين المسـرود والسَّـارد والمسـرود لـه تكشـف، أنَّ كـلَّ مكـون، لا تتحـدد أهميتـه بذاتـه، إنَّمـا بعلاقتـه بـالمكونين الآخـرين، أنَّ كـلَّ مكـون، سـيفتقر إلـى دور فـي البنيـة السَّـردية، إن لـم ينـدرج فـي علاقـة عضـوية وحيويـة معهمـا، كمـا أنَّ غيـاب مكـون مـا أو ضـموره، لا يُخـلُّ بـأمر الإرسـال والابـلاغ والتَّلقـي وحسـب، بـل يُقـوض البنيـة السَّـردية للخطـاب، لـذلك فالتَّضـافر بـين تلـك المكونات، ضرورة ملزمة في خطاب الرّحلة وفي أي خطاب سردي.

هكـذا، نخلـص إلـى أنَّ خطـاب الرّحلـة متميـز بمواصـفاته وخصائصـه الذاتيـة المسـتقلة وبعلاقاتـه التـي يقيمهـا مـع غيـره مـن الخطابـات التـي تشـترك معـه فـي العديـد مـن السّـمات وتتقـارب معـه فـي اسـتيعاب العديـد مـن البنيـات، وتـدخل معـه، أيضـاً فـي الكثير من العلاقات العامة.

وإذا كانـت الرّحلـة حـديثاً عـن أحـداث سـفر عاشـها الرَّحالـة، فـإنَّ هـذه الأحـداث لا تقـع خـارج الـزَّمن، بـل إنَّ تتابعهـا خاضـع لخطيـة الـزَّمن الـذي يشـكل السَّـفر البنيـة

الناظمة له ولها، وهكذا يمكن أنْ يحكى السَّفر كتتابع زمني، يبدأ بتاريخ الخروج محدداً اليوم والشهر والسَّنة، بل والسَّاعة أحياناً، وتبدأ مع بداية الأحداث بحدث التَّوديع والخروج وينتهي الزَّمن بيوم الرُّجوع وشهره وسنته، وتنتهي الأحداث بحدث لقاء الأهل والأحباب، فالزَّمن هنا زمن خطي يفترض تتابع الأحداث، بينما السَّرد هنا دائري يبدأ من نقطة هي المنطلق، ثم يسيرُ متقدما ليصل إلى نقطة الوصول، وهي هدف الرّحلة، ثم يعود أدراجَه ليرجع إلى نقطة البداية، لكن هل يعني هذا بالضرورة التَّطابق بين زمن الفعلي والزَّمن السَّردي في الرّحلة؟ ألا يتداخل زمنُ السَّرد في الرحلة بأزمنة أخرى غير الزَّمن الفعلي، متعلقة أحداث استدعاها بالذاكرة أو أدرجها من مصنفات سابقة؟

الفصل الثالث: بنيات السَّرد في الرّحلة

تمهيد.

أولاً: بنية الزَّمان في الرّحلة.

1) ـ الزَّمن الطبيعي (التَّزامن).
2) ـ المفارقة السَّردية (التّشظي الزَّمني).
3) ـ السُّرعة.

ثانياً: بنية الفضاء في الرّحلة.

1) ـ إشكالية المصطلح (الفضاء/ المكان).
2) ـ تأسيس فضاء الرّحلة.
3) ـ فضاء الرّحلة بين (الإقامة/الانتقال)

تمهيد:

تـراهن الرّحلـة إلـى المشـرق لأداء مناسـك العمـرة والحـج علـى عنصـري الزَّمـان والمكـان بدرجـة كبيـرة، فهـي تتـويجٌ لسـفرٍ ضـمن زمـان ومكـان معلـومين، فتلـك الفريضـة لا تـتمُّ إلا فـي أيـام مـن شـهر معلـوم وهـو ذو الحجـة ومكـان معلـوم أيضـاً هـو مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وعليـه، فإنَّـه لا يمكـن فصـل فعـل الرّحلـة عـن زمانهـا ومكانهـا، حيـث أنَّهمـا يرتبطـان بـه ارتباطـا شـديداً، لكونهمـا يُشـكلان الإطـارَ الخـارجي للرّحلـة هـذا مـن جهـة، كمـا أنَّـه مـن جهـةٍ ثانيـةٍ لا يمكـن الفصـلُ بينهمـا وبـين الإنسـان، لكونهمـا انـتقلا مـن صـفتهما المجـردة العامـة ليصـبحا جـزءاً مـن التَّجربـة الذاتيـة للرَّحالـة، فالزَّمـان عنصـر هـام يـربط الأحـداث التـي تقـع للرّحالـة فـي الماضـي والحاضـر والمسـتقبل، وأمَّـا المكـان فيشـكل إطـاراً لهـذه الأحـداث منـذ خـروج الرَّحالـة مـن بلـده إلـى البلاد المـزار، ثـم العـودة من جديد إلى بلده.

إذن، فالزَّمـان والمكـان يشـكلان معـاً فضـاء الرحلـة، وتكمـن خصوصـية هـذا الفضـاء فـي الخطـاب الرَّحلـي كونـه فضـاءً دائريـاً منغلقـاً، وهـذا مـن منطلـق كـون الرّحلـة «نصـاً سـردياً يتحقـق فـي زمـن، وينطلـقُ معـه مـن مكـان الخـروج لتنغلـق الـدَّائرة فـي ذات المكـان، عنـد الرُّجـوع، وبـين زمـن بدايـة الرّحلـة، وزمـن نهايتهـا، ينتقـل الرَّحالـة مـن مكـان إلـى آخـر، حيـث يمتـد فعـل القـصّ وسـرد المشـاهدات والوقـائع الاجتماعيـة والأحـداث السَّياسـية إلـى جانـب مراحـل التَّكـون التـي مـرَّ بهـا الرَّحالـة لـتملأ بعـد ذلـك الأحـداث المـؤثرات المكانيـة والزَّمانيـة مراحـل الرّحلـة التـي قطعهـا الرَّحالـة بـين مكـان الخروج ومكان الرُّجوع» [1].

وفـي هـذا الصَّـدد، فـإنَّ تشـكل بنيـة الـنَّص السَّـردي الرَّحلـي تـرتبط ارتباطـاً وثيقـاً بمعالجـة عنصـري الزَّمـان والمكـان والرّحلـة الورثيلانيـة هنـا لا تحيـد عـن هـذا الطّـرح

---

1) ـ نوال عبد الرحمن الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية المغربية (حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 1438 هـ - 2008م، ص 299.

الـذي يحتـل الفضـاء الزَّمكـاني مكانـةً هامـةً ومركزيـةً فـي بنـاء الرّحلـة، وإنَّنـا نسـعى هنـا في هذا الفصل لإبراز خصائصه الفنية والجمالية.

ولا بـدَّ مـن الإشـارة هنـا إلـى أنَّ الحقيقـة التـي لا يجـب علينـا تجاهلهـا أثنـاء تعاملنـا مـع الرّحلـة هـي أنَّـه تعامـل مـع نـصٍ أدبـيٍ خـاصٍ فـي أسلوبه ولغتـه وبنائـه الفنـي، يسـتدعي بالضـرورة مقاربـة تحليليـة خاصـة، يـتحكم فيهـا نـوع الـنَّص وطبيعـة مادتـه، وكـي لا نقـع فـي فـخ المقارنـة بـين الرّحلـة وبـين الأنـواع السَّـردية الحديثـة الأخـرى، ونحـن نعلـم أنَّ النُّقـاد قـد وضـعوا لهـذه الأخيـرة قـوانين تحكمهـا، ومقومـات تقـوم عليهـا، إذ لـيس مـن المنطـق أن نستنسـخ نفـس الأدوات الإجرائيـة المطبقـة علـى الرُّوايـة الحديثـة مـثلاً ونقـوم بإسـقاطها بحـذافيرها علـى الرّحلـة، فلـيس مـن المعقـول أن تتـوفر علـى عناصـر التَّحليـل نفسـها، وبـالقيم الفنيـة والجماليـة ذاتهـا، لكـن هـذا لا يمنعنـا مـن الاسـتفادة ممـا توصـل إليـه التَّحليـل السَّـردي للنصـوص، بمـا أنَّ الرّحلـة تبقـى إنتاجـاً سـردياً وتحمل بعض ملامح معماريته.

أولاً: بنية الزّمان في الرحلة:

إنَّ لكـل نـوع أدبـي سـردي طبيعـة خاصـة تفـرض عليـه تعـاملاً معينـاً مـع الـزَّمن، ولتحليـل هـذه البنيـة الزَّمنيـة داخـل العمـل السَّـردي يجـب «الوقـوف مـا أمكـن علـى الكيفيـات التـي يعـرض بهـا السَّـرد انتظامهـا داخـل مجرياتهـا» [1]، باعتبـار الـزَّمن هـو محور البنية السَّردية وجوهر تشكلها.

والرّحلـة باعتبارهـا نوعـاً مـن القـص أو الحكـي، فهـي مـن بـين هـذه الأعمـال الأدبيـة التـي تتفاعـل بحساسـية كبيـرة مـع الـزَّمن وتحولاتـه، فـإذا غـاب الـزَّمن غـاب الحكـي، وإذا حضـر الـزَّمن ارتبطـت البنيـة النَّصـية بسـياقها الزَّمنـي الـذي يفـرزه العمـل الأدبـي، إنَّ الرّحلـة نـصٌ مفتـوحٌ وحـر، لهـا نمطهـا الخـاص فـي بنـاء الـزَّمن الـذي يكشـف عـن البنيـة النَّصـية والتّقنيـات المسـتخدمة فيـه، فشـكل الـنَّص السَّـردي يـرتبط «ارتباطـاً وثيقـاً بمعالجـة عنصـر الـزَّمن، فعلاقـة الـزَّمن متغيـرة وغيـر ثابتـة فـي علاقاتهـا

1) ـ عبد الجليل مرتاض: البنية الزمنية في القص الروائي، دار المنشورات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 34.

بالموضوع السَّردي، فحركة الزَّمن مرهونةٌ بحركة الرَّحالة الذي يحرك بدوره الأحداث والمشاهد والتَّصورات»[1].

ولكن قبل الشُّروع في دراسة البنية الزَّمنية للرّحلة من الجدير بالذكر الإشارة إلى أنَّ النُّقاد ومنظري الخطاب يرون ضرورة التَّمييز بين مصطلحين أساسيين: (القصة/الخطاب)، ونعني بالمصطلح الأول: الأحداث في شكلها الأولي قبل عملية التخطيب، ونعني بالمصطلح الثاني: البنية الزَّمنية التي تمَّ من خلالها تخطيب الحكاية الأولى (القصة) زمن السرد.

ولإدراك الفرق بين المصطلحين لابدَّ من دراسة ترتيب الأحداث في الخطاب، ثم مقارنته مع ترتيبها في القصة؛ إنَّ القارئ (الضمني/الحقيقي) لا يمكنه أن يدرك أحداث القصة إلاَّ من خلال الخطاب لكونه الجزء الملموس من النَّص، ولتقريب الصورة أكثر فقد شبهه أحد الباحثين بالجزء الظاهر من جبل الجليد، أمَّا القصة فتمثل ما خفي منه، فنحن نستدل على وجود الجزء الكامن من الجبل بقمته الظاهرة فوق سطح الماء، فالكاتب (الرَّحالة مثلاً) لو حرص على ذكر كافة تفاصيل قصة رحلته وجزئياتها لما استوعبته عشرات الألاف من الصَّفحات، لكنه يكتفي بذكر الأحداث الفعالة لدفع تنامي السَّرد، أمَّا الأحداث العادية البسيطة التي تكاد لا تخلو من أي قصة واقعية كانت أو متخيلة، يعلمها القارئ بالمنطق، فتقتضي الضرورة اهمالها وعدم ذكرها.

ويرجع الفضل في التَّمييز بين الحكاية والخطاب للشكلانيين الرُّوس، إذ يعد **بوريس توماتشفسكي (Boris Tomasshevsky)** أول من أطلق على الحكاية **"المتن الحكائي"**، ويقصد به مجموعة الأحداث المتصلة فيما بينها، التي يتم إخبارنا بها من خلال العمل السَّردي بينما أطلق على الخطاب **"المبنى الحكائي"**، وهو الذي يتكون من الأحداث نفسها، لكن مع مراعاة نظام ظهورها في العمل السَّردي، ويمكن توضيح ذلك بالعبارة التالية: «إنَّ المتن الحكائي هو المتعلق بالقصة، كما يُفترضُ أنَّها جرت في الواقع، والمبنى الحكائي هو

---

1) ـ نعيمة منصور: جماليات الخطاب في رحلة ابن بطوطة (دراسة تحليلية تطبيقية)، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة وهران السانيا، 2010-2011، ص 82.

القصـــة نفســـها، ولكن بالطريقة التي تُعرضُ علينا على المســـتوى الفني، ذلك أنَّ القاص أو الرّوائي ليس من الضـروري أن يَتقيد بالتَّرتيب الزَّمني والحدثي للقصـة كما جرت في الواقع (أو كما يُفترض أنَّها جرت في الواقع)، فهو يعتمدُ إلى التَّقديم والتَّأخير، والتَّلاعب بالمشـاهد، وهذا ما يُسمى المبنى الحكائي» [1].

والملاحظ أنَّ المبنى الحكائي يكاد لا يخلو من التَّحريف أو التَّشويه الذي يحيد بالتَّسلسل الطبيعي للأحداث كما هو في المتن الحكائي (القصة)، وبالعودة إلى الواقع يمكن لعدة وقائع أن تحدث في لحظة واحدة، أمَّا في الخطاب، فإنّه من الضروري أن ترتب تلك الأحداث المتعددة وتسقط تتابعياً على خط مستقيم يعرض فيه الحدث تلو الآخر، ولن يُتاح هذا إلاَّ بعد مجموعة من عمليات الاصطفاء، وإعادة التَّرتيب وسبب ذلك ما تفرضه طبيعة الكتابة، فـ «بحكم خيطية هذا الدّال اللساني، أي بحكم التَّتابع الخيطي للحروف والكلمات والجمل» [2] لا يمكن أبداً للسارد أن يسرد عدداً من الأحداث في آن واحدٍ، فينشأ لدينا انطلاقاً من هذا زمنان، الأول **زمن القصة (Temps de récit)** و الثاني **زمن السَّرد (Tempe de narration)**.

ويعـدُّ **تزفيتـان تـودوروف** أول مـن ميّـز بـين زمـن القصـة وزمـن السَّـرد، أي «(زمـن مـا قبـل التَّخطيـب/ وزمـن مـا بعـده)، فـزمن القصـة يسـير وفـق التَّتـابع المتسلسـل للأحـداث التـي تخضـع لمنطـق السَّـببية» [3]، أمـا زمـن السَّـرد فـلا يخضـع بالضـرورة لهـذا التَّتـابع الزَّمنـي المنطقـي، وإنَّمـا يسـير «وفـق منظـور خطـابي متميـز، يفرضـه النَّـوع، ودور الكاتـب فـي عمليـة تخطيـب الـزَّمن، أي إعطـاء زمـن القصـة بعـداً متميـزاً وخاصـاً» [4]، بمعنـى أنَّـه يخضـع فـي الأسـاس للأحـداث الهامـة، وقـد أكـد مـا يقتضـيه مقام السَّرد من وجهة نظر الكاتب.

وقـد أتـى بعـده النَّاقـد والمنظـر **جيـرار جنيـت** ليؤكـد علـى هـذه الثنائيـة الزَّمنيـة للحكـي التـي جـاء بهـا **تزفيتـان تـودوروف**، مشـيراً إليهـا بـ (زمـن الـدَّال/ زمـن المـدلول) فـ «القصـة هـي المـدلول أو المضـمون السَّـردي، (أي العـالم الـذي يبتغـي الكاتـب نقلـه

---

1) ـ حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ص 21.

2) ـ يمنى العيد: تقنيات السرد الروائي (في ضوء المنهج البنيوي)، دار الفارابي، بيروت، ط3، 2010م، ص 110.

3) ـ عماد خالد: تجليات الخطاب الروائي (مقاربة في تقنيات السرد)، ص 145.

4) ـ سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي (الزمن ـ السرد ـ التبئير)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 2005، ص 89.

إلى المتلقي عن طريق اللغة)، والعنصر الأساسي منها هو التّتابع الزمني المضطرد لمجرى الأحداث، أمَّا الحكي ـ الذي يقصد به الخطاب، فهو المستوى القولي الملفوظ أو المكتوب، الذي يستخدم لاستحضار القصة أو تشييدها، وكلاهما له زمانه الخاص الذي يختلف عن الآخر» [1].

لقد أسس **جيرار جنيت** لمرحلة متطورة من التَّحليل السَّردي، حينما قسم الزمنى في كتابه **خطاب الحكاية** إلى ثلاثة مستويات هي: (النّظام، والمدة، والتواتر)

المستوى الأول: هو **التَّرتيب** (النّظام) لا يتطابق نظام ترتيب الأحداث في زمن السَّرد مع زمن الحكاية، بسبب تعددية الأبعاد في زمن الحكاية، فهو يسمح بوقوع أكثر من حدث في وقت واحدٍ، بينما زمنُ السَّرد لا يملكُ هذا التَّعدد في الأبعادِ، إنَّما يملكُ بُعداً واحداً هو بعد الكتابة على الأسطر [2].

المستوى الثاني: وهو **المدة** ويعني به السُّرعة التي يستغرقها النّص على مستوى السَّرد، وتتراوح هذه السُّرعة من مقطع لآخر، فقد تكون لحظات على مستوى القصة، يغطي استعراضها عدداً كبيراً من الصّفحات، وبين عدة أيام قد تذكر في بضعة أسطر [3].

المستو الثالث وهو **التَّواتر** (التّكرار) ويعني به أنَّ الحدث الواحد قد لا يقع مرة واحدة، بل يمكن أن يقع مرة أخرى، أو عدة مرات في النَّص الواحد، بمعنى يتكرر [4]، وهو ليس مجالنا في هذه الدّراسة.

ويفرز عدم التوازي بين زمن القصة (الحكاية) وزمن الخطاب من خلال المستويات الثلاث ـ السالفة الذكر ـ حركتين أساسيتين للسرد من منطلق التَّعامل مع الزَّمن وهما:

الحركة الأولى: تتصل هذه الحركة «بموقع السَّرد من الصَّيرورة الزَّمنية التي تتحكم في النَّص، وبنسق ترتيب الأحداث في القصة، فالأصل في المتواليات

---

1) ـ عبد الرحيم الكردي: السرد في الرواية المعاصرة (الرجل الذي فقد ظله نموذجا)، مكتبة الأدب، القاهرة، ط1، 2006م، ص 59.

2) ـ ينظر: جيرار جنيت: خطاب الحكاية، تر محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، ط 2، 1997م، ص45-46.

3) ـ نفسه، ص101-102.

4) ـ نفسه، ص 129.

الحكائيـة أنَّهـا تـأتي وفـق تسلسـل زمنـي متصـاعد يسـير بالقصـة سـيراً حثيثـاً نحـو نهايتهـا المرسـومة فـي ذهـن الكاتـب، علـى أنَّ استجابة الرّوايـة لهـذا التَّتـابع الطبيعـي فـي عـرض الأحـداث حالـةٌ افتراضـيةٌ أكثـر ممـا هـي واقعيـة، لأنَّ تلـك المتواليـات قـد تبتعـد كثيـراً أو قلـيلاً عـن المجـرى الخطـي للسـرد، فهـي تعـود إلـى الـوراء لتسـترجع أحـداثاً تكـون قـد حصـلت فـي الماضـي أو العكـس مـن ذلـك تقفـز إلـى الأمـام لتستشـرف مـا هـو آت أو متوقـع مـن الأحـداث» [1]، وفـي كلتـا الحـالتين نكـون أمـام مفارقـة زمنيـة توقـف تتـابع الحكـي المتنـامي وتفسـح المجـال أمـام نـوع مـن الـذهاب والإيـاب علـى محـور السَّـرد انطلاقاً من النّقطة التي وصلتها القصة.

أمَّـا **الحركـة الثانيـة**: تـرتبط بـوتيرة سـرد الأحـداث «مـن حيـث درجـة سـرعتها أو بطئهـا وتشـتمل علـى مظهـرين رئيسـين المظهـر الأول ويقتضـي باسـتعمال صـيغ حكائيـة تختـزل زمـن القصـة، وتلخصـه إلـى الحـد الأدنـى (التَّلخـيص/ الحـذف)، أمَّـا المظهـر الثـاني فيمثـل الحالـة المقابلـة، حيـث يجـري تعطيـل الـزَّمن القصصـي علـى حسـاب توسـيع زمـن السَّـرد ممـا يجعـل مجـرى الأحـداث يتخـذ وتيـرةً بطيئـةً، وذلـك بواسطة صيغ مثل: السَّرد المشهدي... أو بتوظيف تقنية الوقفة» [2].

ومما تقدم ذكره سنسعى إلى دراسة زمن الرّحلة وفق محاور ثلاثة هي:

1) -الزّمن الطبيعي (التّزامن):

لقـد أشـرنا فيمـا سـبق إلـى اقتـران فعـل السَّـفر بفعـل الكتابـة، وهـو شـرط وجـودي للرّحلـة، يحـرص الرَّحالـة مـن خلالـه علـى تقـديم خطابـه وفقـاً لمجـرى الـزَّمن الطبيعـي الـذي توالـت فيـه حركـة خـط السَّـير، وتعـدّ هـذه العمليـة منطقيـة باعتبـار مـا يفرضـه تـوالى وتـواتر الأحـداث عبـر سلسـلة مـن الوقـائع والأفعـال جـرت أثنـاء عمليـة السَّـفر؛ إذن فالخطـاب الرَّحلـي فـي غالـب الأحـوال يخضـع للتسلسـل البنـائي والزَّمنـي الطبيعـي، فيبـدأ بسـرد أسـباب الرحلـة وزمانهـا ثـم يتنـاول مرحلـة الانطـلاق ويسـتمر

---

1) ـ حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص119.

2) ـ نفسه، ص 119- 120.

بعدها السَّرد مُتصاعداً إلى أن ينتهي بسرد أحداث الوصول ليتحول في مرحلة القفول إلى سرد تنازلي يستمر إلى أن يصل إلى نقطة الانطلاق الأولى، وتعدّ نقطة النهاية الفعلية للرحلة [1] ولكن زمن السَّفر ليس بمعزل عمّا هو سابقٌ ولاحقٌ له، فنجده على صلة مع ما يسبق فعل الارتحال من تحضير، وما يلحقها بعد الانتهاء من التَّدوين، واعتماداً على ما سبق ذكره يمكن تقسيم الزَّمن الطبيعي في الرّحلة الورثيلانية إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي: **(زمن الحافز، زمن النَّسخ والتَّدوين، وزمن السَّفر)** وهذا الأخير ينقسم بدوره إلى أربعة أقسام فرعية هي: (زمن الانطلاق، وزمن العبور، ثم زمن الأداء، ثم زمن العودة أو الإياب)، وتتميزُ الأزمنة الرئيسة بالتَّداخل والسَّببية، فكلُ زمنٍ يؤدي إلى الآخر الحافز يستدعي السَّفر، والسَّفر يتحولُ نَصاً بالكتابة والكتابة صَيرورةٌ تَسْتَدعي النَّسخ.

أ. زمن الحافز (ما قبل الرّحلة)

زمن الحافز هو زمن ماضٍ، يسبق زمن القص في الرّحلة، وهو زمنٌ يُشيرُ إلى مراحل تكوين الرّحلة، ويتطلب تعيينه السُّؤال عن مقصدية الرَّحالة ونيته ـ إنَّما الأعمال بالنّيات ـ لقد أعمل **الورثيلاني** النّية بالسَّفر للحجاز، حينما تعاهد وأصحابه مع شيخ الرَّكب، سيدي محمد المسعود لمَّا أراد المشي إلى الحج، فيقول في ذلك: **«وإنَّ العهد مع سيدي محمّد المسعود موثوق، فعقد الجميع النّية وعزموا على الحج جزما، وكان عزمي بعزمهم غير أنَّ عزمي لم يَتَقَوَّ ذلك العَامَ، إلّا إذا ذهبوا فأذهب معهم قطعا ـإن شاء الله تعالىـ وبعد ذلك أظهرَ الجميع عزمه إلى الحجّ، وأنا أقول عزمي على عزمهم»** [2]، وممّا لا شك فيه أنَّ إعلان الرّحالة عن نيته الحج هو إعلان بالضرورة عن بداية زمن الحافز، إلا أنَّه لم يحدد تاريخاً فعلياً ودقيقاً لهذا الزَّمن، لكن من الواضح أنَّه قبيل عام (1179هـ)، يقول: «**نعم، كنّا تواعدنا معه قبل على السَّفر جميعا ـ وفّق الله الكلّ إلى صالح القول والعمل-وذلك**

---

1) ـ ينظر: عمران بن محمد الأحمد: أدبية الرحلة عند العبودي، ص 75.

2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 14.

عـام مشـينا لزيـارة النَّبـي سـيدي خالـد عليـه السَّـلام» [1]، لقـد اكتفـى الرَّحالـة بإعطـاء إشـارة زمنيـة ذات حمولـة تاريخيـة دينيـة، ويعـود هـذا مـن جِهـة لمـا يكتسـيه المكـان المُزار من قداسة، ومن جهة ثانية تشبع **الورثيلاني** بالثقافة الدينية.

مـن الواضـح أنَّ الرَّحالـة اسـتغرق هـذه المـدة الزَّمنيـة فـي الاسـتعداد للرحلـة الفعليـة نحـو الحجـاز، وذلـك مـن خـلال رحلتـين سـياحيتين داخليتـين الأولـى كانـت صـوب **"زواوة" و"دلـس"**، يقـول فـي هـذا الشَّـأن: «**نعـم، زاد عزمـي وقَوِيَـتْ همّتـي للمشـي، غيـر أنّـه عارضـني أمـرٌ أوجـب السَّـفر مـع الأخ فـي الله سـيدي أحمـد الطيّـب، إلـى ناحيـة "زواوة" و"قريـة تـدلس دلـس"**» [2]، ثـم العـودة إلـى قريتـه، ثـم الانطـلاق مـن جديـد فـي رحلـة ثانيـة باتجـاه **"واد بجايـة"**، فيقـول: «**ثـمّ بعـد ذلـك عـرض لـي أمـر أوجـب لـي السَّـفر لـ "واد بجايـة"**» [3]، وقـد زار فيهمـا مشـايخ العلمـاء وكبـار الأولياء، وترجم للعديد منهم.

وتعـدّ هاتـان الرّحلتـان بالإضـافة لمـا تؤديانـه مـن دور فـي تقويـة عزيمـة الرّحالـة وشـد همتـه، إعلانـاً لقصـديته وتثبيتـا لنيـة التوجـه إلـى الحـج وطلبـاً للمغفـرة والتَّطهـر مـن الـذنوب، ويقـول الرَّحالـة هُنـا: «**فلمّـا بلغـت البيـت حـدث لـي العـزم التّـام، نعـم أخـذنا فـي التّأهـب إلـى السَّـفر والأخـذ فـي أسـبابه، واشـتهر أمـرُ سـفرنا وبلـغ أمـرُه أطـراف نـواحي "عمالـة الجزائـر"، فقامـت لـذلك فضـلاء الخاصّـة والعامّـة، ثـم وقـع النّـداء فـي أسواق بلدنا فيمن عزم للسّفر**» [4]، ويستتبع هذا الزَّمن بزمن القصة، قصة السفر.

ب. زمن السَّفر (الانتقال)

وهـو مـا يلـي زمـن الحـافز مباشـرةً، وهـو يسـير فـي مفاصـله الكبـرى سـيراً أُفقيـاً تتابعيـاً موازيـاً للترتيـب المكـاني والزَّمنـي للقصـة، فهـو سـيرورة لـه قبـل أن يتبلـور خطيـاً فـي كتـاب الرّحلـة، ويُقسـم هـذا الـزَّمن إلـى أزمـان: زمـن الانطـلاق وزمـن العبـور

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرّحلة، ص 12.
2) ـ نفسه، ص 15.
3) ـ نفسه، ص 27.
4) ـ نفسه، ص 27.

ثـم زمـن العـودة إلـى البيـت، وغالبـاً مـا تكـون هـذه المفاصـل الكبـرى مُوثقـةً فـي كـلّ مرحلة، بمعنى محددة المكان واليوم والتَّاريخ.

❖ زمن المغادرة(الانطلاق)

إنَّ زمـن الانطـلاق هـو الإعـلان الفعلـي عـن بدايـة الحكـي، ومـيلاد عمـل أجناسـي رحلـي يقـوم علـى بنيـة السَّـفر، فـ «يـأتي ذكـره بتحديـد تـاريخ الرّحلـة بدايـةً مـن الاسـتهلال، كميثـاق يضـعه السَّـارد بينـه وبـين متلقيـه لبرمجـة إطـار الحكايـة العـام وشـده بمثبـت زمنـي خـاص يبقـى مرجعـاً للأحـداث طيلـة مسـافة الحكايـة» [1]، وقـد اعتمـد (الرَّحالة/السَّـارد) علـى هـذا حينمـا ذكـر فـي مسـتهل رحلتـه السَّـنة التـي انطلـق فيهـا إلـى الأراضـي المقدسـة، فـي شـكل خطـاب موجـه إلـى (القـارئ المفتـرض/ المسـرود لـه) إذ يقـول: «**اِعلـم أيُّهـا الأخ، لمـا أراد الله المشـي منّـا إلـى الحـج، وقـد سـبق فـي عِلـم الله أَنْ يكـون حجّنـا فـي عـام تسـعة وسـبعين ومائـة وألـف[1179هـ/1766م]، مـع إجابـةٍ وتلبيـةٍ للخليـل عليـه السَّـلام**» [2]، مـن الملاحـظ أنَّـه قـد تناسـى تحديـد تـاريخ اليـوم والشّـهر، لكنَّـه يعـود بعـد تـوالي عـدد مـن الصـفحات ليشـير إلـى يـوم خروجـه، الـذي فضـل أن يكـون يـوم الخمـيس عمـلاً بمـا تـواتر عـن الرَّسـول ﷺ واسـتحبابه للسَّـفر فـي هـذا اليـوم [3]، فيقـول: «**نعـم، خَرجنـا يـوم الخمـيس لمَـا فيـه مـن التّـيمّن والبركـة، فـي كلّ سكون وحركة، كما روي عنه ﷺ**» [4].

ولابـدَّ هنـا مـن الإشـارة إلـى أنَّـه لـم يكـن بمعـزل عمـن سـبقه مـن الرَّحالـة المغاربـة فـي تحديـد هـذا اليـوم بالـذات، بـل «يكـاد يكـون اختيـار يـوم الخمـيس موعـداً لانطـلاق الرّحلـة، مُكونـاً بنائيـاً لـنص الرّحلـة الحجازيـة، فأغلـب الرَّحالـة يختـارون هـذا اليـوم

---

1) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 545.

2) ـ الحسين بن محمد الورثيلاني: الرحلة، ص 11.

3) ـ "حدثني عبدُ الله بنُ محمدٍ حدّثنا هشام أخبرنا معمرٌ عن الزُّهري عن عبد الرحمن بن كعبَ بنَ مالكٍ عن أبيه رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج يوم الخميس في غزوة تبوكَ، وكان يُحِبُ أن يخرج يوم الخميس" ينظر: محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1324هـ/ 2003م، ص728.

4) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 95.

للسّـفر» [1]، حتـى غـدا تقليـداً شـائعاً دأبـوا عليـه، ومـن جملـة هـؤلاء نـذكر مـثلاً: **ابـن جبير** (539هـ - 614هـ) [2] و**أبا سالم العياشي** (1037هـ - 1090هـ) [3].

يتميـز زمـن الانطـلاق عمومـاً بتفعيـل نيـة العـزم علـى السَّـفر، وكانـت شـرارته الأولـى هـي توديـع الأهـل والأحبـاب، وتعـد هـذه الفتـرة الزّمنيـة مـن أصـعب الفتـرات التـي يمـرّ بهـا الرّحالـة، فهـو يعـايش تضـارباً شُـعورياً رهيبـاً، مـن خـلال مـا يعانيـه مـن آلام الفـراق، فـارق أرضـه ووطنـه، وفـراق أهلـه وأحبابـه، وفـي الوقـت نفسـه يتطلـع بالأشـواق إلـى الأمـاكن المقدسـة وملاقـاة الحبيـب المصـطفى ﷺ، لتكـون بـذلك لحظـة فارقـة ومـؤثرة فـي حيـاة الرّحالـة، فنجـده يحـرص علـى الاهتمـام بهـا اهتمامـاً شَـديداً، حينمـا نجـده يعبـر عمَّـا اختلج صـدره مـن أَحاسـيس، لمَّـا حـان أوان سـفره وسـاعة مفارقـة أهلـه وجيرانـه، فيقـول: «**أتينـا أهـل البيـت والخـدم والطلبـة والجيـران ومـن أتـى يودّعنـا، ودعـوا لنـا، ودَعَونـا لهـم، وعنـد ذلـك رفعنـا مـا يحتـاجُ الرَّفـع وانفصـلنا علـى حسـن الانفصـال، ووقـع البكـاء والصُّـراخ مـن أهـل البلـد، لِمَـا كـان مـن أنسـهم بنـا إذ اعتقـادهم مـا دمنـا معهـم لا يقـع بهـم إلّا الخيـر والبركـة، وكـل ذا بعـد التّحيّـل علـى المنـع مـن السّـفر أصـلا ورأسـا، فلمـا امتنعـت كـلّ الامتنـاع لـم يبـق إلّا الصَّـبر والتَّسـليم لله فـي حكمـه وإبرامـه وقدرتـه وإرادتـه وعلمـه، لأنَّ القلـوب قـد تعلقـت بالمصـطفى ﷺ**»[4].

ويسـتمر حدث توديع الركب في يومه الأول، ويسـتمر معه **الورثيلاني** في رصـد هذه اللحظات الأولى للسّـفر، بوصـوله إلى أول بلدة على خط سـيره، فيقول: «**ثم بقينا كذلك على التّوديع إلى أن غربت الشَّمس، بل إلى صلاة العشاء، والنّاس تقدم إلينا لتذكّرنا الانفصال،**

---

1) ـ أحمد بوغلا: الرحلة الأندلسية، ص141.

2) ـ يقول ابن جبير في رحلته وكان خروجه من غرناطة: «أول ساعة من يوم الخميس لثامن شوال المذكور بموافقة الثالث لشهر فبرير الأعجمي، وكان الاجتياز على جيان». ينظر: أبو الحسن محمد بن محمد بن جبير، رحلة بن جبير، دار القصبة، الجزائر، دط، 2001م، ص 05.

3) ـ يقول أبو سالم العياشي في رحلته: «خرجنا من بلدنا والعجلة لنا حادية وعناية الله هادية صبيحة يوم الخميس أو يوم من ربيع الثاني وتوخينا في ذلك اليوم رجاء بركة قول النبي صلى الله عليه وسلم، اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم الخميس». ينظر: عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية (1661-1663م)، مج1، تح: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي، ط1، 2006م، ص 67.

4) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 93.

والافتراق والانتقال، فحصل مبيتنا في "بني حافظ"» [1]، ويتميز هذا الزّمن بكونه قصير المدة لا يدوم إلاَّ لأيام قلائل فقط، فينتهي بانتهاء استقلال الرَّكب في المسير لوحده ورجوع أخر المودعين، فنجده يوثق هذه اللحظات بقوله: «**فخرجت وما زِلْتُ أودع، الأحبّة والمتّبع، فمشينا تلك العقبة، فوصلنا قبر كامل من النَّقَباء، ذي الهيبة والحياء، سيدي محمد بن يحيى، بخشوع وارتقاب، والدّعاء عنده مستجاب، فصلينا الظّهر عنده، طالبين رضاه وودّه، وصلّت تلك الجموع، فرجع المودّع وذهب المودوع، طالبين الأمان، وودعنا سيدي الحسين ومن معه من الإخوان، فذهبنا إلى "زمورة" فبتنا فيها ثلاث ليال، لتكميل ما خَصَّ من حالهم وحالي، ولِيلحقَ أيضاً ما بقي من التّالي، فخرجنا يوم الأحد، معتمدين على الله الصَّمد**» [2]، وبهذا تكون مدة مرحلة الانطلاق ثلاثة أيام، باعتبارها تنتهي ليلة الأحد، وإن أول أيامها يوم الخميس، لتطوى بذلك مرحلة وتبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة العبور.

❖ زمن العبور(الذهاب)

هو الزمن الرّابط بين زمن المغادرة وزمن العودة، أي الزّمن المواكب لخط سير مرحلة الذهاب، من محطة الانطلاق "بني ورثيلان" إلى محطة الوصول "مكة المكرمة"، ويُعد هذا الزَّمن بشكلٍ عامٍ هو الزَّمن المهيمن في الرّحلة الورثيلانية على مساحة الخطاب، الذي لخص فيه الرّحالة أهم الأحداث التي جرت له أثناء الطريق، والمقدرة كمسافة فعلية بحوالي ستة آلاف كيلومتر، أما مساحته الورقية فقد امتدت تقريباً حوالي (400 أربعمائة صفحة).

لم يكن توظيف **الورثيلاني** للزّمن الطبيعي خلال فترة الذهاب على نسق واحد من الدقة، فنجد الرَّحالة في بعض الأحيان يوظف الإشارة الزَّمنية الصَّريحة، وفي أغلب الأحيان يستخدم الإشارة الزَّمنية الاعتباطية؛ والمتأمل في نص الرّحلة يجد أنَّ الرَّحالة قد ذكر أربع إشارات صريحة أثناء هذه المرحلة الزمنية، ونقصد بها ذكر تاريخ اليوم والشَّهر، فضلا عن ذكر السَّنة الذي أصبح الآن معلوماً عند القارئ، وأول إشارة صريحة ذكرها، كانت في أولى محطات رحلته "بسكرة"،

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 95.
2) ـ نفسه، ص 96-97.

وذلك حينما خرج منها ودخل بلدة "سيدي عقبة" إذ يقول: «**إذ نزلنا فيها عند الظّهر أوائل رجب سنة تسع وسبعين ومائة وألف [1179هـ/1766م]**» [1]، أمّا الإشارة الثانية، فكانت حين دخل مدينة "طرابلس" المحطة الكبرى الثانية إذْ يقول: «**وصلنا في أوّل شعبان صبيحة، وسمع الإخوان بوصولنا وإتياننا، فحركهم العزم والشّوق إلى ملاقاتنا**» [2]، وجاءت الإشارة الثالثة في هذه المحطة نفسها، وذلك حينما خرج من مدينة "مسراتة" مكان تواجد مزار الشَّيخ **زروق**[3]، إذ يقول: «**ثم ظعنا منه أواخر شعبان عام التّأريخ، وهو عام تسعة وسبعين ومائة وألف 1179**» [4]، أمّا أخر إشارة ذكرها، أخر عمالة ليبيا وعلى مشارف "مصر" المحطة الكبرى الثالثة في الرحلة، فيقول في ذلك: «**وبعد ذلك ظعنّا نحو المرحلتين، فكان أوّل شوال، فصلّينا العيد بين "معطن مقرب" و"المدر"، ولَمَّا صلينا العيد ظعنَّا**» [5].

و**أول ملاحظة** على هذه الإشارات الزَّمنية الصَّريحة أنَّ الرَّحالة يعتمد التَّقويم الهجري، الذي تحضر فيه السّنة حيناً وتغيب حيناً آخر، ولعلّ غيابها يرجع إلى أنَّ الرَّحالة على وعي تام أنَّ المتلقي أصبح على علم مسبق بالسّنة التي تمَّت فيها رحلة الحج، باعتبار أنَّه أشار إليها في مستهل الرّحلة، وما حضورها إلاَّ إعادة التَّذكير بها لا غير.

أما **الملاحظة الثانية** هي: إنَّ الرَّحالة يستعمل في التَّعبير عن تاريخ اليوم بعبارات (أوائل، أواخر، أوّل)، وكأنَّه يقلل من الاهتمام بالتَّاريخ ليركز أكثر في نقل

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 131.

2) ـ نفسه، ص150.

3) ـ هو: أبو الفضل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزروق، ولد صبيحة الخميس الثاني والعشرين من محرم سنة 846هـ الموافق 7 حزيران 1442م، من قبيلة البرانس البربرية بين فاس وتازا، صاحب الشروحات المعتمدة عند المالكية، ومن أهمّ من اعتنى بجانب التّربية والسّلوك في الكتابات الإسلامية، قام بحركة تصحيحية لمسيرة التّصوف التي كانت حصيلة سنوات من التّعلم والسفر بين الحواضر العلمية في العالم الإسلامي، أقام الشيخ في مصراته عام 886هـ 1481م وقضى فيها بقية حياته، توفي في الثاني عشر من شهر صفر سنة 899هـ/1493م في خلوته وعمره أربعة وخمسين عاما. ينظر: نبيل معين عساف: من أعلام التصوف الشيخ زروق، دار الإيمان،05 ديسمبر 2015م، **https://daraleman.org**.

4) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 230.

5) ـ نفسه، ص 255.

وقائعه وأحداثه، فلو عدنا إلى التَّواريخ السَّالفة الذكر باستثناء تاريخ دخول "طرابلس" نجدها ذات ارتباط بالجانب الدّيني، فالإشارة الأولى والثالثة تعلقتا بزيارة مقامين لشخصيتين دينيتين، فالمقام الأول كان للتابعي الجليل **عقبة بن نافع،** أمّا الثاني فكان للشيخ **زروق،** أمّا الإشارة الرابعة فكانت لموعد ديني كبير ألا وهو عيد الفطر المبارك، أمّا الإشارة التاريخية لدخول "طرابلس" فتستمد قيمتها من مكانة هذه المدينة في قلب الرَّحالة، لما يلقاه من أهلها من كريم ضيافة وحسن معاملة.

أما **الملاحظة الثالثة** ومن منطلق ما تفرضه الرّحلة علينا من أن ننظر إليها على أنَّها أحداثٌ حقيقيةٌ تاريخيةٌ، وشخصياتها واقعية، فإنَّ ما تشكله الشهور (رجب، شعبان، رمضان، وشوال) من خط زمني متسلسل ومتتابع يكشف عن ايضاح لجزء كبير من صورة الطريق، والمدة الزَّمنية التي يمكن استغراقها لقطعها، وبالتالي يساعدنا هذا ولو بالتَّقريب في الكشف عن بعض التّواريخ التي لم يذكرها الرَّحالة، فعلى سبيل المثال يكون الشَّهر الذي انطلق فيه الرَّكب جمادى الثاني أو جمادى الأولى على أبعد تقدير، إذا كانت المدة الزَّمنية لسير الرَّكب من "بجاية" إلى "بسكرة" تقدر بشهر إلى شهر ونصف، أمَّا تاريخ دخوله "مصر" ووصوله "بولاق" فهو 12 أو 13 من شوال، بحكم أنّ المسافة بين "المدر" و"بولاق" عشرة أيام من خلال قوله: إنَّ المسافة من "المدر" «**إلى "الشمامة" أربعة أيام، ومنها إلى "واد الرهبان" ثلاث أيّام، ومنه إلى "أرياف مصر" أعني "كرداسة" أو "المنصورة" إذا نزلنا "كفر حمام" يومان، ومنه إلى "المنشية" على شاطئ "واد النيل"، ثم إلى "بولاق"**»[1].

أما خروج الرّحالة من "مصر" ففي أواخر شوال، بعد خروج الرَّكب المصري رفقة محمل كسوة الكعبة من البركة، بعد أن أقام فيها من اليوم الثالث والعشرين إلى اليوم السابع والعشرين، وكانت عادة بعض الأركاب الآتية من "المغرب" ومنها "الجزائري" تؤثر السَّير خلف الرَّكب المصري مباشرة، في قول:

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 261.

«وأمّا من لم يقصد الذهاب مع المصري من المغاربة، فلا يخرجون إلى اليوم السّابع والعشرين من شوال، وينزلون بـ "البركة" عند رحيل الرّكب المصري أو قبله بقليل» [1].

هذا عن الإشارات الزّمنية لتنقل الرَّحالة، أمّا عن مدة الإقامة، فإنَّه أظهر حرصاً شديداً في تحديد مدة إقامته بالأماكن التي مرَّ بها، وعلى سبيل المثال لا الحصر ما ذكره عن وصول الرَّكب إلى "أولاد رحاب"، في قوله: **«وأقمنا عندهم يومين، فاشترينا بعض الأجمال هُناك»** [2]، وأيضاً عندما وصل إلى "بسكرة" يقول: **«ما تعلّق بأحوالنا بـ"بسكرة" فإنَّنا قد بقينا فيها يومين في شراء الرّواحل، وما يختصّ من جهاز النّواقل»** [3]، وكانت أطول مدة إقامة له في مدينة "طرابلس" إذ يقول: **«فإنّا أقمنا بها ثمانية أيام أوله يوم جمعة وآخرها مثله»** [4]، وعلى العموم اتسمت فترات الإقامة بالتذبذب وعدم التَّساوي في المُدد ، فقد تطول وقد تقصر، كما أنَّها تُستغل غالباً في الاستزادة في المؤن، وبيع ما ضعف من الجمال وشراء ما يقوى منها على مشقة الطريق.

وإذا كان **الورثيلاني** قد استخدم الإشارات الصَّريحة، فإنَّه أيضا يلجأ لاستخدام الزَّمن الاعتباطي أثناء التَّقرير عن رحلته، وهذا الزَّمن يأتي استخدامه على النحو التالي:

إمَّا أن يستعمل في التَّعبير عن الزّمن الإشارة العامة، فنجده يذكر في بعض الأحيان اسم اليوم وليس تاريخه مثل: (الثلاثاء، الخميس، السبت...)، كأن يقول: **«ثم ظعنا صبيحة يوم الثلاثاء إلى أن وصلنا قصر الطير»** [5]، ويقول في موضع آخر: **«وفي الغد يوم الخميس ارتحلنا ودخلنا البلد ثانياً، لزيارة سيدي محمد بن**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 299.
2) ـ نفسه، ص 101.
3) ـ نفسه، ص 127.
4) ـ نفسه، ص 188.
5) ـ نفسه، ص 99.

علـي» [1]، وأيضـا قولـه: «**غيـر أنَّ بعـض الرَّكـب خـرج يـوم الخمـيس إلـى تـاجوراء ونحن قد تخلفنا مع بعض أفاضل أصحابنا إلى صبيحة يوم السبت**» [2].

وإلـى جانـب ذلـك نجـده فـي مواضـع أخـرى يسـتعين بفتـرات مـن اليـوم، كـأن يشـير إلـى الـزَّمن بأوقـات الصـلاة مثل:(العصـر، الظهـر، المغـرب) أو فتـرات مـن اليـوم (الليـل، الضـحى، الصـباح)، وهـذا فـي قولـه: «**فلمـا مـرَّ أكثـر الليـل وإذ بالرَّكـب ارتحـل لـيلاً، فسـرنا بعـض الليـل إلـى طلـوع الفجـر، وتـنفس الصّـبح صـليناه، ثـم ركبنـا إلـى وقـت الضـحى، ونزلنـا إلـى صـلاة الضـحى**» [3]، وكـذلك قولـه: «**وقـد نزلنـا خلـيص عنـد الضـحى الأعلـى إلـى وقـت الظهـر، فصـلينا فيـه جماعـة وبـين الظهـر والعصـر انفصـلنا مـن خلـيص، وارتحنـا منـه إلـى أن حـان وقـت العصـر فصـلينا جماعـة، كـذلك إلـى قـرب المغـرب أشـرفنا علـى العقبـة التـي يصـعد منهـا إلـى الثنيـة**» [4]، وحينمـا نتأمـل فـي اسـتخدام الرَّحالـة لهـذه الإشـارات العامـة، فإنَّنـا نجـده يكثـر مـن اسـتخدام الشَّـكل الأول فـي المراحـل الأولـى مـن الرحلـة علـى العمـوم، أمّـا الشّـكل الثـاني الـذي تتقـارب فيـه الفتـرات الزّمنيـة، نجـده يكثـر خاصـة عنـد اقتـراب انتهـاء طريـق الـذهاب والوصـول إلـى المكـة، ولعـل هـذ الاسـتخدام يرجـع إلـى تباعـد المحطـات فـي المراحـل الأولـى وتقاربهـا فـي الثانيـة، أو ربّمـا كـان كلَّمـا اقتـرب الرَّحالـة مـن الأراضـي المقدسـة وتعـاظم شـوقه للوصـول، زاد إحساسـه بـبطء الـزَّمن وثقلـه، فأصـبح اليـوم طـويلاً وفتراتـه تتباعـد وتتمدد في نظر الرَّحالة.

وإمَّـا أن يسـتعمل الرَّحالـة فـي التَّعبيـر عـن الـزَّمن الإشـارة الضـمنية، وذلـك حينمـا يسـتغني عـن الإشـارة العامـة المتمثلـة فـي اليـوم أو بعـض أجزائـه، ويعتمـد علـى إسـناد الـزَّمن للفعـل مثـل: (نزلنـا، دخلنـا، وصـلنا، ظعنـا...) وهـي أفعـال ماضـية دالـة علـى الحركـة، والنمـاذج كثيـرة ومتعـددة فـي نـص الرّحلـة، وعلـى سـبيل المثـال قولـه: «**فلمـا ظعنّـا مـن قـرب الجميمـة نزلنـا معطـن الشـمامة**»[5]، وأيضـا: «**وقـد ظعنّـا مـن السـاحل**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 106.
2) ـ نفسه، ص 188.
3) ـ نفسه، ص385.
4) ـ نفسه، ص 396.
5) ـ نفسه، ص261.

ونزلنا قرب "السّبخة: ثم بعد ذلك ظعنّا بعد ملاقاة الأفاضل (...) نزلنا قرب مسراتة ثم بعد ذلك ارتحلنا ونزلنا أبعد من قبر الشيخ الولي الصالح (...) سيدي أحمد زروق»[1]، و هنا تختفي المؤشرات العامة الدالة على الزَّمن في هذا الخطاب، فهو لا يهتم بالأيام ، وإنَّما يهتم بالأحداث التي وقعت في حد ذاتها ، مُركزاً أكثر على تتابعها وتسلسلها، مما يعطي الإحساس لاستغراقها زمناً معيناً في الوقوع.

إنَّ الزَّمن الاعتباطي بنوعيه (الإشارة العامة، والإشارة الضمنية) الذي يوظفه الرَّحالة للدلالة على الزَّمن «يأتي في موجة سياقية من أجل استئناف السَّرد وتتميم حركيته التي تريد الوصول إلى هدف مضموني، حيث يعدُّ الزَّمن ركنا مفصلياً في حكايتها، ومن خلالها يؤدي كل فعل زمني دوره في الحكاية لمعرفة خصائص الرحلة وضروبها ومجالات خوضها في صراعات مع الطبيعة ومع الحياة عامة، أو المحافظة على سيرورة الخطاب المرتبط ببنية السَّفر، من أجل متابعة حكايتها التي ترتبط منطقيا بالزَّمان والمكان، والرَّحالة لا يحرص على بث الزَّمن لذاته، بل يستعمله فيما يتوجب أن يؤدي سياق الخطاب المبرم عقده مع بنية السَّفر المسندة إلى تشكيلة زمنية» [2]، وما يجب التَّأكيد عليه، وهو أنَّ الزَّمن هنا لا يتحدد بالتَّرتيب المتساوي في ميقاته، بل ما يتضمنه من وظائف مرجوة من دوافع الرّحلة ذاتها، وهذا النَّمط في الاستعمال الزَّمني كتقنية اعتباطية، هو المستعمل في النَّص الرَّحلي الورثيلاني، والنّصوص الرَّحلات الحجازية الأخرى، ومنه يمكننا القول: إنَّ «الأيام التي يعتمدها الرَّحالون في ترتيب يومياتهم قائمة على التذبذب بين طول المدة وقصرها، وهو ما يميز قيمة الزَّمن من خلال ما يمنحه الزَّمن من أهمية مادية» [3].

مما تقدم يظهر أنَّ اهتمام **الورثيلاني** بزمن الذهاب كان من خلال وصفه للمراحل التي يقطعها ركب الحجيج بدءاً من مغادرتهم أرض الوطن، ووقوفهم في

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص217.
2) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 546.
3) ـ نفسه، ص 548.

بعض البلدان، حيث يستكملون من أسواقها جهازهم وما يلزمهم، وعندما تحين ساعة السَّفر، تتحرك القافلة، وتقطع المسافات التي بين تلك البلدان في يومين أو ثلاثة أيام أو أكثر، وهكذا حتى تصل القافلة إلى مكة المكرمة، لتكون بذلك هذه اللحظة لحظة إعلان عن نهاية زمن وميلاد زمن جديد هو زمن أداء مناسك الحج.

❖ زمن أداء المناسك

يبدأ هذا الزّمن القصير والمحدود بلحظة إحرام الرّحالة، أي لحظة شروعه في الاغتسال وارتداء ثياب الحج، ويمكن تحديدها من خلال الرّحلة وذلك حينما وصل الرَّكب قرب قرية "رابغ"، يقول الرَّحالة مصرحاً: «**نعم، دخلنا واد رابغ من جهة المغرب عند قوة حر النّهار قرب الزوال، وبعض الرّكب يستظل بالنخل والبعض بالبيوت، إلى أن حان وقت الظهر، فصلينا الظهر، ثم أقمنا نستعد لأحوال الإحرام(...) حتى قرب وقت العصر فآن إحرام الكلّ، فشمرنا عن ساعد الجد**» [1].

لقد اكتفى الرَّحالة بالإشارة إلى بداية هذه الفترة بزمن عام، يمتد ما بين الظهر والعصر، في غياب واضح لليوم والشهر، من الملاحظ إذن، أنّه لم يحرص على التأريخ لها تأريخاً دقيقاً على الرَّغم من أهميتها، ولعلّ هذا راجعٌ ربّما لحرصه أكثر على شرح مناسك الإحرام، وانشغاله بتطبيق أحكامه من فرائض وسنن.

وإذا كان إحرام الرَّحالة في الظاهر هو نقطة فاصلة بين زمنين، زمن سابق وهو زمن الذهاب وزمن لاحق وهو زمن أداء المناسك، فإنَّه في حقيقته لحظة فاصلة بين حياتين، بين حياة الخطيئة وحياة التطهير وتكفير الذنوب، وبدخول الرَّحالة مكة تسمو الرّوح أكثر، وتبدأ رحلة تطهير النفس من أدرانها، بأول ركن في الحج وهو طواف القدوم، فيقول: «**نعم، حين نزلنا بمكة طفنا نهاراً أي الرجال وأما أهلي النّساء وكذا نساء من يحجب من الرَّكب أي المخدرات طفن طواف القدوم ليلا**» [2]، والملاحظ أنَّ الرَّحالة يستهل خطابه بإشارات زمنية عامة (نهاراً، ليلاً) وهي ليست ذات أهمية كبيرة بقدر ما جاء بعدها، إذ يصرح قائلا: «**فبعد ذلك**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 393.

2) ـ نفسه، ص 403.

اليوم عند صلاة العصر ارتحلنا إلى منى اليوم الثامن من ذي الحجة فانفصلنا عن مكة في ازدحام عظيم من كثرة الأركاب» [1]، وهذه هي الإشارة الزمنية الصَّريحة الوحيدة في هذه المرحلة، وبناءً عليه يكون تاريخ وصوله مكة هو السّابع من ذي الحجة، ولم يكتسب هذا التَّاريخ أهميته إلاَّ من خلال أهميته للحاج، فقد حرص الرحالة على ذكره لتنبيه الحجاج على وقت الخروج من مكة إلى عرفة ، كما ورد ذِكرهُ في السنة.

لقد فرض هذا الزَّمن نفسه على الرَّحالة في بناء رحلته وترتيب أحداثه في هذه المرحلة، وحتَّم عليه أن يبقى محافظا على سيرورته وترتيبه الطولي مثلما هو الحال في الواقع، مخضعاً إياه لترتيب المناسك، بداية من طواف القدوم وانتهاء بطواف الوداع، أي انطلاقاً من "مكة" إلى "عرفة" مُروراً بـ "منى" و"مزدلفة" ثم العودة إلى "مكة" مرة ثانية، ويبدو هذا جلياً من خلال الترتيب الأتي:

اليوم الثامن من ذي الحجة:

- عند صلاة **العصر** ارتحلنا إلى "منى" اليوم الثامن من ذي الحجة
- فنزلنا بمنى قرب مسجد علي... فصلينا فيه **المغرب والعشاء...** [2]

اليوم التاسع من ذي الحجة:

- ارتحلنا فلما خرجنا من "مزدلفة" ووصلنا بينها وبين عرفة **طلع الفجر**
- فوصلنا **ضحى** مسجد نمرة الذي ينبغي الجمع بين **الظهرية** فيه بالقصر [3]
- لما صلينا **الظهر والعصر** في المسجد المشهور وهو مسجد نمرة توجهنا إلى محل الوقوف والمشاهدة... إلى تحقق **الغروب** والخطيب يخطب... [4]
- نفرنا راكبين وماشين إلى أن وصلنا **بعد العشاء** مزدلفة [5]

اليوم العاشر من ذي الحجة:

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 403.
2) ـ نفسه، ص 403.
3) ـ نفسه، ص 403.
4) ـ نفسه، ص 480 - 481.
5) ـ نفسه، ص 482.

- فلمـا أصـبح الله بخيـر **الصـباح** طعنـا مغسـلين كمـا هـو الأثـر والسـنة، وصـلينا الصبح، والتقطنا الجمار الجميع من الحصى [1]
- فسرنا إلى قرب **منى**... ثم كذلك إلى أن وصلنا جمرة العقبة فرميناها [2]
- فرجعنـا فمـن عنـده هـدي ذبحـه، ثـم حلقنـا كمـا هـو السّـنة ثـم ذهبنـا إلـى مكـة فـي غير وقت الفضيلة وهو قرب **العصر** لطواف الإفاضة [3]
- وقد انقضى **يوم العيد** وبتنا تلك **الليلة** في منى في نعمة شاملة وبركة [4]

أيام التشريق:

- ولما **زالت الشمس** توضأنا فخرجنا لرمي الجمرات الثلاث بلا مهلة [5]

وبانتهـاء أيـام التشـريق تنتهـي معهـا مناسـك الحـج وتحـين سـاعة الخـروج مـن مكـة يقـول الرَّحالـة بعـد أن يلخـص مـدة مكوثـه فيهـا: «**وإنّنـا مكثنـا فـي "مكـة" مـا مكثنـا أعني المدة المعلومة كما قيل:**

أَقمنَـا بِهَـا يَوْمـاً ويَوْمَـاً وثَالثـاً * ويومـاً لَـه يـومُ التَّرحـلِ خَـامسُ**

وقـد انفصـلنا مـن "مكـة" عنـد الظهـر، والـبعض عنـد العصـر، أمَّـا أحمالنـا وأهـل بيتنـا فعند صلاة العصر» [6].

لقـد فـرض توظيـف الأوقـات الشَّـرعية لأداء مناسـك الحـج فـي الـدّيار المقدسـة علـى **الـورثيلاني** أن يحـرص كـل الحـرص علـى التَّـدقيق الزّمنـي، فظهـرت الإشـارات الزمنيـة العامـة بصـورة مكثفـة، وهـي مرتبطـة بصـورة مباشـرة بالجانـب الـديني، إذ طغـى عليهـا التعبيـر خاصـة بأوقـات الصَّـلاة علـى سـبيل المثـال: (طلـوع الفجـر، وقـت الضـحى، صـلاة العصـر، وقـت المغـرب...)، وإنَّ هـذه الإشـارات الزمنيـة المتتابعـة، والمـؤطرة بشـكل يـومي لكـل مـا مـرَّ علـى الرَّحالـة مـن شـعائر دينيـة تعطـي الانطبـاع بأنَّـه لا يوجـد زمـن يسـتحق التَّسـجيل والضـبط غيـر زمـن الحـج، وهـذا عائـد للـدور

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 483.
2) ـ نفسه، ص 485.
3) ـ نفسه، ص 486.
4) ـ نفسه، ص 489.
5) ـ نفسه، ص 489.
6) ـ نفسه، ص 459.

التَّعليمي الذي لعبه الورثيلاني من خلال الزَّمن لشرح وتعليم مناسك الحج، ولم يكن هذا حكراً على الرّحلة الورثيلانية، بل إنَّ الرّحلة الحجازية بشكلٍ عامٍ أولت هذا الجانب الكثير من العناية والاهتمام نَظراً لكون الحج هو هدف الرحلة بالأساس.

تنتهي هذه المرحلة بإتمام المناسك والتَّحلل، ثم زيارة الأماكن التي تستوجب الزّيارة، ولعل الأهم من بينها على الإطلاق زيارة مدينة رسول الله ﷺ، وتبدو لهفة الرَّحالة في الوصول إليها جليةً من خلال قوله: «**صلينا المغرب، ونزلنا إلى الصّبح، بل قبل طلوع الفجر ظعنّا مبكرين عازمين نهارنا وليلنا دخول "المدينة"**» [1] ويستمر جد الرَّكب في المسير إلى أن تحقق الغاية وهي دخول المدينة فيقول: «**سرنا بالليل إلى طلوع الفجر، فقربنا "المدينة المشرفة"، ثم كذلك إلى الإشراق بل إلى الضحى دخلنا "المدينة المشرفة" ونزل الرَّكب المغربي عند الباب الذي يذهب منه إلى "جبل أحد"**» [2]، وكما هي عادة **الورثيلاني** في عَدم الاهتمام بالزَّمن الصّريح، الذي يقوم بتحديده حيناً ويتغافل عنه حيناً آخر، كما في هذه الحالة، إذ لم يذكر تاريخ دخوله **"المدينة المنورة"**، واكتفى بذكر الوقت فقط وهو (الضحى)، وتماماً هو الحال عند المغادرة والخروج منها، فقد ذكر بأنَّ الوقت كان بين الظهر والعصر، فيقول: «**انفصلنا بين الظهر والعصر وفقد كل واحد منا الاصطبار، وزال منا أيضا الاختيار**»[3].

وبمغادرة الرّحالة **"المدينة المنورة"** وتوجهه صوب الوطن، يكون بذلك زمن أداء المناسك ـ الذي طبع بطابع الخصوصية، نظراً لإعطاء الرَّحالة الأولوية القصوى فيها لفعل التَّعليم، مع إهماله تحديد الوحدات الصُّغرى الزّمن ـ قد انتهى، فاسحا المجال لبداية زمن جديد، هو زمن العودة.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 466.

2) ـ نفسه، ص 469.

3) ـ نفسه، ص 540.

❖ زمن العودة(الإياب)

لا يكتمل نص الرّحلة إلا بعودة الرَّحالة إلى وطنه وملاقاة الأهل والأحبة، ليكون بذلك فعل العودة اللبنة الأخيرة في معمارية الرحلة، ودليل على استمرارية وتتابع الزّمن الطبيعي، كما هو مؤشرٌ على الاختلاف بين السَّفر والرّحلة، فالسّفر هو ذهاب بلا عودة، بينما تتكلل الرّحلة بعودة الرَّحالة إلى نقطة الانطلاق الأولى، في مسار دائري له بداية ونهاية.

ونشير إلى أنّ الرَّحالة كان يلجأ في هذه المرحلة إلى استراتيجية التعامل نفسها مع الزمن التي اتبعها في مرحلة الذهاب، فعلى طول مسار الطريق المقطوع في مرحلة الإياب، وما استغرق فيها من زمن، بقي وفياً في توظيف الزَّمن الاعتباطي بنوعيه، ومن النَّماذج على هذا الزَّمن الذي يفضل في الرَّحالة توظيف الإشارات الزَّمنية العامة التي يستعين فيها بأوقات الصَّلاة قوله: «**فصلينا المغرب في تلك البساتين إلى العشاء، فرجعنا إلى الأخبية وبتنا خير مبيت إلى طلوع الفجر ظعنا (...) ونحن كذلك إلى أن وصلنا قبور الشهداء بين الظهر والعصر**» [1].

أما توظيف الإشارة الزَّمنية الصَّريحة، فقد جاء في موضعين فقط على طول مسار الطريق، كانت الأولى أثناء الخروج من المدينة المنورة حينما ذكر موت الشيخ سيدي محمد بن القاضي الشَّريف سلطان زواوة فقال: «**مات -رحمه الله عليه-بعد خروجنا من "المدينة المشرفة، ودُفِنَ بين "الينبع" و"نقب علي" في شهر محرّم سنة ثمانين ومائة وألف [1180هـ/1766م]**» [2]، أما الإشارة الثانية فهي حينما ذكر مدة إقامته في مصر، بالقول: «**إقامتنا بمصر أكثر الشهر من صفر إلى أوائل ربيع الأول إلى العشرين منه والله أعلم**» [3].

والملاحظ في هذه المرحلة أنَّ مدة الإقامة في هذه المرحلة كانت أطول بشكل عام، إذا ما قورنت بمرحلة الذهاب، فعلى سبيل المثال أيضا، ما ذكره عن دخوله **"طرابلس"** إذ يقول: «**أقمنا بها نحو السوقين في إكرام من أهلها وتعظيم لنا**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 541.
2) ـ نفسه، ص 25.
3) ـ نفسه، ص 578.

وللحجـاج» [1]، وأيضـا مـا ذكـره عـن إقامتـه فـي **"تـونس"** فيقـول: **«وقـد مكثـت فيهـا نحـو خمسـة أشـهر ونيـف، وأنـا فـي تعميـر الأوقـات بتـدريس الفنـون وضـبط القواعـد مـن العلـوم»** [2]، ويبـدو جليـاً أنَّ الرَّحالـة لـيس مـتعجلاً فـي العـودة إلـى وطنـه، بـل يأخـذ كامـل وقتـه، وخاصـة إذا تعلـق الأمـر بطلـب العلـم وتدريسـه، وهـذا مـا انعكـس علـى المـدة التـي اسـتغرقتها مرحلـة العـودة، التـي دامـت حـوالي عامـاً كـاملاً، مـن لحظـة خروجـه مـن المدينـة إلـى غايـة وصـوله إلـى أرض الـوطن، إذ يقـول: **«وصـلنا إلـى مقامنـا ودارنـا ليلـة الجمعـة وليلـة العيـد ويـوم عرفـة عـام 1181 أحـد وثمـانين ومائـة وألـف، فلمَّـا أصـبح الله بخيـر الصـباح اجتمعنـا كالعـادة لصـلاة عيـد الأضـحى»** [3]؛ ونخلـص إلـى أنَّ طـابع القداسـة فـي تعامـل الرَّحالـة مـع الـزَّمن واضـح، ولا أدل علـى ذلك من اختياره لأزمنة محددة في الانطلاق والوصول والعودة.

جـ. زمن التّقييد (النسخ)

يُعَـدُّ تقييـد الرحلـة آسـراً لهـا وحافظـاً لخطابهـا مـن الضـياع والاضـطراب، وإذا كـان زمـن انطـلاق سـفر الرَّحالـة هـو يـوم الخمـيس، فـإنَّ زمـن بدايـة تقييـد الرّحلـة غيـر معلـوم، لكـن مـن المؤكـد أنَّـه بعـد تـاريخ الانطـلاق، فـزمن الخطـاب تـالٍ لـزمن السّـفر، يصـبح الفعـل اللاحـق زمنيـاً التقييـد سـابق الحضـور فـي جسـد الـنَّص، مؤسسـاً للـوعي بالكتابة، والإلحاح على أهميتها.

وإذا كـان الرَّحالـة لـم يـؤرخ للبدايـة لهـذا الـزَّمن، فـإنَّ تـاريخ الانتهـاء منـه تـمَّ تعيينـه، حينمـا تـمَّ تـذييل الرّحلـة بإشـارة زمنيـة مـن النَّاسـخ تبـرز تـاريخ الانتهـاء مـن تقييـدها، والفتـرة الزَّمنيـة التـي اسـتغرقها نسـخها، التـي تمَّـت خـلال ثمانيـة عشـر شـهر تَقريبـاً مـن تـاريخ الانتهـاء الفعلـي للرحلـة، وقـد ورد فيهـا مـا نصـه: **«كـان الفـراغ مـن نسـخها ضـحى يـوم الإثنـين الفـاتح لشـهر شـعبان عـام 1182 اثنـين وثمـانين ومائـة وألف رزقنا الله خيره وخير ما بعده ووقانا شره وشر ما بعده آمين»** [4].

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 640.
2) ـ نفسه، ص 671.
3) ـ نفسه، ص 707.
4) ـ نفسه، ص 715-716.

يتضح مما سبق أنّ زمن الرّحلة الطبيعي هو زمن تصاعدي في وصف الأحداث، أي أنّه خيط يربط بين الأحداث في الماضي والحاضر والمستقبل، لذا يتبادر إلى الذهن أنّ «**خطاب الرّحلة خطاب غير مفارق، لأنّه لا يقوم على المفارقات الزّمنية بما فيها من استرجاع واستباق**» [1]، وعليه فما جدوى دراسة المفارقة الزَّمنية في الخطاب الرَّحلي إن كان لا يقوم عليها أساسا؟ ولكن ألاَ نتساءل حينما يستضيءُ الرَّحالة بالماضي في خطاب رحلته، ويوردُ بعض السياقات التَّاريخية الخاصة الأماكن المقدسة أو التَّذكير بأحداث جرت في الرّحلة، وعلى خلاف هذا، فقد يشير أحياناً إلى بعض ما قد سيقع من أحداث الرّحلة، ألا ينزاح زمن إيراد هذه المقاطع عن زمن سير الرّحلة الطبيعي؟ وبالتالي حُدوث تفاوتٍ بين زمن التلفظ وزمن الحدث؛ ولعل هذا التّساؤل هو ما يجعل من دراستنا للمفارقة الزمنية في خطاب الرّحلة الورثيلانية أمراً مشروعاً، فعلى هذا الأساس سنحاول أن نقف على أهم التقنيات التي وظفها الرّحالة من خلال العنصر التالي.

2) -المفارقة السَّردية (التشظي الزمني):

إنَّ فنّ الرّحلة كما هو معلوم من أكثر الفنون التصاقاً بالواقع، وغالباً ما تفرض عليه سلطة التَّاريخ منطقها، فتكون بذلك أحداثها وخاصة المتعلقة بالوحدات الكبرى للزّمن خاضعةٌ لهذه السّلطة، فتأتي متعاقبةً ومتزامنةً مع الزّمن الواقعي للحكاية، ومرتبطةً بما تفرضه بنيةُ السَّفر، وما يتبعها من ترتيب باعتبارها البنية الأكثر هيمنةً على الرّحلة، لكن هذا لا يعني عدم تدخل الرَّحالة كسارد للأحداث وبسط سلطته هو الآخر ليمارس لعبة السَّرد، بما تتيحه من إمكانيات لا حدود لها للتَّلاعب بالنظام الزَّمني الطبيعي، فهو - في بعض الأحيان - قد يبتدئ السَّرد بشكل يطابق زمن القصة، لكنَّه سرعان ما يقطع ذلك السَّرد ويرجع إلى وقائع تأتي في ترتيب زمن السَّرد بعد أوان وقوعها الطبيعي في زمن القصة، و هناك أيضاً إمكانية استباق الأحداث في السَّرد بحيث يُشير إلى وقائع قبل أوان حدوثها الطبيعي

1) ـ عمران بن محمد الأحمد: أدبية الرحلة عند العبودي ص 75. السرد العربي، 208.

في زمن القصة، إذن فالسَّارد يهدف إلى إعادة ترتيب أحداث القصة لغاية سردية ، وهذا ما يطلق عليه الباحثون في مجال السَّرد المفارقة الزمنية، التي تكون إمّا **استرجاعاً** لأحداث ماضية أو **استباقاً** لأحداث لاحقة.

وسنعمل على دراسة التّرتيب الزّمني في رحلة **الورثيلاني**، من باب ما قد يكون الرَّحالة قد وظفه من تقنيات المفارقة الزَّمنية ويطمح السَّارد على العموم من ورائها إلى كسب القارئ (المفترض/ الحقيقي)، من خلال التَّخلص من خطية الزمن ورتابة الأحداث، وهذا ما جعل من الرّحلة تحتوي على بعض النُّصوص التي يمكن أن نعدها نماذج لهذه التقنيات، لذا سنعمل مستنيرين بما يلي من تقديم نظري باستقصاء هذه التقنيات في الرحلة، آخذين بعين الاعتبار الفرق بين السّرد التّخييلي والسّرد المرجعي.

أ. تأطير نظري

❖ الاسترجاع (Analepsis).

الاسترجاع أو الارتداد كما يستخدم في بعض معاجم السَّرديات، فهو عند **جيرار جنيت:** «كل ذكر لاحق لحدث سابق للنقطة التي نحن فيها من القصة» [1]، أما عند **تزفيتان تودوروف** فيحدده بأنه: ما «يروي لنا فيما بعد ما قد وقع من قبل» [2] ويعرفه **جيرالد برانس** بأنّه: «مفارقة زمنية باتجاه الماضي انطلاقا من لحظة الحاضر، استدعاء حدث أو أكثر وقع قبل لحظة الحاضر (أو اللحظة التي تنقطع عندها سلسلة الأحداث المتتابعة زمنيا لكي تخلي مكانا للاسترجاع» [3]، ويمثل الاسترجاع بشكلٍ عامٍ، «تركاً لحاضر السَّرد، والرّجوع إلى ماضي الأحداث وروايتها في مرحلة لاحقة لحدوثها، وهذه الأحداث الماضية ذات درجات متفاوتة من حيث القرب والبعد إلى نقطة بداية الحكي» [4].

---

1) ـ جيرار جنيت: خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، ص 51.

2) ـ تزفيتان تودوروف: الشعرية، تر: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2، 1990، ص 48.

3) ـ جيرالد برنس: قاموس السرديات، تر: السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة ـ مصر، ط 1، 2003، ص 16.

4) ـ عماد خالد: تجليات الخطاب الروائي (مقاربة في تقنيات السرد)، ص147.

يمكننا الإشارة إلى أنَّ كل مفارقة سردية لها ما يسميه **جيرار جنيت** بالمدى والاتساع، إذ يقول: «إنَّ مفارقة ما، يمكنها أن تعود إلى الماضي أو إلى المستقبل وتكون قريبة أو بعيدة عن لحظة الحاضر أي عن لحظة القصة التي يتوقف فيها السَّرد من أجل أن يفسح المكان لتلك المفارقة، إنَّنا نسمي **مدى** المفارقة هذه المسافة الزمنية، ويمكن للمفارقة أن تغطي هي نفسها مدة معينة من القصة تطول أو تقصر، وهذه المدة هي ما نسميه **اتساع** المفارقة» (1)، إنَّ مدى المفارقة الزمنية، سواء أكانت استرجاعاً لحدثٍ سابقٍ أم استباقاً لأحداثٍ لاحقةٍ، يتحدد بين بداية اللحظة المفارقة في زمن القصة وبدايتها في زمن السرد، أمّا الاتساع فهو ما تستغرقه هذه المفارقة من زمن داخل السرد، وبناء على ما توصل إليه **جيرار جنيت**، كان تقسيمه لأنواع المفارقة على النحو التالي:

الاسترجاع: انطلاقا من علاقته بأول وأقدم حدث في الحكاية المسرودة، هو حسب **جيرار جنيت** ينقسم إلى:

الاسترجاع الداخلي: ويكون بالعودة إلى أحداث واقعة ضمن النّطاق الزّمني للمستوى الأولي في السرد.

الاسترجاع الخارجي: ويكون بالرجوع إلى أحداث سابقة للنطاق الزّمني للمستوى الأولي في السّرد، بحث تقع تلك الأحداث قبل نقطة بداية الأحداث في الحكاية المسرودة.

الاسترجاع المزجي: ويكون باسترجاع أحداث خارجية تمتد زمنيا لتصل إلى ما بعد نقطة انطلاق الأحداث في الحكاية المسرودة، وهو أقل استعمالا من سابقيه.

❖ الاستباق (prolepsis).

الاستباق أو الاستشراف عند **جيرالد برنس** هو: «المفارقة الزمنية Anachrony الذي يتجه صوب المستقبل انطلاقاً من لحظة الحاضر، استدعاء حدث أو أكثر سوف يقع بعد لحظة الحاضر (أو اللحظة التي ينقطع عندها السّرد

---

1) ـ حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ص 74.

التّتابعي الزّمني لسلسلة من الأحداث)» [1]، وهو عند **حميد لحمداني**: أن «يتعرف القارئ إلى وقائع قبل أوان حدوثها الطبيعي في زمن القصة» [2]، فهو إذن: «القفز على فترة ما من زمن القصة، وتجاوز النقطة التي وصلها الخطاب، لاستشراف مستقبل الأحداث، والتّطلع إلى ما سيحصل من مستجدات» [3].

وبحسب **جيرار جنيت** فـ «الحكاية (بضمير المتكلم) أحسن ملاءمة للاستشراف من أي حكاية أخرى» [4]، مثل: الرّحلة والسّيرة الذاتية، ويعود السّبب لطابعها الاستعادي المصرح به بالذات، فهي النُّصوص تتشكل بعد انتهاء أفعالها، وبالتالي فالرّاوي يحكي عن وقائع هو مطلع على كل تفاصيلها أثناء سردها، وبمقدوره أن يخبر عمَّا حدث قبل أو بعد اللحظة التي وصل إليها السرد دون إخلال ببنية النص.

وكما في الاسترجاع، فإنَّه يمكن تصنيف الاستباق إلى ثلاثة مستويات اعتماداً على سعته داخل السرد حسب ما جاء به **جيرار جنيت** كما يأتي:

الاستباق الداخلي: تقع سعته داخل المجال الزّمني للمستوى الأولي في السّرد، وقد يكون أكثر استخداماً من النوعين الآتيين:

الاستباق الخارجي: تقع سعته خارج النّطاق الزمني للمستوى الأولي في السرد.

الاستباق المزجي: بعض سعته داخل المجال الزمني للمستوى الأولي في السرد وبعضها الآخر خارجه.

ب. مستويات المفارقة في الرحلة:

إذا ما أردنا أن نتتبع مستويات الارتداد والاستباق في خطاب الرحلة سنجدهما بنوعيهما الداخلي والخارجي.

---

1) ـ جيرالد برنس: قاموس السرديات، ص 158.
2) ـ حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ص 74.
3) ـ عماد خالد: تجليات الخطاب الروائي (مقاربة في تقنيات السرد)، ص 180.
4) ـ جيرار جينيت: خطاب الحكاية، ص 76.

❖مستويات الاسترجاع:

• الاسترجاع الخارجي:

ويقع الاسترجاع الخارجي خارج النّطاق الزَّمني لأحداث الرّحلة المسرودة، فهو يختص بسرد الأحداث الواقعة قبل بداية الرّحلة، ويعدُّ مؤشراً على الرّصيد الثقافي للرحالة، لكونه يكتسب المعارف وتراكم القضايا والأحداث في مجمع حافل من مختلف شؤون الحياة، مما تعرض له هو شخصياً في مسيرته، أو ما استفاد منه من معارف خاصة وعامة من خلال روافد عديدة ومختلفة، ومن هذا المنطلق نقسم الاسترجاع الخارجي في الرّحلة إلى قسمين رئيسين: قسم يتعلق بالاسترجاع الموضوعي، وآخر بالاسترجاع الذاتي:

- الاسترجاع الموضوعي:

يكون هذا النَّوع من الاسترجاع بالعودة إلى زمن مفتوح يستند إلى تاريخ معين بضبط معرفي خاص، كاسترجاع ذاكرة الزَّمن التَّاريخي لأثر من آثار التَّاريخ الإسلامي والبشري، أو الآثار والمعالم المقدسة وغيرها، ولا ريب أن هذه الاسترجاعات تأتي لخدمة غايةٍ فنيةٍ، ولكنها في المقام الأول استجابة لمحفزات معينة، فلكل استرجاع من هذه الاسترجاعات محفز يفرضه السّياق، فقد تستدعيه شخصيات صنعت حدثاً بذات المكان الذي هو بؤرة للحديث، ويوظف الورثيلاني هذا النَّوع في العديد من المرات، وعلى سبيل المثال حينما يقطع الرَّحالة التَّسلسل الزَّمني الطبيعي للأحداث، ويستدعي الزَّمن التَّاريخي حينما يزور ضريح شخصية فاعلة في التاريخ الإسلامي وهو عقبة بن نافع، فيقول: «**هو عقبة بن نافع الفهري التّابعي القريشي، ولد في زمن النبي ﷺ، ولذلك عدّه بعضهم من الصحابة ولاه معاوية بن أبي سفيان على "أفريقية"، ووجهه إليها في عشرة آلاف من المسلمين فافتتحها، وقاتل من بها من النّصارى حتى أفنى أكثرهم**» [1]، والملاحظ هُنا، طول سعة هذا الاسترجاع الذي امتد على مدى إحدى عشرة صفحة، غطى بها

---

1) – الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 111.

(الرَّحالة/السَّـارد) فتـرة فـتح شـمال إفريقيـا، التـي دامـت عشـرات السَّـنوات، ليسـتأنف بعـدها السَّـرد بقولـه: «**ولمـا فرغنـا مـن زيارتـه، وزيـارة مسـجده، وهـو مسـجد عظـيم يستحسنه كل من رآه (...) وزرنا من كان في القرية أيضا**» [1].

وتتكـرر هـذه الاسـترجاعات بشـكلٍ لافـتٍ فـي أغلـب محطـات مرحلـة الـذهاب، ويـؤدي المكـان المـزار دور الموجـه لمـا يتطـابق ومرجعيتـه فـي ذهـن الرّحالـة، فعلـى سـبيل المثـال حينمـا يصـل طـرابلس يعـود بنـا إلـى بدايـة تاريخهـا الإسـلامي فيقـول: «**غـزا عمـرو بـن العـاص مدينـة طـرابلس سـنة ثـلاث وعشـرين حتـى نـزل القبـة علـى الشـرف مـن شـرقيها، فحاصـرها شـهرا لا يقـدر مـنهم علـى شـيء، فخـرج رجـل مـن بنـي مـدلج ذات يـوم مـن عسـكر عمـرو يتصـيد فـي سـبعة نفـر، فمضـوا غربـي المدينـة فاشـتد علـيهم الحـر، فأخـذو راجعـين علـى ضـفة البحـر، وكـان البحـر لاصـقاً بالمدينـة، ولـم يكـن بـين البحـر والمدينـة سـور(...) فـدخلوا منـه حتـى أتـوا مـن ناحيـة الكنيسـة فكبـروا، فلـم يكـن للـروم مفـزع إلاّ إلـى سـفنهم**» [2]، ولـم يكـن رجـوع السّـارد إلـى هـذا الـزمن المقـدس حكـراً عليـه وحـده، بـل كانـت أغلـب الـرحلات الحجازيـة قـد سـارت علـى الـنهج نفسـه، إذ لا تقـوم مشـروعيتها إلاَّ إذا اسـتندت إلـى سـند زمنـي يعـود إلـى عهـد النبـوة، أو مـا تـلاه مـن عصـور حديثـة العهـد بـه، فالرَّحالـة يفـتح سـجل التَّـاريخ ويـروي الحادثـة، أو يقـصَّ المعانـاة، ويحكـي باقتضـاب أو بإطنـاب عـن المسـيرة فـي سـبيل نشـر الهداية المحمدية [3].

ـ الاسترجاع الذاتي:

ونعنـي بـه أنّ الرَّحالـة ـ السَّـارد ـ فـي عملـه السّـردي قـد يعـود بـالزَّمن مسـافة معينـة، محصـورة بـأفُقٍ تـاريخي محـددٍ، هـو تـاريخ حيـاة الرّحالـة، فهـي مـن جهـة قريبـة مـن زمـن السّـرد ولكـن لا تنتمـي إليـه، كمـا لا تنتمـي إلـى الـزمن التّـاريخي، فيعـود الرّحالـة مـن خلالهـا وينـبش مـا رسـخ بالـذاكرة، ومـا ترتـب عنهـا مـن اسـتجماع لتراكمـات بسـيطة

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 132.
2) ـ نفسه، ص 165.
3) ـ ينظر: عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 552.

ومركبة، تستحق التّذكر واللجوء إليها كمعادل لبؤرة الالتقاط بالنسبة للعمل الرّحلي، وقد وظف **الورثيلاني** هذ النّوع ليسترجع بعض أحداث رحلته الأولى للحج وبالضبط عام 1153 هـ، فيقول: « **في الحجة الأولى اجتمعنا مع الشيخ الولي الصالح (...) سيدي محمد المغربي الطرابلسي -رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين- قال لنا: عام ثلاثة وخمسين ومائة وألف [1153هـ / 1740م] العام الذي قبل العام الأول، لم يقبل الله من الحجّاج إلّا سبعة، وباقي الحجّاج رجع خائبا، غير أنّ السّبعة المقبولين أقبلوا على الله بالتوجه بالطّلب والسؤال والمغفرة لأهل الموسم إلى دخول رمضان، فأوّل ليلة منه تقبّل الله منهم، وغفر لأهل الموسم**» [1].

كما يوظف الزّمن القريب لبداية السَّرد قد يغوص أكثر في الذاكرة ويعود إلى زمن الطفولة والشباب، وهذا في معرض حديثه عن أحد الأولياء الصالحين وهو **عبد الرحمن المجذوب**، إذ يقول: «**قدم إلى مسجدنا في حياة أبي وبات في المسجد وبت معه ولم يأكل طعام أحد إلا طعامنا ونمت معه إلى الصبح وهو مستلقي على ظهره، فلم يرجع لسانه عن الذكر إلى أن طلع الفجر**» [2]، ويقول أيضا في موضع آخر: «**وقد اجتمعت معه في بجاية، وكان يلازمها في رمضان وهي رباط وزيارة فمررت عليه ووجدته في حانوت الحفاف، وإذا فالحلاق يحلق شعر رأسه، فلما فرغ قبل الحلاق رأسه وسأله الدعاء ثم سألته الدعاء أيضا**» [3].

- **الاسترجاع الداخلي:**

أما الاسترجاع الداخلي، فإنّه يندرج ضمن زمن الأحداث المسرودة، أي سرد الأحداث اللاحقة لزمن بدء الرّحلة، فمع تقدم السّرد تتراكم الأحداث التي وقعت بعد نقطة البداية مكونةً مَخزوناً من المواقف، يمكن الرّجوع إليها متى استدعت الضرورة ذلك.

وكمثال على هذا النَّوع من الاسترجاع في الرّحلة، حينما استدعى الأحداث التي سبقت إمساكه بالشيال الهارب، بعد خروجه من المدينة المنورة في طريق

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 41.
2) ـ نفسه، ص 627.
3) ـ نفسه، ص 628.

العـودة، إذ يقـول: «**ثـم إنَّ الشـيال الـذي اكترينـا عليـه مـن مكـة الـذي هـرب لنـا بـبعض الجمـال، وتـرك الـبعض ولـم يعتبـره لشـدة غـلاء الفـول، وحصـلت لنـا مشـقة عظيمـة وكربـة قويـة، إذ طلبنـاه فـي بـدر عنـد الأميـر، فلـم يتفـق لنـا الاسـتواء معـه لكثـرة فجـوره وتحيلـه، فـاختفى فـي المصـري فـراراً ممـا يلـزمهم منـا شـرعا، ثـم اشـتكيت لأميـر مصـر حالـه حـين نزلنـا الصّـفراء، فوعـدني بالاسـتخلاص منـه عنـد المدينـة ولمـا وصلنا المدينـة ذهبـت إليـه، فأمرنـا إلـى كيخـة الصّـوان، إذا هـو الـذي يحكـم بـين العـرب وغيـرهم، فـأمرني بتـرك الثلـث مـن الكـراء فلـم أرض إلا بـالرّبع فـاختفى عنـد ذلـك أيضـا، فلمـا شـكوت لـه المـرة بعـد المـرة أمرنـي بالـذهاب إلـى آغـة عسـكر المغربـي، فـأمرني بتـرك الثلـث أيضـا (...) فلمـا أمتنعـت هـرب واختفـى، ولـم أجـد لـه خبـراً إلا عنـد الصّـفراء، فوجدتـه مـاراً ومسـكته عنـد الظهـر**» [1]، لا شـك أنَّ هـذه الأحـداث (هـروب الشّـيال، مشـقة الرّحالـة، طلبـه فـي بـدر، الشـكوى لأميـر مصـر عنـد "**الصـفراء**"، الوعـد بالاسـتخلاص منـه فـي **المدينـة**، الخـلاف بينـه وبـين كيخـة صـوان وآغـا عسـكر المغـرب)، كانـت قبـل نقطـة السّـرد التـي وصـلت إليهـا الأحـداث، وهـي الإمسـاك بـه فـي الصفراء في طريق الخروج من المدينة.

وتجـدر الإشـارة هنـا إلـى أن ظـروف السّـرد مـن جهـة، والمرحلـة التـي وصـل إليهـا الرَّحالـة مـن جهـة ثانيـة، فـي كثيـرٍ مـن الأحيـان تفرضـان عليـه توظيـف نـوعٍ محـددٍ مـن الاسـترجاع، فنجـده يميـل أكثـر لاسـتخدام الاسـترجاع الخـارجي قياسـاً بالاسـترجاع الـداخلي أثنـاء مرحلـة الـذهاب، والسـببُ هـو ضـيق الرّقعـة الزّمنيـة لحاضـر السّـرد، فالاسـترجاع الـداخلي يخـتص فقـط بمعالجـة الأحـداث التـي وقعـت بعـد نقطـة بدايـة السـرد، وكلمـا كانـت هـذه الرقعـة ضـيقة قـلّ الرجـوع إليهـا مـن قبـل السّـارد، وهـذا مـا حـدث فـي المرحلـة الأولـى مـن الرّحلـة، لكـن كلمـا تقـدم سـير الرّحالـة تـراكم الـزمن السَّـردي للرّحلـة، الـذي سيصـبح ماضـياً بالنسـبة للأحـداث المقبلـة، ممـا يتـيح للسـارد إمكانيـة مـلء الفجـوات التـي يخلفهـا السّـرد أو تـم نسـيانها باسـتخدام الاسـترجاع الـداخلي، وبهـذا تقـل الحاجـة لاسـترجاع زمـن مـا قبـل بـدء الرحلـة، خاصـة وأن طريـق

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 541-542.

العودة يكاد يكون هو نفسه طريق الذهاب وبالتالي يغيب عنصر النظرة الأولى، فلا يحتاج الرحالة للعودة إلى الماضي إلا في إطار بعض المواطن التي لم يسعفه الوقت في لذكرها.

❖مستويات الاستباق:

يعدُّ الاستباق تقنية تحضر بنوعيها الداخلي والخارجي في الرحلة:

- **الاستباق الداخلي:**

قد يأتي توظيف السَّارد لهذا النوع من الاستباق أثناء مرحلة الذهاب، فيشير لما وقع له من أحداث أثناء الرّجعة، فمثلاً يشير في الطلعة وهو في "مصر" إلى من لقيهم من أصحابه بعد العودة من البقاع المقدسة وأداء فريضة الحج، وهو الشّيخ سيدي **الهاشمي المغربي**، فيقول: «**ولمّا رجعنا من الحج وجدناه ينتظر جماعتنا خارج "مصر"، ثم ذهب بنا إلى داره رغبةً ومحبةً، وفرحاً وسروراً، فأقمنا عنده ثلاث أيام، ومع ذلك ما ترك أحداً منّا يخرج من داره أصلا**» [1].

والأمر نفسه في الطلعة من "طرابلس" يذكر التقاءه مع المدرس **سيدي عبد الله**، حينما جاء على ذكر المدرسة التي شيدها قائد "عمورة"، إذ يقول: «**وقد اجتمعنا معه في هذه المدرسة في الرّجعة مع الطّلبة والقائد المذكور، والشيخ المفتي ابن مقيل وأصحابه في ضيافة القائد المذكور جزاه الله عنا خيراً**» [2].

وكثيرا ما يقرن الرّحالة أحداث وقعت في مرحلة الذهاب بأحداث وقعت في مرحلة العودة عن طريق الاستباق الداخلي، من قبيل قوله عن الشَّيالة في "مصر": «**إنَّنا سلمنا منهم في الطّلعة والهبطة لقوة الرَّكب، فلم يغن عنهم ما أرادوه من إتلاف أموال الحجاج بالباطل**» [3]، وأيضا قوله حينما نزل زائراً لمقام أحد الأولياء في مرحلة الطلعة وهو في بلدة "زليتن: «**هذا وإننا زرنا الولي الصّالح، والقطب**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 319.
2) ـ نفسه، ص 151.
3) ـ نفسه، ص 335.

الواضح، سيدي عبد السّلام الأسمر في الطّلعة والرّجعة أفاض الله علينا من بركته» [1]

أو قد يستشرف أحداث الرَّحالة، ويخبرنا بمن مات في الرَّجعة في معرض حديثه عن بعض الشَّخصيات أثناء الطلعة، وعلى سبيل المثال قوله: «**الشريف الفاضل الأجل محب الخير وأهله أمير زواوة سيدي محمد بن بوختوش رحمه الله إذ مات بعد رجوعنا من المدينة**» [2]، وقد يذهب أكثر من ذلك حينما يستشرف موت الشيخ القاضي الشريف أثناء مرحلة الإياب، والرحلة لم تنطلق بعد أي زمن الاعداد لها، إذ يقول: «**ونزلنا عند المعظّم سيدي محمد بن القاضي الشّريف، سلطان "زواوة" وعاهدنا على الحج ومشى معنا، ثم مات -رحمه الله عليه- بعد خروجنا من "المدينة المشرفة، ودُفنَ بين "الينبع" و"نقب علي"**» [3].

- **الاستباق الخارجي:**

أما الاستباق الخارجي فيحضر، ولكن بدرجة أقل من النّوع الأول، ومن النماذج التي مرت علينا أثناء القراءة، ما أشار إليه الرحالة بالقول: «**فظعنا بعد صلاة الظهر بعد السّقي والاستقاء، ودفنا من مات هُناك، وهو الحاج عبد الله بن الحاج الشباني وقد جعلني وصيا على أولاده ولم يكن له ابن، وإنَّما له بنات، فوجدنا عند زوجته طفلا جعل الله في البركة**» [4]، ومما لا شك فيه أنَّه لم يكن بإمكان الرَّحالة العلم بوجود طفل للشيخ الميت إلاَّ بعد عودته للدّيار، أي بعد انتهاء زمن القصة.

ومن الاستباقات الواقعة خارج مجرى السّرد أيضاً، ما تمَّ الإعلان عنه من قبل الرَّحالة في "تونس" فيقول: «**ولما مكثت في تونسَ مدةً، ثمَّ جئت منها على أحسن الخيرات، وأتمّ البركات نعم، تركت أهلي هناك أخذاً بخاطر من فيها من العلماء والصَّالحين ممن بالغوا في محبتي واشتياقاً في إقامتي ناوياً الرجوع إليها**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 204.
2) ـ نفسه، ص 189.
3) ـ نفسه، ص 25.
4) ـ نفسه، ص 464.

والتـوطن فيهـا رغبـة فـي نشـر العلـم وبثـه لكثـرة الآخـذين فيهـا» [1]، البـديهي أنَّ الرَّحالـة لـن يعـود إلـى "تـونس" إلاَّ بعـد إتمـام الرّحلـة بـالرّجوع إلـى الـوطن أولاً، ثـم العودة من جديد إليها، ومن المؤكد أنَّ هذا الفعل الأخير سيقع خارج زمن الرحلة.

وإذا كنـا قـد وقفنـا علـى مسـتويات أو أقسـام الاسـترجاع والاسـتباق فإنَّـه مـن الجـدير بنـا معرفـة مـا يسـتدعيه حضـور هـاتين التقنيتـين مـن وظـائف فـي خطـاب الرّحلة.

ج. وظائف المفارقة في الرحلة:

❖وظائف الاسترجاع:

إنَّ الوظيفـة العامـة التـي تهـدف المفارقـة الزَّمنيـة إلـى تحقيقهـا هـي طـرد السـأم والملـل عـن القـارئ (الضـمني/الحقيقي)، وذلـك عبـر تنويـع أسـاليب السَّـرد والمراوحـة بـين الانتقـال مـن حاضـر الحكايـة إلـى ماضـيها والانتقـال مـن حاضـر الحكايـة إلـى مسـتقبلها، إضـافةً إلـى هـذا هنـاك عـدة أهـدافٍ ترمـي المفارقـة إلـى تحقيقهـا قصـرت الحكاية الأولى عن تحقيقها، سوف نسعى فيما يلي إلى التّفصيل فيها.

يـأتي الاسـترجاع عمومـاً لـدواعي فنيـة وجماليـة تخـدم تنـامي السَّـرد، وتجعـل الـنص السَّـردي أكثـر تماسـكاً وترابطـاً، ويحقـق الاسـترجاع فـي الرّحلـة العديـد مـن المقاصد الحكائية مثل:

▪ قـد يـأتي الرَّحالـة بالاسـترجاع علـى سـبيل الإضـاءة والتَّوضـيح، للكشـف عـن تـاريخ مكـان مـن الأمـاكن التـي مـرَّ بهـا فـي رحلتـه، ومـن قبيـل ذلـك قولـه: «**ثـم مررنـا ببئـر حسـان، وحسـان الأن اسـم علّـم علـى موضـع، فيـه مـورد مـاء قلمـا يوجـد فيـه مـا يكفـي الركـب إلا فـي أزمنـة الخصـب، وكـان الأصـل اسـم لعامـل بعـض ملـوك بنـي مـروان بعثـوه لغـزو إفريقيـا بعـد مـوت عقبـة بـن نـافع أميـر إفريقيـة، ومفتتحهـا وارتـداد غالـب إفريقيـة، فنـزل فـي هـذا الموضـع وبنـى فيـه قصـورا تسـمى قصـور حسان وكان يُغيرُ من هناك على إفريقية وأقام بذلك المحل مدة**» [2].

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 680.

2) ـ نفسه، ص 621-622.

▪ قد يستعين بالاسترجاع أيضا للمقارنة بين الأماكن أو المعالم أو الأشياء، لإثبات المشابهة والمماثلة أو الاختلاف أو التطور، ومن الأمثلة قوله مدينة "بسكرة" مقارنا بين حاضرها وماضيها: **«وهذه المدينة كانت قاهرة عظيمة البنيان، والجامع الأعظم يدلّ على ذلك، فإنّه لا نظير له، وصومعته ما أحسنها، وما أوسعها، غير أنَّ القديمة -أي المدينة- خربت وصارت دكا، وسبب ذلك فتنة بينهم، فادخلوا التّرك، فأهلكوها حتّى بقي القليل منها، حاصله، أنّ النّاس قد خرجوا إلى البساتين فبنوا هناك من ذلك العهد إلى الآن، ثم نزل عليهم الوباء فلم يبق فيها إلّا حثالة من الناس، وفيها برجان للترك»** [1].

وقد يستعين به على سبيل المقارنة ليثبت الاختلاف والمغايرة، وذلك حينما يذكر من فقدهم من علماء وشيوخ كان يزورهم فيما مضى، فيقول: **«في الحجة الأولى عام ثلاثة وخمسين ومائة وألف [1153هـ/1740هـ]، نزلنا بها في الرّجعة (...) ووجدت في تلك الحجّة العلامة الفاضل، والفهامة الكامل، عبد القادر الفاسي يقرأ في "مسجد توزر" في التّفسير ثم بعد ذلك مات رحمه الله وهي ثلمة في الإسلام لا يسدها إلاّ خلف مثله (...) وفي تلك الحجة زرنا سيدي أحمد الزريبي وهو ولي صالح يخبر بالمغيبات كثيرا»** [2]، إلى أن يقول: **«وفي هذه الحجّة، وجدته ميّتا، مقبوراً عند منزل الركب، وعليه روضة عظيمة وقبره يزار»** [3].

▪ كما قد يكون الاسترجاع لاستدراك وملء الفجوات التي يخلفها السرد في النص أو تمَّ نسيانها مؤقتاً، حيث يتمُّ تلافيها بعد مدة من الزمن، ومثال ذلك لما نزل **الورثيلاني** بـ "مصر" في الرَّجعة، و كان بصدد الحديث عن حاكم "بولاق"، فيستذكر ما كان بينهما في مرحلة الذهاب، فيقول: **«وسبب ذلك أن جماعة منا اكترينا من بعض الأتراك جمالا واقبضنا له الدراهم نحو النصف (...) غير أنّ الذي غرنا إظهار الود وحسن الاعتقاد وغاية الأدب (...) والله انخدعنا له لا سيما أن بعض الفقهاء يصاحبه ويكثر التَّردد إلينا معه فصدقناه به (...) نعم بعد اليوم**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 104.
2) ـ نفسه، ص 143-144.
3) ـ نفسه، ص 145.

واليومين ذهبنا إليه فسألنا عنه في محله، فلم يوجد له خبر ولا أثر، ثم مسكنا ولد الفقيه المذكور وعدنا، ثم ذهبت إلى حاكم بولاق الذي الكلام فيه فدخلنا إليه في المحكمة وكلمته في شأن ذلك، وقد رحب بي وفرح فرحا عظيما حتى تعجب الحاضرون ومن معنا إذ لم أره قط، وسألناه عن قصة الرّجل فقال قد مسكنا له جمالا هي بينكم وبعض الناس من مصر له دين عليه فأعطانا بعضها وبقي البعض بيده»[1].

▪ أو قد يكون الإيضاح لاستكمال معرفة ما، إذ تقتضي بعض المعلومات من الرَّحالة الرّجوع إلى الخلف، ومثال ذلك حينما التقى بـ: سيدي **محمد بن القاضي** الملقب **أبا وغثوش** أمير "زواوة" راكبا على جمله مريضاً مرض الإسهال، فيقول: **«فلما وقع بصره علي فرح بي ورحب وضحك، وسألته عن مرضه وحاله، فأخبرني بأنَّه أشتد مرضه في المدينة وبعد خروجه منها، ثم كذلك استمر عليه الحال بعد أن عزم أن يقيم بالمدينة المشرفة لظنه الموت، فضيق عليه بعض الأصحاب بأنَّ أمره بالعزم على السفر لعل الشفاء يحصل فخرج راجيا ذلك»** [2]

❖ **وظائف الاستباق:**

هذا فيما يخص ما استطعنا جمعه من وظائف لتقنية الاسترجاع، أما تقنية الاستباق - وإن كانت أقل وروداً من الاسترجاع - فإنَّ الرَّحالة يستعين بها لتحقيق وظيفتين أساسيتين، الأولى فيأتي بها **كتمهيد** وهي وظيفتها الأساسية، وأما الثانية وهي أن يأتي بها على شكل **إعلان**.

• **وظيفة التمهيد (Advance notice):**

من خلاله يمهد لأحداث سيتم تقديمها لاحقا مع تقدم خط السَّرد «وفي حالات كثيرة يكون الاستشراف مجرد استباق زمني الغرض منه التطلع إلى ما هو متوقع، أو محتمل الحدوث في العالم المحكي، وهذه هي الوظيفة الأصلية والأساسية

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 564.

2) ـ نفسه، ص 543.

للاستشـرافات بأنواعهـا المختلفـة» [1]، إذن فالـدَّور الأساسـي الـذي يلعبـه الاستشـراف هـو التمهيـد وتهيئـة المتلقـي لأحـداث قـد تقـع علـى صـورتها تمامـاً، ومثـال ذلـك مـا تنبـأ بـه مـن مـوت أحـد الحجـاج كـان قـد رأى النبـي ﷺ فـي منامـه، فيقـول: «**فسـرني مـا رأى وطمعت فـي البـرء لـه بيـد أنـي لمـا أخبرنـي بأنـه ﷺ بشـره بـالمغفرة خلـت موتـه**» [2]، ويتحقـق الاستشـراف بعـدها بمـدة ليسـت طويلـة فيقـول: «**فسـرنا آخـر الرَّكـب رويـداً رويـداً، إلـى أن صـلينا المغـرب ثـم العشـاء، ثـم كـذلك إلـى أن سـرنا سـويعات بعـدها فأخبرونا بموت ابن القاضي المذكور فاجتمعنا لتجهيزه ليلا وهي مقمرة**» [3].

وقـد يقـع جـزء منهـا ولا يقـع الجـزء الآخـر، كمـا قـد لا تقـع تمامـاً علـى الصـورة الافتراضـية التـي سـاقها الرحالـة، ومثـال ذلـك مـا توقعـه مـن الشـيالة حـين وصـولهم بنـدر المـويلح فـي طريـق العـودة إلـى مصـر فيقـول: «**فاكترينـا مـنهم جميعـا غيـر أننـا خفنـا مـنهم الخديعـة والهـروب كمـا كـان مـن قـبلهم**» [4] إلـى أن يقـول: «**أحسـنوا إلينـا أحسـن الله إلـيهم وجعـل البركـة لـديهم فلـم يقـع مـنهم نفـور ولا مشـاجرة إلـى أن وصـلنا مصر**» [5].

- **وظيفة الإعلان (Announce):**

وهـو إخبـار القـارئ صـراحة بمـا سـتؤول إليـه الأحـداث مـن تحـولات فـي مقبـل الحكـي، وغالبـاً مـا يكـون ذلـك بصـيغة السـين مـع الفعـل المضـارع مـن قبيـل: (سـنرى لاحقـا، سـأذكر هـذا...)، ومثالهـا قولـه: «**وأمـا ملـوك مصـر وهـم العبيـديون الـذين تسـموا الفـاطميين فسـأذكرهم بعـد إن شـاء الله عنـد التحـدث عـن أحـوال تـونس إن يسـر الله ذلـك**» [6]، وأيضـا قولـه: «**وأنـي سـأذكر مـن ذهـب معنـا مـن الفضـلاء تبركـا بهـم**» [7]، ويكـون الإخبـار بالاسـتباق صـراحة، «لأنَّـه إذا أخبـر عـن ذلـك بطريقـة

---

1) ـ عماد خالد: تجليات الخطاب الروائي (مقاربة في تقنيات السرد)، ص 181.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 543.
3) ـ نفسه، ص 544.
4) ـ نفسه، ص 619.
5) ـ نفسه، ص 619.
6) ـ نفسه، ص 600.
7) ـ نفسه، ص 604.

ضمنية يتحول تواً إلى استشراف تمهيدي أي إلى مجرد إشارة لا معنى لها في حينها ونقطة انتظار مجردة من كل التزام تجاه القارئ» [1]

وعلى الرّغم من الدَّور الفعال الذي تكفلت به تقنية الاستباق، إلا أنّها وردت في مواضع محدودة من نص الرّحلة، وذلك راجع لسببين مهمين هما:

السبب الأول: إن كثرة المقاطع الاستباقية تجعل المتلقي يحيط بتفاصيل كثيرة من مستقبل السرد، وهذا يتنافى مع عنصر التشويق فيه، مما جعل الرحالة يحرص على ألاّ يطلع المتلقي على مقبل الأحداث إلا حين سردها.

السبب الثاني: إن تدوين الرحالة لرحلته على هيئة مذكرات يومية، يقلل من معرفته بالأحداث المقبلة وبالتالي يقل توظيفه للاستباق.

إنَّ ما قدمناه من نماذج لتقنيتي الاسترجاع والاستباق لا يعني أنَّه لا وجود لغيرها، فالرحلة تزخر بالعديد من النماذج، إلاّ أننا وقفنا على ما بدا لنا أنّ له أهمية، تَماشياً مع الاتجاه العام لاستراتيجية الرّحالة في تدوين رحلته وهدفه الأساسي منها.

وإذا كانت حصة الاسترجاع في خطاب الرّحلة الورثيلانية أكبر من حصة الاستباق، فإنّ مرد ذلك إلى الظروف التي ألمت بالرحالة وصيرته ليبحث عن تاريخه الإسلامي.

3) ـ الحركة الزمنية:

والآن وبعد أن درسنا الترتيب الزّمني، فإنَّه من الأهمية بمكان دراسة السّرعة، فهي «إلى جانب الترتيب والتواتر إحدى المقولات الثلاث التي تدرس وفقها العلاقات بين زمن الحكاية وزمن الخطاب، وتحيل مقولة السرعة على التغيرات التي تطرأ على نسق السّرد وإيقاعه، ذلك أن الحركة السّردية لا تجري على نسق واحد وإنّما تراوح بين الإسراع والإبطاء»[2]؛ فما يشهده القارئ من اختلاف في طبيعة هذين الزّمنين، أي زمن الحكاية في شكلها الخام، قبل نقلها إلى المتلقي عن طريق الخطاب، وبين زمن الخطاب الذي يتم من خلاله إيصال أحداث

---

1) ـ عماد خالد: تجليات الخطاب الروائي (مقاربة في تقنيات السرد)، ص 187.

2) ـ محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، ص 147.

الحكايـة، هـو مـا يسـمه **جيـرار جنيـت** بـ (سـرعة الـنَّص)، ويشـير إلـى أنَّـه «يمكـن قيـاس سـرعة الـنّص مـن التناسـب بـين الديمومـة (ديمومـة الحـدث) مقاسـة بـالثواني أو الـدقائق أو السـاعات أو السـنوات، والطـول (طـول الـنص) مقـاس بالكلمـات أو الأسـطر أو الصـفحات، والـنّص المتطـابق (ذو السّـرعة الثابتـة) وهـو الخـالي مـن حركـة الإسـراع أو الإبطـاء، حيـث العلاقـة بـين ديمومـة الحـدث وطـول الـنّص متماثلـة، والتّطـابق الكامـل لا وجـود لـه فـي الواقـع ولا يمكـن أن يوجـد سـوى مـن بـاب التجريـب»[1]، إذن فإيقـاع السّـردي يتـأرجح بـين الإيقـاع البطـيء والسّـريع، فكلمـا زادت المسـاحة الزمنيـة المقدمـة مـن زمـن القصـة، والمقـدرة بـالزّمن الموضـوعي فـي مقابـل تقلـص المسـاحة النّصـية مـن زمـن الخطـاب، نكـون أمـام تعجيـل فـي السّـرد، أمـا إذا تقلصـت المسـاحة الأولى في مقابل اتساع الثانية فنحن أمام إيقاع بطيء للسرد.

وكمـا يشـير **جيـرار جنيـت** أيضـاً إلـى أنّـه لا وجـود للتعـادل بـين السّـرعة فـي الحكايـة والسّـرعة فـي الخطـاب فـي الواقـع، فـلا مكـان للاتفـاق الزّمنـي التّـام (درجـة الصّـفر) بـين زمـن القصـة وزمـن الخطـاب، إذ يصـعب نقـل الأحـداث والأقـوال بسـرعة تسـاوي سـرعتها فـي الحكايـة، بالإضـافة إلـى ذلـك يتعـذر علـى الـرّاوي إعـادة الأوقـات الميتة في القصة [2].

يقـوم السّـرد بصـفة عامـة علـى هـذا النحـو، فمـا دام أن مسـافة السـرد لا تسـاوي ولا يمكنهـا التسـاوي مـع الـزمن الحقيقـي فـي أي حكايـة؛ فـإن الرّحلـة **الورثيلانيـة** تقـف حلقـة ضـمن هـذا السـرد، إذْ أنَّ سـرد وقـائع وأحـداث رحلـة دارت فـي فسـحة زمنيـة طويلـة تقـدر بحـوالي عشـرين شـهراً، فـي أزيـد مـن 700 صـفحةً، يعـد أمـراً مسـتحيلاً تمامـاً، إن لـم يسـبق بعمليـة انتخـابٍ لأبـرزِ الأحـداث وأهمهـا، لأنّـهُ يصـعب علـى أي كاتـبٍ مهمـا بلغـت مهارتـهُ السَّـردية، نقـل جميـع هـذه الأحـداث بتفاصـيلها الدقيقـة فـي مُـدةٍ زَمنيـةٍ مُساويةٍ لزمنِ وقُوعِها.

---

1) ـ عماد خالد: تجليات الخطاب الروائي (مقاربة في تقنيات السرد)، ص 192.

2) ـ ينظر: جيرار جنيت: خطاب الحكاية، ص 101.

ولـذلك فمـن المُؤكـد أن (السـارد/الرحالة) حسـب مجريـات الأحـداث وأهميتهـا، أو حسـب قُدرتـه علـى السـرد، قـد اعتمـد علـى مجموعـة مـن التّقنيـات الزّمنيـة التـي لـم يكـن يـدرك حينهـا أنهـا ستصـبح يومـاً مـا جـزءاً مـن مـنهج سـردي فنـي فـي تحليـل الحكايـة، قلـص مـن خلالهـا المـدة الزّمنيـة، بالضـغط علـى أيامهـا وسـاعاتها الطـوال محـولاً إياهـا إلـى دقـائق معـدوداتٍ، بـل إلـى أسـطر مُحصـاةٍ، بعـد أن خصّـها بانتقـاء المهـم فـالأهم، ومما يراه جديراً بالتدوين.

وحرصـا منَّـا علـى الوقـوف علـى أهـمّ الجوانـب الفنيـة فـي الرحلـة الورثيلانيـة، مـن مبـدإ أنهـا تمثـلُ أحـد الفنـون السَّـردية العربيـة القديمـة، سـنحاول فيمـا يلـي أن نسـتجمع أبـرز مـا توصـل إليـه الباحـث والناقـد الفرنسـي **جيـرار جنيـت** فـي هـذا الجانـب مـن السرد، ليكون سنداً ومعيناً لنا في الدراسة.

أ. تأطير نظري:

إن تتبـع الإيقـاع الزّمنـي فـي الخطـاب السَّـردي ممكـن، نظـراً لاخـتلافِ المقـاطعِ الحكائيـة وتباينهـا، وأمـام هـذا الاخـتلاف يتولـدُ فـي ذهـنِ القـارئ شـعورٌ تقريبـي عـن سـرعة الـزمن أو تباطئـه، لأن بعـض الأحـداث مُهمـة بحيـث يتطلـب عرضـها الوقـوف وتفصـيلها، أمّـا بعضـها الأخـر فـلا تحتـاج إلـى تفصـيل لعـدم أهميتهـا، لهـذا يقتـرح **جيـرار جنيـت** أن يـدرس الإيقـاع الزمنـي مـن خـلال تقنيـات حكائيـة ترتكـز علـى مظهـرين أساسيين هما:

المظهـر الأول: تسـريع السَّـرد، متمـثلاً فـي تقنيتـي الخلاصـة والحـذف، بحيـث مقطع صغير يغطي فترة طويلة من زمن القصة.

المظهـر الثـاني: هـو إبطـاء السَّـرد، ويشـمل تقنيتـي المشـهد والوقفـة، بحيـث مقطـع طويل من الخطاب يغطي فترة زمنية وجيزة من أحداث القصة.

وهـذه التقنيـات السَّـردية يسـميها الحركـات السـردية الأربـع، وسـنأخذها مـع شـيء من التفصيل فيما يلي:

❖تسريع السرد:

وتنحصر تقنيات تسريع السرد في حركتين هما: الحذف والخلاصة.

- **الحذف (Ellipsis):**

هو أسرع الحركات السّردية، إذ «يحيل على مدة زمنية من الحكاية لا يوافقها حيز في النّص» [1]، فهو قفز السَّرد على فترة زمنية من الحكاية بحيث لا يكون لها وجود في الخطاب، وتصنف تلك الفترات المتروكة بأنَّها أحداثٌ غير مهمة في حاضر السَّرد، تمَّ إسقاطها من أجل تعجيل السرد والإمعان في تركيزه.

وقد ميز **جيرار جنيت** من حيث نظرته الشكلية بين نوعين من الحذف [2]:

الحذف المعلن أو الصَّريح: وهو الحذف المشار إليه صراحة في النص، ويذكر فيه الراوي أن قَدراً من الزمن تم اسقاطُهُ من السّردِ، وتكونُ هذه المدةُ المسقطة إما بالسنوات أو الأشهر أو الأسابيع أو الأيام أو الساعات، وهو نوعان:

إما حذفٌ محددُ المدة الزمنية المسقطة من السَّرد، أو حذف غير محدد المدة الزمنية المسقطة من السرد، كما قد يكون حذف الصريح موصوفاً، وسنقدم فيما بعد بعض الأمثلة.

الحذف غير المعلن (الضمني): وهو الذي لا يصرح بوجوده في النص، وإنّما يمكن أن يستدل القارئ عليه من خلال ثغرة في التّسلسل الزّمني أو انحلال للاستمرارية السّردية، تبقى فيه المدة المسقطة من السّرد مبهمة، وعلى القارئ الفطن استنتاجها من خلال ما يبدو في النص من فجوات تدرك بتتبع التّعاقب الزمني للأحداث أو استمرارها، كالسُّكوت عن فترة ما من حياة شخصية ووضعها في الظل ريثما يجري تقديم شخصية أو استعراض حدث طارئ.

- **الخلاصة (Sommaire):**

تقنية من تقنيات السَّرد، يطلق عليها أحياناً (الإيجاز[3] أو المجمل[4]) ، وتشكل إلى جانب الحذف آلية فعَّالة في تسريع الإيقاع السَّردي، وتطلق على مجموعة أحداث قصة مسرودةً بشكل مختصر، بحيث يصبح زمن السَّرد أقصر من زمن

---

1) ـ محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، ص 147.
2) ـ ينظر: جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ص 117.
3) ـ ينظر: يمنى العيد: تقنيات السرد الروائي (في ضوء المنهج البنيوي)، ص127.
4) ـ ينظر: محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، ص373.

الأحداث، فمن خلال هذه الحركة يمكن اختصار أحداث استغرقت أياماً أو شهوراً أو سنوات في بضع كلمات أو بضعة أسطر أو فقرات دون اللجوء إلى التفصيل [1]، و هنا يتضح الفرق بينها وبين الحذف، فهذا الأخير يلغي أو يحذف فترة زمنية بجميع أحداثها، بينما الخلاصة توجزها في سطر واحد أو جملة، بمعنى أنَّ «الحذف يجعل زمن السردي أصغر من زمن الحكاية (الواقع) والمجمل يجعل زمن السرد أقصر من زمن الحكاية» [2]، وتكون الخلاصة (المجمل) على نمطين [3]:

النَّمط الأول **خلاصة الأفعال**؛ وهي تلخيص الراوي لبعض الأحداث، مثلاً: (تزوج محمد، وأنجب أطفالا ودخل ابنه البكر المدرسة).

النمط الثاني **خلاصة الأقوال**؛ وهو المعني بإجمال ما تلفظت به الشخصيات من أقوال، مثل: (ويمكنني أن أجمل ما قاله لي بأنّه خلال الأعوام المنصرمة درس في الجامعة وتخرج ثم توظف وتزوج وأنجب أطفالاً).

❖ إبطاء السرد

وهو الطرف الآخر المقابل لتسريع السرد، وتبرز فيه تقنيتان زمانيتان، هما: تقنية المشهد وتقنية الوصف، وهما تقنيتان تعملان على تهدئة حركة السرد، إلى الحد الذي يوهم المتلقي بتوقف حركة السرد على النمو أو بتطابق الزمنين: زمن السرد وزمن الحكاية.

- **تقنية المشهد (Scène):**

وتطلق على «مواضع القص المفصل الذي قد ينطوي على الوصف المبأر أو الحوار في مقابل السرد المجمل الذي يختصر الأحداث غير الهامة في القصة» [4]، ويعمل المشهد ـ إذا افترضنا سلامته من تدخلات الراوي ـ على إيجاد نوع من التساوي التقريبي بين زمن الخطاب وزمن الحكاية.

---

1) ـ ينظر: محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، ص373.

2) ـ أميرة الكولي: البنى الحكائية في الأدب العربي (دراسة في ضوء المنهج البنيوي)، دار التنوير، الجزائر، د ط، 2013م، ص 96.

3) ـ ينظر: محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، ص373.

4) ـ نفسه، ص 394.

- **تقنية الوقفة (Descriptive Pause):**

وهي تلك المواضع من القصة التي يتوقف فيها سير الزمن في العمل السّردي، بسبب تعطيل سير الأحداث فيه إلى حين، ويمنح السّارد نفسه من خلال هذا التّعطيل فرصة التّعليق أو التّأمل أو التّرجمة أو التّفسير أو غير ذلك من الاستطرادات، وتختص الوقفة بالوصف والاستطراد الخارج عن الحكاية، أمّا تعليقات الشخصيات واستطراداتها فلا توقف سير السّرد لأنّها من صلب الحكاية، وغالباً ما تكون الوقفة وصفية.

وبعد أن استعرضنا أهم ما توصل إليه **جيرار جنيت** في عالم السرد، فإننا سنحاول فيما يلي الوقوف على حقيقة الحركة الداخلية للزمن السردي في الرّحلة الورثيلانية، والوصول قدر الإمكان إلى تحديد دقيق لسرعة النص عبر إقامة العلاقة بين مدة القصة وطول الخطاب الذي يسرده الرحالة، من منطلق أنه سرد ذاتي ترتكز فيه الذات الرحالة على علاقتها بالفضاء المرتحل فيه، مسجلة كل ما هو جديرٌ بأن يحدث أثراً في نفس القارئ(الضمني/الحقيقي)، فلا غرابة إذاً عندما نجد أن (الرحالة/السارد) يعجل من سرعة السرد تارةً، ويبطئ من سرعته تَارةً أخرى في الخطاب الرحلي.

ب. الحركة الزمنية في الرحلة:

إن أهم ما نلاحظه أثناء تتبع وتيرة السّرعة الزمنية **لرحلة الورثيلاني** مدى تباين المعالجة الزَّمنية، في مقابل سرعة الأداء النَّصي، فحينما تتقلص المساحة النَّصية (الخطاب) نلاحظ اتساعاً على مستوى الحكاية، وذلك لوجود التلخيص، أمّا الحذف، فينعدم فيه زمن الخطاب ليتم معه إسقاط مساحة زمنية من زمن القصة، وبمقابل هذا تنتشر الوقفات التي يتقلص فيها زمن القصة مع اتساع لزمن الخطاب، أمَّا المشاهد الحوارية فيتساوى فيها زمني القص والخطاب.

❖حركات تسريع السرد: زمن الخطاب < زمن الحكاية.

إنَّ حركة التَّسريع لا تنجم عمَّا يحمله الخطاب من أحداثٍ هامةٍ وأخرى أقل أهميةٍ، بل هو ناجمٌ أيضاً عن خصوصية في حياةِ الإنسانِ، فالمدةُ لا تشكل في حدِّ

ذاتها حدثاً بالنسبة للمتلقي، فالقول مثلاً: (ظعنا من قرية امدوكال إلى مدينة بسكرة)، المدة هنا ليست مُهمة فهي تتشكل تلقائيا في ذات المتلقي من خلال العودة بالذاكرة إلى خبرته في التعامل مع الزمن ليمنحها زمناً تقريبياً، أما الزّمن الحقيقي بالنسبة للرّحالة هو الزّمن الذي تتم فيه فائدة وظيفية، وهو الزّمن المملوء الذي يستحق أن ينوه بما حمل، بعد أن يحوله من زمن واقعي محدد بميقات فلكي، إلى زمن مصاغ حدثاً في شكلِ خطابٍ يقوم على جمل بسيطة دالة تفيد المغزى، ولأنه «لا وجود لمقطع سردي يوافق مدة ما في القصة» [1]، جاء التسريع في العمل الحكائي على الشكل الأتي:

- **حركة الحـــذف:**

الحذف من التقنيات السّردية التي يلتجئ إليها الكتَّاب لإسقاط أحداث لغايات محددة، فمهما طال زمن هذه الوقائع وامتد لسنوات أو أشهر أو قصر لأيام أو ساعات، فإنَّه على مستوى القول **يقارب الصّفر**؛ إن هذه التقنية شائعة الاستخدام في الرّحلة الورثيلانية، كما تمَّ الاطلاع عليها، فعند حصرها تبين أنَّها متواجدة بنوعيها (المعلن والمضمر):

لقد تكرر استخدم **الورثيلاني** للحذف المعلن محددا المدة في كثير من الأحيان، فعلى سبيل المثال قول الرحالة: «**مكثنا في قابس نحو اليومين واليوم الثالث ظعنا منه**» [2]، أو قوله في طرابلس: «**أقمنا بها ثمانية أيام أولها يوم الجمعة وآخرها مثله**» [3] وقوله أيضا في قرية الرمل، وهي من قرى مصر قرب كفر حمام: «**فمكثنا هناك مدة قريبة تقرب من شهر**» [4]، ويظهر حرص الرحالة الشديد على تقييد زمن إقامته، لكنَّها مع ذلك تمر دون أن نعلم ما جرى فيها إلا القليل، غير أنها أسهمت في تسريع حركة السرد، هذا فيما يخص النَّمط الذي يحدد في السارد المدة المحذوفة بدقة، أما النمط الثاني الذي تكون مدته الزمنية غير محددة، نذكر على

---

1) ـ جيرار جنيت: خطاب الحكاية، ص 108.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 657.
3) ـ نفسه، ص 188.
4) ـ نفسه، ص 604.

سبيل المثال قوله: «**واستقررنا هُناك أياما بخيامنا**» [1]، أو قوله: «**ثم سرنا كذلك أياما إلى أن وصلنا زمورة**» [2]، وكذلك في قوله: «**ثم ظعنا منه صباحا، فسرنا أياما في عافية إلى أن وصلنا إلى مدينة قسنطينة**» [3]، وأيضاً ما ذكره عن مدة إقامته في أمبابة بمصر بقوله: «**وصلنا "أنبابة" وُجاهَةَ "بولاق" فنزلنا فرادى، ونزل معنا بعض الرّكب وبقينا أيّاما هُنَاك**»[4] هذا في طريق الذهاب أمّا أثناء العودة فيقول عنها: «**فنزلنا أنبابة ومكثنا فيه أياما بين متردد إلى مصر وراجع إليها**»[5]، وجميعها عبارات تسقط الكثير من الأحداث والتفاصيل التي تجنب الرحالة ذكرها لعدم أهميتها.

وفي بعض الأحيان يزيد الرحالة من درجة ابهام المدة من قبيل قوله: «**وسألنا الله فيه ما شاء الله ثم مشينا للحجر**» [6]، أو قوله: «**فبعيد ساعة زمنية**» [7] وقد جاء بهذا النمط في العديد من المواضع في الرحلة.

كما أنّنا لم نعدم الحذف المعلن الموصوف، وهذا حينما وصف المدة التي قضاها في "تونس" في الرجعة بقوله: «**وقد مكثت فيها نحو خمسة أشهر ونيف وأنا في تعمير الأوقات بتدريس الفنون وضبط القواعد من العلوم**» [8]، ويؤكد هذا الحذف أن أحداثا كثيرة كانت قد حصلت في الواقع في هذه المدة الطويلة، لكن الرَّاوي تجاوز عن سردها، واكتفى بالتّلميح إلى أبرزها بشكل عام فقط.

في حين نجد أنَّ الرّحالة قد وظف الحذف الضمني في قوله: «**مررنا بحمام الأنف عند الضحى فتحممنا فيه (...) فلما غسلنا واغتسلنا وقضينا وطرا منه ذهبنا إلى تونس**» [9]، والملاحظ أنّ الرّحالة قد أسقط المدة المستغرقة من حمام

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 562.
2) ـ نفسه، ص 702.
3) ـ نفسه، ص 688.
4) ـ نفسه، ص 300.
5) ـ نفسه، ص 603.
6) ـ نفسه، ص521.
7) ـ نفسه، ص 463.
8) ـ نفسه، ص 671.
9) ـ نفسه، ص 662

الأنف للوصول "تونس"، ولم يورد أي إشارة زمنية مع أن المسافة بين المرحلتين في الواقع طويلة جدا؛ كما يمكنه توظيف الحذف باستخدام عبارات محددة لإسقاط بعض الأحداث المروية، فعبارة "أخبرناه السبب" في قوله: «**فلمّا وصلنا إليه أخبرناه بالسَّفَر معه، وأخبرناه السّبب، ففرح وسرّ بنا سرورا عظيما، فلمّا رَحَلَ رحلنا معه**» [1]، أو عبارة ذكرنا له الحجة"، في قوله: «**إذ وجدنا واحدا من الجمالين الذين هربوا، فمسكناه، وربطناه، وإذا بواحد من أصحابه قد استغاث به ليسرحه فلما ذكرنا له الحجة قال سبحان الله أكرى لكم وكر لنا**» [2]، تسقطان أحداث كثيرة هي معلومة للقارئ سلفاً فلا جدوى من إعادة سردها، مما يحتم عليه حذفها بتوظيف هذه التقنية.

- **حركة الخلاصة**.

التلخيص هو تقليص من مساحة الزمن المرتبطة حتما بمسافة الطريق الغاصة بالبلدان ومدن وقرى وأحداث، فهي تقتصر على مواضع دون أخرى وأحداث دون سواها، فراوي قصة الرحلة ليس بإمكانه أن يخبر عن أحداث رحلته كلها التي دامت الأيام والأسابيع والأشهر الطوال، لذلك يكون لجوء الرحالة إلى مقص السبر والانتخاب فيما يبثه في نصه ضرورة حتمية، وفهي «**تجعل من زمن القص زمنا أقصر فقط من زمن الوقائع. وعليه فإن هذه الحركة تعني أن الراوي يقص في بضعة أسطر أو في عدة مقاطع ما مدته سنوات عدة أو أشهر عدة أو أيام عدة**» [3].

لم تخلُ **رحلة الورثيلاني** من هذه التقنية، فلو تتبعنا حركة سرد الرحلة وتطور أحداثها، لوجدناها توظف تقنية التلخيص بأنماط توظيفها المختلفة، سواء تلخيص الأفعال أو تلخيص الأقوال.

ومن نماذج **تلخيص الأفعال**، التي لا تحتاج إلى تفصيلها، وإنَّما يكتفي فقط بالمرور السَّريع عليها، فيختزل على إثرها السَّارد فترة زمنية طويلة تقدر بالسّنوات، هو ما أورده الرّحالة حينما تعرض بالحديث عن قائد "عمورة"، وما

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 302.
2) ـ نفسه، ص 454.
3) ـ يمنى العيد: تقنيات السرد الروائي (في ضوء المنهج البنيوي)، ص 128.

بذلـه مـن جهـود لتـدعيم ركـائز الـدين والعلـم، حيـث يقـول: «**وأمـا قائـد عمـورة فقـد خـرج عـن أجناسـه مـن العمـال، إذ بنـى مدرسـة عظيمـة متقنـة مـا رأيـت أظـرف منهـا وأحسـن مــن صــنعتها، وجعــل فيهــا بيــوت متعــدّدة، ومطهــرة طيبــة، ومســجدا فــي غايــة يستحسـنه النـاظر وجعـل أيضـا بيتـا للتّـدريس وغـرس النّخـل الجيـد وحبسـها علـى المدرســة وزاد أحباســاً عليهــا عظيمــة**» [1]، ومــن المؤكــد أن هــذه المبــاني تحتــاج لسـنوات عديـدة، لكـن السّـارد مـرّ بالسّـرد علـى هـذه الفتـرة الزمنيـة الطويلـة بمقطـع سـردي قصـير، حتـى يتسـنى لـه المـرور سـريعاً علـى هـذه المرحلـة، التـي ليسـت لهـا أهمية فعالة في بناء الأحداث واختزلها في عدة أسطر.

مـن الأهميـة بمكـان أثنـاء الحـديث عـن الخلاصـة مـن بيـان المـدى الزمنـي الـذي تسـتغرقه، وهـو علـى نمطـين، يكـون فـي الـنمط الأول تلخـيص غيـر محـدد بـأي إشـارة زمنيـة واضـحة، كمـا فـي المثـال الـوارد سـابقاً لـم يحـدد السّـارد فـي التلخـيص المـدة الزمنيـة التـي اختزلـت، كمـا أنّـه لـم يـذكر أي قرينـة دالـة تمكننـا مـن تحديـد مـدة التلخـيص، وهـذا يضـع المتلقـي أمـام مهمـة شـائكة يكـون مـن الصـعب خلالهـا التنبـؤ أو التخمـين بالمساحة الزمنية التي استغرقها التلخيص.

وأمـا الـنّمط الثـاني فهـو علـى خـلاف الأول يشـتمل علـى قرينـة مسـاعدة تسـهل علـى القـارئ تقـدير تلـك المـدة، ومثـال ذلـك قولـه: «**ونزلنـا مغيـب الشّـفق قبيـل "الخضـيرة" وصـلينا بهـا الصّـبح، وقطعنـا الـوعرات السّـبع المسـمّات علـى ألسـنة الحجـاج بـ "سـبع وعـرات"، وخرجنـا إلـى متّسـع مـن الأرض، وبلغنـا "ينبـع النخـل" غـروب الشـمس**» [2]، الوقـت المختـزل هنـا امتـد فـي الواقـع مـن بعـد صـلاة الصّـبح إلـى وقت المغرب، عبر عنه الرّحالة بثلاث جمل لا تفاصيل فيها.

وإلـى جانـب تلخـيص الأفعـال نجـد **الـورثيلاني** يقـوم بتلخـيص بعـض الأقـوال، والـذي هـو «خطـاب تلفظتـه الشخصـيات فـي الأصـل ثـم جـرى تلخيصـه وتقطيعـه مـن طـرف الـراوي بـأكثر مـا يكـون مـن الايجـاز والاقتضـاب» [3]، وفـي هـذه الحالـة قـد يبقـي

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 151.

2) ـ نفسه، ص 365

3) ـ حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، ص 154.

السارد على ضمير المتكلم المستعمل في الخطاب، فتأتي الخلاصة بأسلوب مباشر، أي نقل كلام الشخصيات كما ورد على لسانها ودون إجراء تعديل عليه من أي ناحية، ونضرب مثالاً على ذلك بحديث أصحاب سلطان طرابلس بعد أنَّ سألهم عن أحوال ابنه وصديقه أحمد الطيب بعد أن ركبوا البحر من الإسكندرية إلى تونس، يقول: «**سألناهم عن كيفية أحوالهم فقالوا: خرجوا على خير وسلامة بعد أن عذبوا بانكسار المركب، إلاَّ أنَّه انفصل وتبدد بعد نزولهم منه في المرسى، وأنَّهم سكنوا داراً في تونس ينتظرون قدومكم، وأما سيدي أحمد الطيب فقد انفصل إلى بلده استعجله الحجاج وأرادوا تعجيل الأوبة**» [1]، وبإمكانه أيضاً أن ينقل القول المجمل بضمير الغائب مستعملاً الأسلوب غير المباشر في الخطاب، مثلما هو الشأن في قوله على لسان أحد الحجاج: «**وسألته عن مرضه فأخبرني بأنه اشتد مرضه في المدينة وبعد خروجه منها ثم كذلك استمر عليه الحال بعد أن عزم أن يقيم بالمدينة المشرفة لظنه الموت فضيق عليه بعض الأصحاب بأن أمره بالعزم على السفر لعل الشفاء يحصل فخرج راجيا ذلك**» [2]، وعلى الرغم من أن هذه الأحداث قد وقعت في أزمنة متباعدة على مستوى زمن القصة، إلا أن السارد قدمها بشكل سريع وموجز في سياق الخطاب.

ونلاحظ أن الوتيرة الزمنية التي تتحكم في حركة السرد في الرحلة تميل إلى تسريع زمن الخطاب سرد العبور إياب، فهي أقرب ما تكون إلى الإيقاع السردي السريع لكثرة توظيف لتقنياته (التلخيص والحذف) إذا ما قورنت بسرد العبور ذهاباً.

❖حركات إبطاء السَّرد: زمن الخطاب ≤ زمن الحكاية

- **حركة المشهد:**

إن المشهد من حيث المفهوم الفنّي: هو «عبارة عن تركيز وتفصيل للأحداث بكل دقائقها، نجد المؤلف يترك الأحداث تتحدث عن نفسها دون تدخل منه، مما

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 653.

2) ـ نفسه، ص 543.

يكسب هذه المقاطع طابعا مسرحياً» [1]، وفي هذه التّقنية يكاد يتساوى فيها زمن الحكاية مع زمن الواقع من حيث مدة الاستغراق، وإن كان **جيرار جنيت** يؤكد عدم إغفال الفرق بين مدة الحوار الحقيقي الفعلي والجمل المعبرة عنه في النَّص الحكائي، فالحوار الواقعي الذي يمكن أن يدور بين أشخاص معينين، قد يكون بطيئاً أو سريعاً حسب طبيعة الظروف المحيطة، مع مراعاة لحظات الصَّمت أو التّكرار ممَّا يجعل الاحتفاظَ بالفرق بين زمن الحوار وزمن القصة قائماً على الدوام[2].

لقد حفلت الرّحلة بالعديد من المشاهد الحوارية، ويمكن الوقوف على عينة منها، ولعل أول مشهد حواري نرفع السّتار عنه، حينما اجتمع **الورثيلاني** في صغره بأحد الأولياء الصَّالحين وهو سيدي **عبد الرحمن** على مأدبة، وقد جعل صاحب الدَّار الكثير من السَّمن في القصعة يزيد عن الحاجة اكراماً لهذا الولي، فدار بين الثلاثة حوار، اضطر **الورثيلاني** ايراده في رحلته نقله على لسان أصحابه كما هو دون أن يتصرف فيه، ليثبت بذلك ملاقاته مع هذه الشخصيات وتفاعله معها:

«فقال له الشيخ سيدي عبد الرحمن: ما عندك من للمعز أو الضأن؟

فقال له: اثنتان ليس إلاَّ، وكلام الشَّيخ عليه حلاوة وطلاوة.

فقال: هذا الشَّيء في حقك كثير بل واحدة تكفي.

فقلت له: يا سيدي عبد الرحمن ما أشدَّ كثرة المال عندك لا سيّما الذهب والفضة وآلة الحرب.

فقال: والله الذي كان عندي لم يكن عند سلطان الجزائر.

فقال والله يا بني إنَّ الفتحات والمنح لتأتي إليّ من بلاد النَّصارى، فإنَّ بعضهم لما أسرت شاهد مني أمراً عظيما وقد انعدم عنده الذكور، فجعل لي فتحاً كذا وكذا ديناراً على أنَّه إن ولد له ذكر ففتح الله له بالذكور.

فقلت له: فلم تزكي مالك؟

فقال: بنفس وصوله أعطيه لأخي ولأولاده فلا زكاة علي.

فقلت له: هذا لا ينجيك من حق الله الذي أوجبه عليكم.

---

1) ـ عبد العالي بو طيب: (إشكالية الزمن في النص السردي)، فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع 2، 1992م، مج12، ص 139.

2) ـ ينظر: حميد الحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ص 78.

فقال: لا ملك لي حتى تجب علي.

فقلت له: أن رأيتهم منعوا الزكاة، فلا تزد لهم شيئا، فسكت عني إذ كنت بحاثاً» [1]

يجسد لنا هذا المشهد الحواري الذي وقع في الماضي تزامنا بين واقع الحدث وزمن تمثيله سردياً، إذ لا يمكن للسارد تشطيره ما دام أنه يعتمد على المنطق الزمني، الذي يسير في تتبع السّؤال والجواب، والملاحظ أن حركة السَّرد قد توقفت تماماً لصالح تقنية العرض، التي عبرها تتمُّ مسرحة الأحداث.

وعلى أية حال، فالمشاهد الحوارية التي وقعت في ماضي السَّرد قليلةٌ نسبياً، إذا ما قورنت بتلك التي تقع في حاضر السَّرد، التي تنتشر في متن الرحلة، وعلى سبيل المثال، الحوار الذي دار بينه وبين الشَّيخ **الهاشمي المغربي** يقول: «**كنت لا آكل سمناً ولا لحماً ولا أداماً، فإنْ رُمتُ شيئاً من ذلك خرج عقلي، فلمَّا وصلت داره، فأتى بكلّ ما منعت منه، فقال لي: كلْ ولا تَخَف، قلتُ: خفت زوال عقلي إذا جربت نفسي في ذلك، فقال لي "كلْ فأنت مأمون من كلّ ما تخافه بإذن الله تعالى»** [2]، ومن المشاهد الحوارية أيضاً، ما دار بينه وبين الحاج السَّيد **عبد العزيز**، لمَّا رجعا إلى المحل الذي نزل فيه الرَّكب للبحث عن طاجين قد نسيَّه الشَّيخ، فيقول: «**نعم لما رجعنا إلى منزله فبحث عنه فقلت له: في أي مكان خبأته؟ فقال: قرب التَّنور، غير أنّي غطيته بالرمل حين فرغنا من طبخ الخبز»** [3]، والملاحظ عن هذين المشهدين وعلى خلاف المثال السابق، لم يغطيا مساحةً زمنيةً كبيرةً من زمن القصة، وقد كثف السارد من استخدام هذا النمط من الحوارات القصيرة في متن الرحلة، ربما حرصاً منه على التَّقدم في الزمن.

ومن الملاحظ بشكل عام أن السَّارد لم يعتمد كثيراً على تقنية المشهد لإبطاء الزمن في الرحلة لعدة اعتبارات أهمها أنّه سارد مستبد تقل فيه منح الفرصة للغير.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 628.

2) ـ نفسه، ص 319.

3) ـ نفسه، ص 557.

• حركة الوقفة:

هي إلى جانب المشهد إحدى تقنيات تعطيل زمن السّرد، وتعليق سير الأحداث تعليقاً قد يطول أو يقصر، وقد احتلت هذه التقنية مكانةً كبيرةً في الرحلة، وتتحدد أهمية الوصف في أنّ السّارد يوقف مجرى الأحداث فيجند طاقاته ليصف مكاناً أو شخصاً أو شيئاً [1]، وهذا من منطلق أنّ الرحالة يحاول رصد كل ما شاهد وسمع، فينقل كل ما وقعت عليه عيناه من مشاهد شتّى تتعلق بالمسالك والممالك والسكان والمخلوقات لا يستطيع القارئ النظر إليها، وما نقل نعته إلى المسرود له، إلاَّ محاولة من السارد اصطحاب المسرود له (القارئ الضمني) لمعاينة ما عاين ولخلق حالة مشتركة من التفاعل والأحاسيس بينهما.

ـ وصف الأمكنة:

إنَّ الرّحلة فن مكاني بامتياز، وقد شغل الرحالة بالأماكن وكانت هدفه الأول، فكان كثيرا ما يضطر أثناء تنقلاته إلى الوقوف عند الأمكنة خاصة تلك التي استهوته، فقدّم لها عن طريق الوصف صورة متميزة، سواء تعلق الأمر بصورة التقطتها عيناه أو منقولة عن غيره.

ويصف الرحالة إحدى المدن قائلا: «**وزمورة كثيرة المياه، وأرضها ذات زرع وضرع بلا اشتباه، طعامها جيّد، وسوقها عامر مفيد، وفيها برج للنّوبة من الترك**» [2]، ومن وصفه قوله: «**أمَّا أجدابية فكانت عمارة وآثارها باقية إلى الآن وفيها آبار متفرقة كثيرة المياه أرضها طيبة أحسن الأرضين، فيها خصب وزرعها طيب لا نظير له فيما علمت وأبارها سفح أحجار، ماؤها عذب طيب سائغ شرابه، فليس كماء الصَّحاري كأنّه ماء الجبل، والعيون وتلك الأحجار التي فيها الآبار متصلبة ليست رخوة**» [3]، ويصف قرية "عرام" بالقول: «**قرية ذات مياه عذبة ومزارع وبساتين، ومن مات دفن فيها، وفيها مزارات كثيرة وروضات مبنية**

---

1) ـ محمد القاضي وآخرون: معجم السرديات، ص 472.

2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 97.

3) ـ نفسه، ص 620.

تراها كالنجوم في السماء» [1]، ونلاحظ من خلال هذه المقاطع أنَّ الزَّمن متوقف تماما.

ـ وصف البشر:

لم يهتم **الورثيلاني** كثيراً بوصف الأشخاص رغم الأعداد الكثيرة التي مرَّ بها أثناء تنقلاته من مكان إلى آخر، واقتصر فقط حول بعض الشّخصيات السياسية أو الدينية مما برزت فيهم صفة التميز، فالوصف «عند الرحالة يتشكل بما يصنعه المرئي من استثناء، وهي جملة العناصر المائزة التي ترسخ في ذاكرته ضمن شريط رحلته، إذ ليست كل الشخصيات تستحق التنويه، فمن بين مئات أو آلاف البشر التي تألف منها مرئيات الرحالة لا يذكر منها إلا شخصيات محددة» [2]، ومن هذه الشخصيات نذكر وصفه لحاكم "بولاق"، فيقول فيه: «**وحاكم بولاق هذا رجل كبير السن، حسن الصورة، عريض الوجه مشرب بحمرة طويل اللحية كثيف الحاجبين**» [3] ، وأيضا وصفه لخطيب "مكة"، في قوله: «**وهو رجلُ شريفٌ كبير السِّنّ، وكلامُهُ عليه حلاوةٌ وطلاوة، يعلوهُ نورُ، وهو أجمل خلق الله قَّداً وخَدّا، بياضُهُ مشربٌ بحمرةٍ، وسيعُ الوجهِ يَتَلَألأُ نوراً قد شاب، فلم تبق فيه شعرة سوداء -والله أعلم- ولو حواجِبُهُ، لا يَسأَمُ النّاظر فيه، فعلمت أن الله نوّر بصيرته وطَهَّرَ سريرتَهُ، وأعلى همّتَه**» [4]، وقد غلب على هذين الوصفين اعتناء الرحالة بالشكل الخارجي، فاهتم ببيان إطار عام لشكل الوجوه ولون الشعر والبشرة واضفاء سمات حسن المنظر والهيئة.

كما نلمح نوعاً من الوقفات الوصفية غير التي تهتم بالشكل، وإنَّما يهتم فيها الرّحالة ببعض السّمات العامة للموصوفين العلمية والخُلقية العامة قوله: «**ومنهم ذو العلم والمهابة، والحلم والإنابة، والسّطوة والاستجابة، والتّحقيق والإصابة، ذو العلوم الفاخرة، والأحوال الصّادقة الظّاهرة والأنوار الباهرة، والأسرار الحاضرة،**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 655.
2) ـ عيسى بخيتي: أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص 578.
3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 564.
4) ـ نفسه، ص 426.

الزّاهد بالتّحقيق، بعد التمكين من الدنيا كما يليق، نبذها وراء ظهره، دفعًا لنفعه وضّرِه عند جميع الأفاضل مرغوبٌ، الولي الكامل سيدي الموهوب» [1]، وأيضاً قوله: «**الولي الصالح العلامة الفاضل والمحقق الكامل والناقد الإبريز سيدي علي بن عبد العزيز»** [2].

ـ وصف الأشياء والحيوان:

«وفي طباع الحيوانات غرائب وكذا الغنم لا يسوقونها إنَّما يسير صاحبها أمامها قلت أو كثرت وهي تتبعه فإذا أمهل في السير أمهلت وإذا أسرع أسرعت وإذا جرى جرت» [3]

وفي قوله أيضا: **«لم أر أسرع مشياً من حمر "الحجاز" ولا أوطأ مركبا، ولا أقلّ لغبا من السرعة المفرطة في المشي»** [4]

وعلى أية حال، **فالرحلة الورثيلانية** تنحو في ايقاعها الزمني في سرد العبور ذهاباً نحو وتيرة أبطأ، فيقل فيه استخدام (الخلاصة والحذف) ويكثر فيه استخدام (المشاهد الحوارية والوقفات الوصفية)، وهو «ما يعكس نفسية الرحالة الراوي المتطلعة إلى الوصول للهدف، ففي الرحلة الحجية ينبني السرد متوسط الحركة بين البطء والسرعة، باعتبار أن الرحالة يتعجل الوصول إلى الحج، فيحيا عبوراً مضاعفاً على المستويين المادي والنفسي» [5]، وهذا على خلاف سرد العبور إياباً الذي يشهد حركة أسرع.

خلاصة القول:

▪ إن الرحلة باعتبارها نوعاً من الحكي، فهي تتفاعل بحساسية كبيرة مع الزمن وتحولاته، فحركة الزمن فيها مرهونة بحركة الرّحالة الذي يحرك الأحداث، خاصة

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 65.
2) ـ نفسه، ص 89.
3) ـ نفسه، ص 243.
4) ـ نفسه، ص 453.
5) ـ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص 215.

وأنّ الـزمن فيهـا نوعـان: زمـن القصـة الـذي يسـير وفـق التّتـابع المتسلسـل للأحـداث، وزمن السّرد لا يخضع لهذا التتابع الزّمني المنطقي.

▪ يقتـرن فعـل السّـفر بفعـل الكتابـة، وهـو شـرط وجـودي للرّحلـة ويسـير الـزمن فيهـا وفـق محـاور ثلاثـة: الـزمن الطبيعـي ويتحـول الخطـاب الرحلـي فيـه الـى سـرد تنـازلي وهـو (زمـن الانطـلاق، زمـن العبـور زمـن الأداء، زمـن العـودة)، وتتميـز هـذه الأزمنة بالتداخل.

▪ الـزمن الحـافز يسـتدعي السّـفر، والسّـفر يتحـول الـى نـص والكتابـة تسـتدعي النسـخ، وزمـن الحـافز يبـدأ مـع نيـة **الـورثيلاني**/ الرّحالـة فـي السّفر للحـج، ثـم يـأتي زمـن الانتقـال أفقيـاً تتابعيـاً، وزمـن المغـادرة: (الانطـلاق بدايـة الحكـي) ومـيلاد الرّحلـة، زمـن العبور: من بني ورثيلان إلى مكة وهو الزّمن المهيمن، على مساحة الخطاب.

▪ اعتمـد **الورثيلاني** على التقويم الهجري، ولكنـه لم يكن على نسـق واحد في الدّقة الزّمنية، فكان تركيزه على الأحداث أكثر، حيث أشـار إليه بعبارات صـريحة عامة، وفي المقابل أظهر حرصـاً على تحديد مدة إقامته في الأماكن التي نزل بها، وهي مدد اتسـمت بالتذبذب، وكان الغرض منها غالباً الاستزادة في المؤن.

▪ لجأ **الورثيلاني** إلى الزمن الاعتباطي بمؤشـرات عامة وضـمنية وبقي وفياً لتوظيفه على طول مسار الطريق، وتعامله مع الزّمن له طابع القداسة، فالزّمن عنده لا يتحدد بالترتيب المتسـاوي في ميقاته، بل بما يتضـمنه من وظائف مرجوة من دوافع الرّحلة، كما اهتم بزمن الذهاب من خلال وصـفه الدقيق للمراحل التي قطعها ركب الحج بدءاً من مغادرتهم حتى وصولهم إلى مكة.

▪ لم يشـر **الورثيلاني** إلى تاريخ وصـوله مكة الذي يبدأ بإحرامهم، لحرصـه على أداء المناسـك وانشـغاله بالفرائض وترتيبها، وفق الأوقات الشّـرعية، فظهرت الإشـارات الزّمنية بصـورة مكثفة وهي مرتبطة بالجانب الديني، ولم يهتم بالزمن الصـريح يحدده أحياناً ويتغافل عنه حيناً آخر حيث أعطى الأولوية لفعل التعلم، أما زمن العودة /زمن التّقييد فهو زمن لاحق لزمن السّفر لم يحدد بدايته وحدد زمن الانتهاء.

▪ رغم أن أحداث الرّحلة خاضعة لسلطة التّاريخ متعاقبة ومتزامنة مع الزمن الواقعي وهو ليس زمناً مفارقاً، فالرّحالة / السّارد كثيرا ما يتدخل ليقطع هذا التّعاقب بالاستباق أو الاسترجاع، وإعادة ترتيب الأحداث لغاية سردية.

▪ فرضت ظروف السّرد على **الورثيلاني** توظيف الاسترجاع (الخارجي) بنوعيه: **الموضوعي** في مواضع كثيرة، وقد يطول بشكل لافت خاصة في الذهاب، **والذاتي** ليسترجع بعض أحداث رحلتيه السّابقتين، أو أيام شبابه وطفولته، قياساً بالداخلي وهو استباق أحداث الرّحلة أثناء الذهاب.

▪ تنوعت وظائف المفارقة السردية، منها وظائف الاسترجاع: التنويع في أساليب السرد والمراوحة بين حاضر الحكاية وماضيها ومستقبله، ويكون بغرض التوضيح، الكشف عن تاريخ مكان من الأماكن آو المقارنة بين الأماكن تشابهها واختلافها الاستدراك وملء الفجوات او لاستكمال معرفة ما. ووظائف الاستباق: منها التمهيد لأحداث لاحقة وتهيئة المتلقي لها، والإعلان: الإخبار صراحة بما سيقع لاحقا، والملاحظ أنّ **الورثيلاني** قلل من توظيف تقنية الاستباق كي لا يفقد القارئ عنصر التشويق، أو لأنه اعتمد طريقة المذكرات قبل تدوين رحلته كاملة.

▪ يتأرجح الإيقاع السّردي في الرّحلة بين البطيء والسّريع، فالرّحلة الورثيلانية دامت عشرين شهراً وجاءت في أزيد من (700) صفحة، سبقتها عملية انتخاب لأبرز الأحداث وأهمها: التسريع: بالخلاصة والحذف، والإبطاء بالمشهد والوقفة الوصفية.

ثانيا: بنية الفضاء في الرّحلة.

1) -إشكالية المصطلح (الفضاء / المكان):

وكما شكل الزّمن في خطاب الرّحلة بنية ذات أهمية بالغة [1]، كان لبنية المكان أيضاً الأهمية نفسها، باعتبار أنَّ الرّحلة انتقال في الفضاء، ويكون هذا الانتقال من مكان إلى مكان آخر، هو العنصر الأساسي والإطار التي تدور فيه

1) ـ سبق الإشارة إلى أهمية بنية الزمان في الرحلة. ينظر عنصر بنية الزمان في الرحلة.

الأحداث والأفعال [1]، وعليه فإنّه لا يمكن الفصل بين البنيتين، فهما مرتبطتان مع بعضهما البعض ولا يمكن أن تظهر احداهما إلا في إطار الأخرى.

إنَّ حديثنا عن البنية المكانية منفصلاً عن البنية الزّمنية لا يعني بأي حال من الأحوال قطع الصّلة بين البنيتين أو محاولة إبراز هذه البنية منفصلة عن تلك، فهما منصهرتان معاً، بل مع جميع البنيات المكونة للعمل الأدبي؛ وقد عرضت الدراسة في عنصر السّرعة، إلى دور الرحالة في إبراز جمالية المكان، من خلال توظيف أسلوب **وصف الأمكنة**، في ظل حركية الزّمن وامتداده، حيث احتل هذا التوصيف الجغرافي مساحة واسعة في خطاب الرحلة.

كما أنّ الحديث عن المكان كمقومٍ أساسيٍ من مقومات الكتابة الرحلية منفصلاً عن جانب السّرد، يعد أمراً بعيداً عن الواقع، إذ لا يمكن تصور وجود كتابة رحلية دون الحديث عن سرد وقائع متنوعة جرت في أماكن مختلفة ومتعددة، ويؤكد هذه الحقيقة الناقد عبد الرحيم مودن بقوله: «إنَّ الرّحلة نص يتأسس بناؤه بواسطة المكان الذي يتم تقديمه بوسائط عديدة جعلت الرحلة فناً من الفنون المكانية (...) وهكذا يصبح الشَّكل في الرحلة شكلاً فضائيا استناداً إلى مكون المكان الذي يصبح مكوناً سردياً مركزياً» [2]، إنَّ الحديث عن المكان يجرنا إلى التّمييز بينه وبين الفضاء، وعليه بات من الضروري طرح السؤال التالي:

ما المقصود بالفضاء في الحكي؟ [3].

لقد تأخر الاهتمام بدراسة الفضاء في الحكي مقارنة بالزَّمن، إذ يعد هذا المجال حديث العهد، مما أفضى بهذه الدراسات إلى تقديم مشاريع متمايزة، لا تقدم مقاربة وافية ومستقلة للفضاء الحكائي باعتباره ملفوظاً حكائياً قائم الذات وعنصراً من بين العناصر المكونة للنّص، بل شكلت مسارات بحث مختلفة، باختلاف الزاوية التي تنظر منها كل دراسة [4]، ويقر الناقد **هنري ميتران (H.Mitterand)** بهذا،

---

1) ـ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص 317.

2) ـ ينظر: محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية (بين المعرفة والأدب)، مختبر البحث في التراث والأعلام والمصطلحات، الرباط، ط 1، 1433هـ - 2012م، ص 209.

3) ـ سنحاول الإجابة على هذا التساؤل من خلال التحليل السردي للرواية ثم نحاول مقاربته إلى مجال دراستنا.

4) ـ حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، ص 25.

إذ يصرح أنَّه: «لا وجود لنظرية مشكلة من فضائية حكائية، ولكن هناك فقط مسار للبحث مرسوم بدقة، كما توجد مسارات أخرى على هيئة نقاط متقطعة» [1]، وهذا ما يجعل من مقولة **"الفضاء"** «مجالاً مفتوحاً للاجتهاد والتصورات المتعددة التي لم تصل إلى حد بلورة نظرية عامة» [2]، وفي ظل غياب نظرية للفضاء الحكائي، تعددت تصورات الدارسين الغربيين له، يمكن حصرها في أربعة أشكال هي:

أ. الفضاء الدلالي:

يتعلق هذا النوع بالجانب الدلالي لأيّ عمل أدبي، فلكل (دال) (مدلول)، والنّص هو مجموعة من الدّوال التي تتضمن مجموعة من المدلولات، «ويشير إلى الصورة التي تخلقها لغة الحكي وما ينشأ عنها من بعد يرتبط بالدلالة المجازية بشكلٍ عام» [3]

ب. الفضاء كمنظور أو كرؤية:

يتحدد مفهومه بالعلاقة بين الناص ونصه، من حيث «الطريقة التي يستطيع الراوي بواسطتها أن يهيمن على عالمه الحكائي بما فيه من أبطال يتحركون على واجهة تشبه واجهة الخشبة في المسرح» [4]، فلكل كاتب الزاوية التي ينظر منها إلى نصه، ويمكن للكاتب الواحد أن تكون له عدة منظورات للنص الواحد، فتجده يتعامل مع هذه الكائنات النَّصية/ القصصية وفق ما يراه الأنسب وذلك ما يمكن أن نسميه الأسلوب أو «الخطة العامة للرَّاوي أو الكاتب في إدارة الحوار، وإقامة الحدث الروائي بواسطة الأبطال» [5] الذين يختارهم لأحداث معينة في فضاء يراه الأنسب لهم.

---

1) ـ حميد الحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ص 53.

2) ـ سعيد يقطين: قال الراوي (البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1997، ص 238.

3) ـ حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ص 62.

4) ـ نفسه، ص 62.

5) ـ نفسه، ص 62.

وبحسب الباحث **حميد لحمداني**، فإنَّ مفهوم الفضاء كمنظور والمفهوم الذي سبقه الفضاء الدلالي مفهومين يملكان التسمية دون أن يدلا على مساحة مكانية معينة في الحكي.

ج. الفضاء النصي:

يرتبط هذا المفهوم بشكل النَّص الأدبي، وهذا ما يميزه عن غيره من الأشكال الأدبية الأخرى، فبنية الرّواية تختلف عن بنية القصة أو بنية المقامة مثلًا، ومن ثمَّ فإنَّ فضاء الرّحلة التي نحن بصدد دراستها، له خصائصه ومكوناته التي تميزه عن بقية الأجناس الأدبية الأخرى، إذن فهو «فضاء مكاني، لكنّه متعلق فقط بالمكان الذي تشغله الكتابة الحكائية ـ باعتبارها أحرفا طباعية ـ على مساحة الورق ضمن الأبعاد الثلاثة للكتاب» [1]، من طول وعرض وارتفاع ومن اسم المؤلف، عنوان الكتاب والعلامات التنصيصية، ودار النشر وبقية معلومات النشر والطبع.

د. الفضاء الجغرافي:

لا تخلو الأعمال السَّردية من فضاءات جغرافية تكون مسرحاً لأحداثها وإطارها الذي تدور فيه تفاصيلها وتتموضع فيه شخصياتها و«يفهم الفضاء في هذا التصور على أنه الحيز المكاني في الرواية أو الحكي عامة، ويطلق عليه الفضاء الجغرافي (L'espace géographique)» [2] بأبعاده الهندسية المعروفة وهو بذلك «مقابل لمفهوم المكان، ويتولد عن طريق الحكي ذاته، إنَّه الفضاء الذي يتحرك فيه الأبطال، أو يفترض أنهم يتحركون فيه» [3]، إذ لا يمكن أن ينبني أي نص سردي دون فضاء تتحرك فيه الكائنات السردية جميعها.

وإذا كان أصحاب هذا الطرح قد جعلوا الفضاء كمعادل للمكان، فإنَّ بعض النقاد يميز بين المصطلحين، فالمكان هو الموضع الذي تقع فيه الأحداث (Place)، وهو ما يقابله في العربية لفظ (المكان)، وهو الذي يقع فيه الفعل؛ أما الفضاء

---

1) ـ حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ص 62.
2) ـ نفسه، ص 53.
3) ـ نفسه، ص 62.

(Espèce) فهو ذلك الفراغ، أي الفضاء الخارجي الذي يحيط بالمادة، [1] فهو الامتداد اللامحدود الذي يشمل كل الامتدادات الجزئية المحدودة، فالفضاء أكبر و«أشمل، وأوسع من معنى المكان والمكان بهذا المعنى هو مكون الفضاء» [2] وجزء منه وإن مجموعة من الأمكنة تشكل فضاء.

وخلاصة القول: إنَّ «المكان يصبح موحياً إلى البعد الجغرافي الحسي، أو الحيز المحدود الذي يشكل ديكوراً أو إطاراً للأفعال والأحداث، في حين أنَّ الفضاء يتسع لشتَّى أشكال المكان وأنماطه، انطلاقاً من كونه أعمّ من المكان؛ حيث يشير إلى ما هو أبعد وأعمق من التحديد الجغرافي، وإن كان أساسيا، فالفضاء يسمح بالبحث في فضاءات تتعدى المحدود والمجسد لمعانقة التخييل والذهن، ومختلف الصور التي تتسع مقولة الفضاء» [3]، وهذا هو النّوع من الفضاء الذي سنبحث في مكوناته داخل متن الرّحلة.

2) ـتأسيس فضاء الرّحلة:

إنَّ المفهوم المركزي الذي سنبني عليه مقاربتنا التحليلية للفضاء في الرّحلة الورثيلانية هو مفهوم التقاطبات المكانية **(Polarités spaciales)**، الذي أوضحته العديد من الدراسات السردية الغربية، ومن أوائل هذه الدراسات، ما جاء في كتاب "جماليات المكان" **(la poétique de l'espace)** للناقد **غاستون باشلار(Gaston Bachelard)** لما قام بدراسة جدلية الداخل والخارج المتضمنة في المكان، وقابل بين (القبو والعلية) وبين (البيت واللابيت) [4]، سعيا منه للقبض على الدلالات والمعاني وتحديد القيمة الإنسانية للمكان في ذاكرة الإنسان ووجدانه.

ولقد وجدت هذه الفكرة ـــ فكرة التقاطبات ـــ امتدادها مع العديد من الدارسين، ولعل أبرزهم على الاطلاق **يوري لوتمان (Youri Lotman)**، باعتباره أول من أقام نظرية

---

1) ـ ينظر: عبد القادر بن سالم: بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد، منشورات الاختلاف، ط 1، 1434هـ ـ 2013م، ص 115.

2) ـ حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ص 63.

3) ـ عبد القادر بن سالم: بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد، ص 115.

4) ـ ينظر: غاستون باشلار: جماليات المكان، تر غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1404هـ - 1984م، ص 35.

متكاملة لها، في كتابه "بنية النَّص الفنّي" **(La structure de texte artistique)**، وقد أقام دراسته حول التقاطبات على فرضية أساسية، وهي أنَّ الفضاء «مجموعة من الأشياء المتجانسة (من الظواهر والحالات، والوظائف، والصّور، والدلالات المتغيرة)، التي تقوم بينها علاقات شبيهة بتلك العلاقات المكانية المعتادة (الامتداد والمسافة)» **(1)**، وتأتي هذه التقاطبات في شكل ثنائيات ضدية تجمع بين قوى أو عناصر متعارضة، بحيث تعبر عن العلاقات والتوترات التي تحدث عند اتصال الراوي أو الشَّخصيات بأماكن الأحداث **(2)**.

وعرفت دراسة **يوري لوتمان** حول التقاطبات - باعتبارها أداة إنتاج للدلالة - بعض الإضافة، من خلال مشروع **جان فيسجربر (G.Weisgerber)** من خلال مشروعه **الفضاء الروائي (L'espace romanesque)**، الذي لفت الانتباه فيه إلى «أهمية اللغة في تشييد فضاء الرواية، وتنويع تضاريسه وإبراز تمظهراته على عكس فضاءات أخرى كفضاء السينما والمسرح التي يتم إدراكها بواسطة حاستي السّمع والبصر بينما يدرك الفضاء الرّوائي بواسطة اللغة اللفظية المكتوبة، لتصبح نسقاً يؤسس لفضاء المحكي الأدبي وينظم مواصفات الفضاء عبر تحقيقات تخييلية تتصل بوصف الأحياز المكانية، وقياس تضاريسها وامتدادها» **(3)**، وهذا يؤكد على الدّور الهام الذي تقوم به اللغة في السرد.

لكن ما يجب التأكيد عليه في هذا المقام، هو أنَّ ما يتمتع به الفضاء في الرّحلة الورثيلانية من طبيعة أدبية يعد أمراً نسبياً، فلا يمكننا اعتباره بأي حال من الأحوال إنتاجاً خيالياً كما هو الفضاء الروائي الذي يتأسس «بوصفه فضاءً نصياً خالصاً يوجد من خلال الألفاظ والكلمات وينتجه الخيالُ الحكائي، فيما ينتج من عناصر أخرى ينهض عليها العالم الروائي» **(4)**.

---

1) – حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، ص 34.عن Youri Lotman: La structure du texte artistique. Trad Franç: Anne Fournire et autres. Ed Gallimard 1973.p.331.

2) – ينظر: حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، ص 33.

3) – منى بشلم: شعرية الفضاء (في الرواية الجديدة مقاربة تطبيقية في النقد الجغرافي)، عالم الكتب الحديث، عمان، ط1، 2018م، ص 94.

4) – كمال بولعسل: رحلة أبي حامد الغرناطي (دراسة في فضاء الرحلة)، نوميديا، قسنطينة، ط2، 2013م، ص137. نقلا عن: جماعة من الباحثين: الفضاء الروائي، تر: عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، بيروت، 2002، ص 6.

إذن لا بـدَّ مـن أن نؤكـد علـى تمييـزٍ هـامٍ، وهـو أن المكـان فـي السـرد المتخيـل والرّوايـة بالتّحديـد «يتشـكل كموضـوع مسـتقل للفكـر ويتضـمن مبـررات وجـوده فـي ذاتـه أكثـر ممـا يحيـل علـى أمكنـة محسوسـة أو مدركـة مباشـرة» [1] وبالتـالي فـإنَّ الفضـاء علـى مسـتوى هـذه الأجنـاس المتخيلـة سيخضـع لعمليـة انتقـاء دلاليـة مسـبقة تسـتهدف الإغـراء الأسـلوبي والأداء الشّـعري بغـرض لفـت انتبـاه القـارئ، مـن خـلال بسـط سـلطة التخييـل السـردي عليـه؛ بينمـا الفضـاء فـي الرحلـة لا ينبثـق مـن هـذا المبـدأ وإنَّمـا ينطلـق أساسـاً مـن الفضـاء الـواقعي، فالرَّحالـة أثنـاء إرسـائه لـدعائم الفضـاء فـي نص رحلته يلتزم بالواقعية دون أن يجري أي تحويرات أو تغييرات.

لكـن ومـن منطلـقِ محاولتنـا الاسـتفادة مـن أهـمِ الإنجـازاتِ فـي مجـالِ تحليـلِ الفضـاء فـي الأعمـال الحكائيـة، حَاولنـا تَقريـب هـذا التَّصـور فـي الدّراسـة التـي نسـعى إلـى تحقيقهـا، علـى أسـاس «أنَّ الفضـاء فـي العمـل الحكـائي أساسـه هـو اللغـة، لـذلك فمهمـا كانـت درجـة "واقعيتـه"، أو حضـور مرجعـه الخـارجي، فإنـه يظـل تمثـيلاً ذهنيـاً للفضـاء» [2]، وبالتـالي فالمكـان وهـو «يتحـول مـن بنـاء فـي الواقـع إلـى معمـار نصـي، يعيـد تشـكيل "ذاتـه" مـرة أخـرى، ضـمن التشـكيل العـام للرحلـة، ويطـرح أسـئلة مغـايرة تسـتبعد كـل تبسـيط فـي المنظـور الـذي يقاربـه مـن زاويـة انعكاسـات واقعيـة، تستحضـر المكـان كـأثر فـي الـنفس ورسـوم تذكريـة تؤسـس لمصـفاة لا تحـتفظ إلا بالمـذوت والإطـارات الكبـرى التـي يمكـن الإقتـراب منهـا إجرائيـا» [3]، لفهـم بعـض آليـات اشـتغال الفضاء في النص الرحلي.

3) ـ فضاء الرحلة بين (الإقامة/الانتقال):

يعـد المكـان عنصـراً هامـاً فـي الرحلـة، كيـف لا؟ والرَّحالـة يتعامـل معـه تعـاملاً حتميـاً وضَـرورياً، فهـو السّـبيل التـي يسـيرُ فيهـا، والمجـال الـذي يعـيشُ فيـه، والمـأوى الـذي يسـكنُ إليـه، وإذا كانـت الأعمـال الأدبيـة التخييليـة (خاصـة الروايـة) ترتكـزُ علـى

1) ـ كمال بولعسل: رحلة أبي حامد الغرناطي (دراسة في فضاء الرحلة)، ص 138.
2) ـ سعيد يقطين: قال الراوي (البنيات الحكائية في السيرة الشعبية)، ص240.
3) ـ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص 319.

المكـان كبـؤرة لشخصـياتها، ولا تنفـك عـن ذلـك، فإنهـا فـي جـنس الرحلـة تتعـزز روابـط الوثاقـة بينهمـا، وذلـك مـن بـاب أولـى لأن الرحالـة مكلـفٌ بتبئيـرِ الأمكنـةِ التـي يَجعـلُ سبيلها مطية لاقتفاء كل أثر وسعياً وراءَ كلِ مطلبٍ.

لقـد انطلـق **الـورثيلاني** وهـو الشخصـية المهيمنـة فـي الرحلـة مـن موطنـه بنـي ورثـيلان متجهـا لأداء فريضـة الحـج، عبـر مسـافة تقـدر بـأكثر مـن سـتة ألاف كيلـو متـر، ممـا يعنـي أنـه سـيحل ويرتحـل عبـر العديـد مـن الأمـاكن، التـي تختلـف صـورتها فـي ذهنـه بـاختلاف المواقـع الجغرافيـة، واخـتلاف المجتمعـات ومـا تحتويـه مـن نمـاذج بشـرية، وعادات وتقاليد، وهذا يعني أنَّ الأمكنة في الرحلة ذَاتَ طَابِعٍ متعددٍ وليس واحد.

وهـذا التّعـدد جعـل مـن المكـان يشـكل البـؤرة المحوريـة فـي العمـل الرحلـي أو هـو المحـور الـذي يتفاعـل معـه الرّحالـة أثنـاء سـيره ووقفاتـه ومشـاهداته، باعتبـاره هـو الطريـق وهـو السّـهول والجبـال والوهـاد، والشّـعاب، وهـو الصّـحاري والسّـباخ وهـو البحـر والنهـر والوديـان، وهـو المـدن والقـرى والبلـدات، وهـو المـدارس والمسـاجد والزوايـا والأضـرحة، وهـو الآثـار التاريخيـة والأمـاكن المقدسـة، وهـو الأشـكال العمرانية وهو الطبيعة بما حوت من غابات وأعشاب وأشجار وغيرها الكثير.

إنَّ مـن خـلال قراءتنـا المتأنيـة **للرحلـة الورثيلانيـة** نجـد أنَّهـا تضـم مجموعـة أمـاكن وفضـاءات تتـوزع إلـى فئـات ذات تنـوع كبيـر مـن حيـث الوظيفـة والدلالـة، فأمكننـا فـي البـدء التمييـز بـين فضـاءين (فضـاء الإقامـة وفضـاء الانتقـال)، بـذلك نحصـل علـى ثنائيـة ضـدية أولـى رئيسـة، تتولـد منهـا ثنائيـات وتقاطبـات أخـرى إمَّـا تابعـة أو ملحقـة، فيصـر بإمكاننـا مـثلاً أن نعثـر ضـمن أمـاكن الإقامـة علـى تقاطـب جديـد (مقـدس /غيـر مقـدس)، نميـز مـن خلالـه بـين أمـاكن الإقامـة المقدسـة وأمـاكن الإقامـة غيـر المقدسـة؛ وهـذا التقسـيم يفـرض نفسـه علينـا باعتبـار مقصـدية الرحالـة، حيـث يصـبح المكان المقدس هدفا، ويصبح حضوره في الرحلة مركزيا.

أمـا أمـاكن الانتقـال فتكـون مسـرحاً لحركـة شخصـية الرحالـة وتنقلهـا، وتمثـل الفضـاءات التـي تجـد هـذه الشخصـية نفسـها فيهـا كلمـا غـادرت أمـاكن إقامتهـا الثابتـة، مثل أماكن لقاء الناس خارج بيوتهم.

وقبل أن نفصل في التحليل أكثر، لا بد من أن نلفت الانتباه إلى ما أشار إليه شعيب حليفي، حينما ميز بين المكان المرجع والمكان السجل، ويقصد بالمكان المرجع، أنه «حينما يتم تناوله في سرود مباشرة من خلال مشاهدات الراوي، أثناء الانتقال والتوقف في زمن الرحلة» [1]، أما قصده بالمكان السّجل فهو: «الاسترجاعات المستدعاة من طرف الراوي، من مؤلفات تاريخية وجغرافية، ومن مقروءات خاصة لأمكنة معينة تاريخية أو مقدسة» [2]، وقد اِستعنا بهذين الشّكلين خلال دراستنا للفضاء.

أ. فضاء للإقامة/ المدينة:

يشكل عنصر المكان العمراني هيكل الرحلة، ويتجلى ذلك في المحكي ذاته الذي غالباً ما يختزل في وصف المدن، رغم أنَّ هذه المدن لا تحضر بالأهمية نفسها لدى الرحالة، فقد اختلفت درجة عنايته بها، فمن المدن ما يتوقف عندها مطولاً، ومنها ما يمرُّ عليها مروراً سريعاً وعابراً، كل حسب أهميتها، وجاءت الكيفيات التي قدم بها الرحالة هذه الأماكن على ثلاثة أشكال هي:

الشكل الأول: أن يذكر الرّحالة اسم المكان فقط، دون اتباعه بأي وصف أو معلومات حوله، وقد استخدم هذه الكيفية، حينما ذكر فقط أسماء بعض الأماكن التي مرَّ بها، بقوله: «**وقد نزلنا خليص عند الضحى الأعلى إلى وقت الظهر، فصلينا فيه جماعة وبين الظهر والعصر انفصلنا من خليص، وارتحنا منه إلى أن حان وقت العصر فصلينا جماعة، كذلك إلى قرب المغرب أشرفنا على العقبة التي يصعد منها إلى الثنية التي يهبط منها إلى عسفان عند المغرب** » [3]، يكتفي الرحالة فقط، بذكر أسماء بعض الأماكن، وهي: (خليص، العقبة، الثنية، عسفان)، دون تقديم عنها أي وصف لها، أو أي معلومات عنها ومن الراجح أن سبب إعراض الرحالة عن تعريف هذه الأماكن يعود إلى:

---

1) ـ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص 317.
2) ـ نفسه، ص 318.
3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 396.

ـ إمـا رغبـة منـه فـي الإيجـاز والاختصـار، فالمقصـود هـو الحـديث عـن مراحـل الطريق وصعوباته، وهذا يتلاءم مع مقصدية الرحلة.

ـ وإمـا فـي بعـض الأحيـان تكـون هـذه الأمـاكن ذات شـهرة كبيـرة، فهـي معروفـة عند الرحالة، والقارئ على حد سواء، وبالتالي لا داعي لتعريفها.

الشـكل الثـاني: الإلمـام بـبعض الأوصـاف التـي يراهـا الرّحالـة جـديرة بالـذكر [1]، فيقـول عـن مدينـة (زمـورة): **وزمـورة كثيـرة الميـاه، وأرضـها ذات زرع وضـرع بـلا اشـتباه، طعامهـا جيّـد، وسـوقها عـامر مفيـد، وفيهـا بـرج للنّوبـة مـن التّـرك، حفظهـا الله تعـالى مـن أكـابر المعاصـي والشـرك»** [2]، ويقـول عـن بلـدة "تـوزر": « **قويـة الميـاه، فيهـا أنهـار، وماؤهـا عـذب، وبناؤهـا شـامخ مستحسـن مرونـق، فهـي أفضـل مـن "بسـكرة"، لأنّ بناءهـا بـالطوب، وهـي بناؤهـا بـالأجرّ والجيـر والجـبس، فـي غايـة الإتقـان، مـع طـول البنيـان إلـى العلـو وسـعة عرضـه حاصـله: إنّهـا قريـة جيـدة وذلـك عـامٌّ فـي الـدور والمسـاجد، بخـلاف "بسـكرة" فـإن حسـنها فـي مسـجده فقـط»**[3]، ويقـول أيضـا عـن قريـة **"تبرسـق"**: «**وهـي قريـة ذات بسـاتين ومياه ومـزارع كثيـرة، حاصله فيها ضرع كثير وسوق في الأسبوع يأتي إليه الناس من بعد»** [4].

والملاحـظ أن هـذه المقـاطع التـي بـيَّن الرَّحالـة مـن خلالهـا أوصـاف بعـض المـدن والبلـدات التـي مـرَّ بهـا، ترتكـز أساسـاً علـى تكـرار الصّـورة، التـي تتقـاطع تقريبـاً فـي وصـف واحـد، يتمثـل فـي الحـديث عـن وفـرة المـاء العـذب، ممـا يسـتلزم وجـود جنـات تنـتج الفواكـه المختلفـة، ولا شـك أنَّ التركيـز علـى ذكـر المـاء فـي كـل المواقـع التـي مـرّ بهـا الرحالـة جـاء نتيجـة لأهميـة هـذه المـادة وضـرورتها للحيـاة، ولهـذا يـذكر **الـورثيلاني**

---

1) ـ وتعد المدينة المكان الذي تتجلى فيه الإقامة، وقد صورها الورثيلاني عبر ثلاث نواحي أساسية:

- المرافق: وضمنها يتحدث عن المدارس والمساجد والأسواق والمنازل والأسوار والحصون والشوارع.
- المشـاهد: وتضـم المقـابر والمقامـات والأضـرحة (أثـار الأنبيـاء والعلمـاء والأوليـاء) والمواقـع الإسـلامية والآثار غير الاسلامية.
- الأرباض: وتضم الأحياء والبساتين والمقاهي، الآبار، والعيون.

2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 97.

3) ـ نفسه، ص 141-142.

4) ـ نفسه، ص 685.

فـي رحلتـه بمواقـع الميـاه العذبـة والمالحـة، وكأنـه ينبـه إلـى وجـوب أخـذ الحيطـة لمـن أراد سلوك هذه الطرق.

الشـكل الثالـث :الـذي اعتمـد عليـه **الـورثيلاني،** هـو اتخـاذه معبـراً للانتقـال إلـى الحـديث عـن أمـور أخـرى لهـا صـلة بهـذا المجـال، ومثـال ذلـك قـول الرّحالـة عـن مدينـة: (طولقـة): «**وقـد دخلنـا طولقـة**» [1]، فحينمـا نقـرأ هـذه العبـارة ننتظـر مـن الرحالـة أن يحـدثنا عـن عناصـر هـذا المكـان وتفاصـيله كمـا جـرت العـادة، غيـر أنّ الرّحالـة **الـورثيلاني** كسـر أفـق انتظـار القـارئ وعـدل عـن ذلـك وقـال: « **فاجتمعنـا بهـا مـع أهـل الفضـل والعلـم، وزرنـا أيضـا الشـيخ المـذكور، والـولي المشـهور، سـيدي عبـد الـرّحمن الأخضـري فـي قريتـه المشـهورة، فلمّـا وصَـلْتُه وجدتـه كأنّـه حـيٌّ فـي قبـره**» [2]، إنّ ذكـر اسـم المكـان "طولقـة" علـى مسـتوى الكتابـة الرحليـة، لـيس سـوى معبـراً مـن المكـان إلى الزمان أو وسيلة انتقال من الرحلة إلى التاريخ.

ويتكـرر هـذا العبـور مـن المكـان إلـى مجـالات أخـرى عـدة مـرات فـي **الرحلـة الورثيلانيـة،** ونضـرب مثـالاً آخـر علـى هـذا الانتقـال مباشـرة مـن ذكـر اسـم المكـان إلـى الحـديث عـن شـيخ الشّـيوخ المتصـوفة **أحمـد زروق،** فيقـول **الـورثيلاني**: «**ونزلنـا قـرب "مسـراتة" ثـم بعـد ذلـك ارتحلنـا ونزلنـا أبعـد مـن قبـر الشـيخ الـولي الصـالح، البـدر الواضـح، ذي التصـانيف المفيـدة، والتـآليف العديـدة، ذي التريـاق والـدواء المجـرب أبـي العبـاس سـيدي أحمـد زروق البرنسـي ثـم الفاسـي فبعـد نزولنـا هنيئـة تـوج هنـا لزيارتـه والتبـرك بضـريحه قـدس الله روحـه فإنـه لا شـك أنـه حـي فـي قبـره**» [3]، نلاحـظ أن الكـلام السـابق لا يقـدم لنـا أيّ صـورة عـن الأوصـاف الطبيعيـة أو العمرانيـة أو البشـرية عـن مدينـة "مسـراتة"، فـأعرض عـن هـذا كلـه لينصـرف إلـى مـا يهمـه وهـو الحـديث عـن الشـيخ **زروق،** ويتبـين أنّ الرحالـة **الـورثيلاني** جعـل مـن ذكـر اسـم المكـان معبـراً إلـى الحـديث إمّـا عـن تـاريخ المكـان أو رجالاتـه أو مـا جـرى فيـه مـن مجـالس أدبية.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 14.

2) ـ نفسه، ص 14.

3) ـ نفسه، ص 217.

❖ الفضاء المقدس:

تفرض الثنائية التقاطبية (مقدس/ وغير مقدس) نفسها على الفضاء، باعتبارها مقصدية الرحالة، حيث يصيح المكان المقدس مكاناً هدفاً، ويصبح حضوره في الرحلة مركزاً، ويبدأ هذا الفضاء بالتكون عبر المشاهد المقدسة حتى قبل خروج الرحالة من وطنه، ثم تتدرج إلى أقدسها "مكة المكرمة"، لذا يكون حضور هذا الفضاء حسب مكانته الاعتبارية والرمزية لدى الرحالة خاصة، والمسلمين عامة بدرجة متفاوتة، بحيث ينقسم إلى:

- **أماكن مقدسة من الدرجة الأولى:**

ويحكم هذا المكان المقدس معلمان اثنان بارزان، البيت الحرام بمكة المكرمة والروضة الشريفة بالمدينة المنورة.

ـ البيت الحرام:

يحتفي **الورثيلاني** بمشهد بيت الله الحرام احتفاءً كبيراً لرمزيته الكبرى، ولقدسيته في العقيدة الإسلامية، وباعتباره المقصد الأسنى في الرحلة، وكان ما يجده الرحالة من قوة وعظمة هذا المعلم الذي يمثل القداسة الإسلامية وخلاصتها، ما يعجزه عن التعبير، فيكتفي بوضع علامات لفظية بديلة عن الوصف، متمثلة في الأسر الذي وقع فيه، على الرغم مما في المكان من جمال وسحر هندسي الذي يغيبُ تاركاً المجال لوظيفة استشعار النفس في وجوم أمام هذا المكان، ويصف ما انتابه من شعور حينما دخل البيت ليصلي فيه بالقول: «**إذْ دخلتُ في الليل، غير أنّ الزحمة كَثُرتْ على الباب، فلمّا دخلتُ الكعبةَ وجدتُ فيها فُسحةً عظيمةً، وهي مملوءةٌ بالنّاس، والزّمانُ زمانُ الحَرِّ، وركعتُ ركعتين، وجعلتُ الباب وراء ظهري، ثمّ ركعتين ركعة لكلّ جانب منها، وقد علاني من الهيبة ما لا يعلم به إلّا الله. فينبغي للإنسان أن يصحبه الإجلال والهيبة النورانية والعظمة والابتهال والخشية والتذلل والمسكنة فيعتقد أنه ضيف ربه وأن الرحمة قريبة منه فلا ينبغي**

أيضا النظر إلى السقف إلا للعلم به (...) وقد حصل لي عند الدخول أمر عظيم لا أستطيع التعبير عنه، إذ ورد على حال عظيم وابتهال قوي» [1].

فإنَّ ما كان ينتابه من أسر حالة الوجود التي تجعل بينه وبين مشهد العمارة غشاوة فيضحى الوصف (الموضوعي) فيه مخلاً مثل قوله في وصف الكعبة من الخارج: «**فشاهدنا "البيت العتيق" الذي تزيح أنواره كلّ ظلام، وقد تدلّت أستاره، وأشرقت أنواره، وقد شمر البُرقع عن أسفله، حتى لا يكاد الطائف يناله بأنامله، يفعلون به ذلك من أوّل تقدم الوفود، ولا يطلقون أستاره حتى تعود**» [2]، وأمَّا وصفه من الداخل وإبراز زواياه محتوياته، فقد جاء مرة واحدة بشكل مقتضب في قوله: «**والبيت الآن على ثلاثة أعمدة من العود، ونقضوا منه جهة الحجر مقدار السلّم**» [3].

ـ الروضة الشريفة:

وفي هذا المكان يتميز الرحالة بالحيوية والنشاط، وكثرة التنقلات والزيارات التي تجبره على الوقوف عند الأماكن ذات الطابع الديني، وما تفرضه أوصاف مفصلة للبقاع المقدسة، ويتميز إحساس **الورثيلاني** بهذا المكان بالتوهج وبقوة العواطف، حيث سرعان ما تعلق به، ويعسر عليه مفارقته، ويتجلى هذا خاصة في لحظات التوديع، يقول مودعا الروضة الشريفة مظهرا تعلقه بمقام النبي الكريم: «**نعم، لا أصعب من يوم فراق دائرة وقد أنغم القلب حزنا بل أعتل بعلة لا يعلمها إلا من وردت منه وخلقها عند قرب مفارقته، فحرارة الجسم كادت أن لا تبرد وقلق القلب قد قوي وضل وهام فعز أن لا يهتدي**» [4]، حتى أنه عزم على البقاء في المدينة المشرفة ومجاورة لمقام الرسول ﷺ، لشدة حبه لهذا المكان الذي تقدس بأصحابه، حين قال: «**لما دنا وقرب السفر من المدينة المشرفة، ظهر لي ترك السفر والرجوع في ذلك إلى الوطن ليزول عني الاشتياق بمجاورته ﷺ فعزمت**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 429-430.
2) ـ نفسه، ص 400.
3) ـ نفسه، ص 430.
4) ـ نفسه، ص 536.

على المجاورة» [1]، لكنه عاد وعدل عن هذا بعد إلحاح الأهل والأصحاب عليه بالمرافقة.

- **أماكن مقدسة من الدرجة الثانية:**

تحظى المساجدُ بصفتها معالم إسلامية تؤثث الفضاء المقدس بعناية كبرى من قبل الرّحالة، إذ خصها بوصف تفصيلي دقيق يقربه من المتلقي في كثيرٍ من المرات، فيأخذه إلى تلك الأماكن عبر وساطة اللغة وإمكاناتها، وعبر تقديم دليل مفصل عنه، ويتسم وصف هذا المكان الإسلامي بطابعه القدسي الذي يمتح من الثقافة الإسلامية، فيقول عن المسجد الكبير بـ "بسكرة": «**وزرنا مسجدها، وطلعنا إلى مأذنته، وهي في غاية الإتقان، والطول والسعة، تقدر الدابة على الصعود إليها بحملها وأدراجه مائة وأربع وعشرين درجة والمسجد في غاية السّعة وإتقان البناء، إلّا أنّه قلّ عامروه، وضعف ساكنوه**» [2]، ويقول أيضا في وصف مسجد السلطان حسن بـ "القاهرة": «**وهو مسجد لا ثاني له في مصر ولا في غيرها من البلاد في فخامة البناء ونباهة وارتفاعه وأحكامه واتساع حناياه وطول أعمدته الرخامية وسعة أبوابه كأنَّه جبال منحوتة تصفق الرياح في أيام الصيف بأبوابه كما تفعل في شواهق الجبال وفي أحد أبوابه سارية رخامية لطيفة يقال إنها من أيوان كسرى وفيها نقوش عجيبة يقال إنها على صورتها وضعت أبواب المسجد**» [3] ، كما شكلت قبور الأولياء ومزاراتهم حيزاً مهما من هذا الفضاء، فكثير ما يزورهم الرحالة أينما حلّ أو ارتحل، راسماً بذلك صورة من الهيبة والاجلال لهؤلاء، وعلى سبيل المثال زيارته لقبر الإمام الشافعي بـ "مصر" «**وزرنا أيضا قبر الإمام الذي لا ينبغي لأحدٍ دخل "مصر" أن يهمل زيارته، إذ هو صاحب التّصريف التّام بـ "مصر"، رئيس الأئمة، وشيخ شيوخ الأمة، محمد بن إدريس الشافعي -رضي الله عنه-وعليه بناءٌ عظيم ومسجدٌ وخانقات، وقوم من الفُقراء يسكنون هُنَاك، وقيّم المشهد لا يفارقه -ليلا ولا نهارا-، وهو من المشاهد**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 537.
2) ـ نفسه، ص 105.
3) ـ نفسه، ص 284.

الكريمة، والمآثر العظيمة، له أوقاف كثيرة. هذا، ويُتّخَذُ عند قبره كلّ ليلة سبتٍ مَولِدٌ يجتمع فيه أناس كثيرون يضيق بهم المسجد وأفنيته، ما بين فقراء وأمراء - رجال ونساء-، يبيتون طول اللّيل بين ذِكرٍ بِجماعةٍ، وصلاة وقراءة قرآن، لا يفترقون إلى طلوع الفجر» [1]

❖ الفضاء غير المقدس:

وينقسم الفضاء غير المقدس كما ارتسم في ذهن **الورثيلاني** إلى قسمين كبيرين هما:

- **الفضاء المألوف:**

وهو الفضاء الذي لا يشعر **الورثيلاني** بأي اختلاف معه، لأنّه داخل المنظومة اللغوية والدينية والثقافية والاجتماعية التي اعتادها وألفها، والمقصود به هنا من نظرة ضيقة منطقة "بجاية"، وإن شئنا توسعتها فستشمل الوطن "الجزائر"، وقد صرح به الرحالة في العديد من المرات.

وتعد كل الأمكنة التي ينزل بها الرحالة وهو قاصد حج بيت الله، وتكون مشابهة لوطنه، بحيث تندرج ضمن منظومته اللغوية والدينية والثقافية والاجتماعية نفسها، امتداد للفضاء الأليف، بحيث أن الرحالة لا يشعر بداخلها بأي اختلاف أو تغيير سواء من حيث جغرافية المكان أو طبيعة الأشخاص الذين التقى بهم.

وقد وجد **الورثيلاني** في "طرابلس" و"الزاوية الغربية "فضاءً مشابهاً لما ألفه في وطنه "الجزائر"، إذ يقول : «**مدينة "طرابلس" خصّها الله بالصّالحين، ومحبّة أهل الخير، حتّى إنّهم لا يصبرون عليهم، فإذا شمّوا رائحة المعرفة في أحدٍ سعوا إليه بالإحسان -جزاهم الله أحسن الجزاء-، وذلك عامٌّ في "عمالة طرابلس" لا سِيَّما "الزاوية الغربية"، فإنّ فيها من الصّالحين الموتى ما لا يستطيع أحدٌ أن يعدهم، وأمّا الأحياء فبحسب زماننا هم أكثر(...) قد بالغوا في حبّنا وصَفوا في مودتنا حتّى أنّهم تمنّوا أن يكون ما عندهم قد بذلوه لنا، وجعلوه قرى**

---

1) – الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 294.

لأصحابنا»[1]، وأمَّا عن "مسراتة" موطن الشيخ **زروق**، صرح قائلاً: **«ومن العلامات الظاهرة والكرامات الباهرة أنّ أهل وطنه أقبلوا علينا، وظهرت محبتهم لدينا، وأنهم أكرمونا غاية الإكرام بالأرزاق الحسية والمعنوية، والمعتبر الثاني:﴿ قل بفضل الله برحمته فبذلك فليفرحوا وهو خير لهم مما يجمعون﴾ (يونس: 58) هذا، وأن أرض الشيخ منّورة به، يشهد ذلك من له ذوق سليم وطبع مستقيم»** [2]، وقد بادلهم شعور المحبة والاحترام نفسه، حتَّى أنّه تمنى المقام عندهم، فهو متعلق بهم ومريض بحبهم، إذ يقول: **«فليس مقصدي ومنّيتي إلّا السكنى في أرضهم، لكثرة خَصْبِ أهل المحبّة، بحيث لا يصيبك ضيقٌ ووحشة، فإنّ حيّ ليلى عندهم عامرٌ بما في القلب مشغوف»** [3] ، غير أنَّ هذا لم يحصل لأسباب ذكرها بالقول: **«إلّا أن الموانع الشرعية مَنعتني من الإقامة هُنالك، وقد كثر عيالي، أعني بناتي وأولادي ومحاجري الذين قُدِمْتُ عليهم، ونُيّبت عنهم ولم تكن لي رغبة بعد المجاورة عنده ﷺ إلّا في هذا المحلّ، وإن كان وطننا كذلك في الحبّ وأهله»** [4]، وقد تجلت محبة أهل المكان **للورثيلاني**، واخلاصهم له، في مشهد التوديع، ويقول الرحالة في هذا: **«لَمَّا خرجنا من دار أخينا في الله والودّ من أجله سيدي محمّد الشّريف، اجتمعت الشّرفاء صغيرا وكبيرا، وكذا جيرانهم وغيرهم من أهل الخير كالسّوق، وأعظم محبّة في الله ورغبة فيما عنده، (فكنّا في التّوديع من صبيحة ذلك اليوم حتّى ارتفعت الشّمس ارتفاعا ظاهرا جليّا، ثم كذلك) في التّوديع إلى أن وصلنا قرب "الهنشير"، خرج لتوديعنا أولاد الشّيخ سيدي الصّيد، كأولاد سيدي أبي بكر نجل الشيخ عبد الحفيظ، وأولاد سيدي عبد اللّطيف فودّعونا أيضا مع أصحابهم، وهم من المحسنين إلينا، ثمّ ذهبنا بعد ذلك مع التّوديع إلى أن وصلنا أطراف "تاجوراء"»** [5]، إنّ ما لقيه الرحالة من حُسنِ التوديع عند مُغادرته لهذا المكان الطيب، لم يَجدهُ في مكان

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 178.
2) ـ نفسه، ص 230.
3) ـ نفسه، ص 191.
4) ـ نفسه، ص 191.
5) ـ نفسه، ص 190.

آخـر، إلا مـا شـهده عنـد مغادرتـه لأهلـه "بنـي ورثـيلان" فـي "بجايـة"، وقـد سـبقت الإشارة إليه [1].

وكـان كثيـر مـا يسـتمر مكـان الانطـلاق حاضـراً فـي فكـر الرحالـة طيلـة الرحلـة، يسـتدعيه كلمـا سـنحت الفرصـة، لأنّ العلاقـة بهـذا المكـان «هـي علاقـة مركزيـة تسـقط إلتباسـها بعـد مغادرتـه، فيصـبح مرجعـا للمقارنـة، وأفقـا للتـذكر والحنـين» [2]، فكـان كثيـراً مـا ينسـاق إلـى عقـد مقارنـات، بـين أمكنـة فضـاء الألفـة، يكـون طرفهـا الأول هـو مقـر السـكنى ومنطقـة الانطـلاق بوصـفه فضـاءً أليفـاً قـد تعـوّد عليـه، وبـين مـا يمـر عليـه مـن أمكنـة قـد يـرى فيهـا بعـض التشـابه والاشـتراك، فيقـول مـثلا: «**و"تـاجوراء" هـذه قريـة طيّبـة فيهـا أشـجار، وفيهـا فاكهـة ونخـل ورمـان، نعـم، رمّانهـا لا نظيـر لـه فيمـا رأيـت إلّا فـي مواضـع قليلـة، وقـد وُجِدَ فـي قريـة عنـدنا تسـمى بـ "قريـة أملـو" فـإنّ رمّانهـا أَوْلَـى من هذا وأحلى منه**» [3].

وقـد تمتـد هـذه المقارنـة إلـى أعمـاق الـنفس الداخليـة، ومـا يختلجهـا مـن مشـاعر وأحاسـيس أخويـة، وهـو مـا تحقـق فـي الرحلـة حـين تحـدث مقارنـا بـين كـرم أهـل "الزاويـة الغربيـة" وأهلـه، فصـرح قـائلا: «**فـاِعلم أن فـي "الزاويـة الغربيـة" وأهـل الخيـر لا نظيـر لهـم، فيمـا علمـت، غيـر أنّ أهـل "الجزائـر"، يعنـي مـن سـكن المدينـة وكـذا أهـل وطننـا، فـإنهم أعظـم مـنهم، لا سـيما "جبـل زواوة"، فـإنهم أكـرم شـيء فـي الوجـود، إذ يـأكلون الـرّديء، ويطعمـون الضـيف الطيـبَ، ووطـنهم فـي غايـة الضّـيق مـن المعيشة**» [4].

- **الفضاء الغريب:**

ونعنـي بـه الفضـاء الـذي لـم يألفـه الرحالـة، نتيجـة لخيبـة شـعورية ولَّـدَت بداخلـه احساسـا بـالاختلاف، قـد يكـون دِينيـاً أو أَخلاقيـاً أو اجتماعيـاً أو حتـى ثقافيـاً؛ ويتحـدد هـذا الفضـاء عـن طريـق نَظـرة الرحالـة إلـى العلاقـة التـي جمعـت بـه مـع سُـكانِ المكـان، فهـي

---

1) ـ عد إلى عنصر زمن المغادرة (الانطلاق)، ص 164.
2) ـ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ص 319 - 320.
3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 191-192.
4) ـ نفسه، ص 178.

لا ترتبط بالمكان في حد ذاته، الذي قد يكون من أحسن الأماكن وأجملها، بقدر ما ترتبط بما يحدث فيه من أفعال وما يقال فيه من أقوال، فالمكان يتأثر بأهله وقاطنيه وبمختلف فئاتهم، كما أنه يؤثر فيهم باعتباره «جُزءاً في بناء الشخصية البشرية فالذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها، ولكنها تنبسط خارج هذه الحدود لتصبغ ما حولها بصبغتها، وتسقط على المكان قيمتها الحضارية» [1].

وقد شعر الرحالة باغتراب الفضاء حينما نزل بـ "حامة قابس" إذ يقول: **«فنزلنا في "حامة قابس"، وهي قرية ذات نخل وماء، وفيها حمام -من الله تعالى-سخن كأنه يغلي بالنّار، فلا يستطيع أحدٌ أن يدخله بغتة، إلا بعد الألفة، وفيه بيت يستر المغتسلين، وخارجه نهر منه يجتمع فيه الرّجال والنساء من غير ستر في النّهار، كلّ واحد يرى عورة الأخرى من غير تغير ولا نكير، فلما رأيتهم اقشعر جلدي، وتحرّكت فرائصي، فملأت حجري بالأحجار وصِرتُ أضرِبُ كلّ من هناك من النّساء والرّجال»** [2]

الملاحظ أن الإشارة إلى المكان لم تأت إلا إشارة بسيطة لم تتعدَ تحديد بعض أوصافه، لينتقل الحديث مباشرة إلى قاطنيه، الذين يتصفون بقلة الوازع الديني، من اختلاط بين الرجال والنساء من غير ستر، وهو ما أثار اشمئزاز الرحالة، فاتخذ منهم موقفا معادياً، وعبر عنه برميهم بالحجارة.

وكما يَشعرُ الرّحالة بالغربة في الفضاء الغريب يشعر قاطنو ذلك الفضاء هم أيضا بغربة الرحالة عنهم، وهذا ما يكشف عنه **الورثيلاني** بالقول: **«وظنّوا أني خرجت من عقلي، ففرّ الكلّ ولم يبق أحد في ذلك الوقت إلا هرب، ثمّ مر شخص علي فقال لي -رحمك الله-لو كنت معنا دائما لزالت هذه الأمور العظيمة، وأمّا أهل القرية فلم يعجبهم صنيعي، بأن ظهر التّغير على وجوههم، غير أنّهم سكتوا إذ العاصي ذليل»** [3].

---

1) ـ الطاهر حسيني: الرحلة الجزائرية في العهد العثماني (بناؤها الفني أنواعها وخصائصها)، مخطوط أطروحة دكتوراه، جامعة قاصدي مرباح –ورقلة-، 2013م/2014م. ص 233.

2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 146-147.

3) ـ نفسه، ص 147.

ويمتد فضاء الاغتراب في أماكن أخرى، فمثلا حينما ينزل الرحالة بالقرب من منطقة "الجبل الأخضر" من عمالة "طرابلس"، فيصفها بالقول: «**غريبة، عرب هذا الجبل من أشدّ العرب كفراً ونفاقاً، لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله، ليس عندهم من الدّين إلّا اسمه، لا حِرفَةَ لهم بعد تربية المواشي إلّا النّهب والغارة، قلّ ما مرّ بهم ركبٌ فَسَلِمَ من إنشابِ الحرب بينهم وبينه، بسبب غدرهم وفتكهم عند اشتغال النّاس بالسّوق معهم**» [1]، إن موقف الرَّحالة المعادي لهذا الفضاء، لم يكن نتيجة المكان، فهو من أخصب المناطق التي مرَّ بها، وأغناها بأصناف السَّمن واللحم والتَّمر، وإنَّما يبني موقفه على تصرفات قاطني الجبل وتعاملاتهم، التي لا تخلو من شدة وغلظة، فضلاً عن ابتعادهم عن الدّين، الذي لا يعرفون منه إلا الاسم.

ب. فضاء التنقل/ الطريق:

إنّ أماكن الانتقال في الرّحلة تمثل فضاءً ثرياً ومتنوعاً للرَّحالة والقارئ على حد سواء، فهي بمثابة الجسر بين مكان الانطلاق ومكان الوصول، فيها يتمّ السير والتّنقل، وتتجسد الحركة ، كما يحدث الاتصال والمواجهة مع الآخر، فالرّحالة خلال رحلته يرصد كل ما تقع عليه حواسه، يشاهد أماكن عديدة ويلاقي أناساً غرباء، يطلع على تجاربهم وحيواتهم، قد يألفهم أو ينفر منهم، وبهذا يتعرض إلى الكثير من المفاجآت والصدمات، تثير دهشته واستغرابه كما تثير خوفه وقلقه، لذلك تتباين مواقفه وأحاسيسه تجاه هذه الأماكن، فتوحي له بالأمن والدّعة كما قد توحي له بالخوف والقلق، فيصبح لكل مكان معبور خصوصياته ومؤشراته.

تتعدد أماكن الانتقال في **الرّحلة الورثيلانية** وتتنوع وتتداخل فيما بينها فقلما يعثر القارئ للرّحلة على مكان واحد مستقل بذاته وتتمثل في الطريق التي يمر بها، وما تتضمنه من الحصون، والبوادي والمفازات والوديان والسّباخ والبنادر والجبال والأنهار.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 242.

إن مكـان الانتقـال فـي وعـي الرّحالـة لـيس مكانـاً واحـداً، بـل هـو مـرتبط بمـا عاشـه مـن صـراع ومـا خاضـه مـن مواجهـة مـع الآخـر مـن أجـل تحقيـق العبـور للوصـول إلـى المكـان الغايـة، لـذلك اتخـذت هـذه الأمـاكن أبعـاداً نفسـية، فتـارةً تصـبح أمـاكن آمنـة تُشـعر الرحالــة بالرَّاحــة والاطمئنــان، وتــارةً أخــرى تصــبح خطيــرة تشــعره بــالخوف والقلــق، وتبعــاً لــذلك يعــيش الرَّحالــة حيــاة اللاتــوازن، حيــاة الاضــطراب وعــدم الاســتقرار، وتصبح يومياته بين لحظات انشراح ولحظات انقباض.

ولهــذا فضــلنا أن يكــون تصــنيفنا لأمــاكن الانتقــال وفــق رؤيتــين أو شــعورين متبـاينين: الأمـاكن التـي يشـعر فيهـا الرّحالـة بـالأمن والرّاحـة والأمـاكن التـي تثيـر خوفـه وقلقــه وتجعلــه فــي حالــة اضــطراب، أي أنّهــا تــأتي وفــق ثنائيــة الأمــن والخــوف، أو الحياة والموت:

❖أماكن الخوف:

إنّ الرّحلــة عمومــاً ســفر شــاق، والرّحالــة فيــه بــين محنــة الطريــق وويــلات القــر والحـر يقطـع المسـافات الطويلـة الـوعرة، فيمـر بتلـك الأمـاكن العديـدة المتفرقـة المتنـاثرة والمتصـلة بفضـاءات محـدودة وغيـر محـدودة، كالوديـان والجبـال والصـحاري والسّـباخ والتـي تشـكل الفضـاء العـام للتنقـل وهـي بقـدر مـا تـوحي بالحريـة والانطـلاق، تثيـر فـي النّفس الكثير من الخوف والرّهبة.

وانطلاقــاً ممــا ســبق **تعــدّ الصــحراء فضــاءً** مفتوحــاً لأنّهــا لــم تتعــرض للتشــكيل الإنســاني والتّحديـد المـادي، كمـا أنّهـا مكـان لامتنـاهي، الـذي يكـون بصـفة عامـة خاليـاً مـن النّـاس فهـو الأرض التـي لا تخضـع لسـلطة أحـد، ولا يملكهـا أحـد [1]، إنّهـا المحـك الــذي يختبــر قــوة الإنســان وإرادتــه، إنّهــا رمــز للمــوت، فكــم أهلكــت مــن العــابرين، وجعلــتهم إمّــا فــرائس للوحــوش الضــارية وإمّــا ضــحايا للصــوص وقطــاع الطــرق، يعانون التيه والضياع والتّشرد.

لـذا تـرتبط **الصّـحراء** فـي الرّحلـة بـالخوف والمـوت، والرّحالـة فيهـا يصـبح أكثـر تـوتراً وانفعـالاً جـراء مـا يتوقـع مـن أخطـار الطريـق، سـواء الطبيعيـة منهـا أو البشـرية،

---

1) ـ ينظر: أحمد طاهر حسنين وآخرون: جماليات المكان، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط2، 1988م، ص62.

فالتّهديدات تحيط به من كل الجهات، وتترصده من مختلف المصادر، وهذا ما ورد في رحلة **الورثيلاني**، كقوله: «**وبعد "النّعيم" مفازة عظيمة يَعْسُرُ أمرُها على الحجّاج لا سيما زمان الحر، فإنَّ الشّرب قلَّ من يسلم منه النّاس، إذ "مقطع الكبريت" صراط الدّنيا، لقلّة مائه مرارته، على تقدير وجوده، والماشي فيها يستوحش من تغيّر لون السّماء أكثر من اغبرار الأرض، ومع هذا فهو أخفض المفازات، وأبعدها من تغيّر الهواء، وإنّما ينجو منها الإنسان بفضل الله وكثرة التّزود من ماء "النّعيم" (...)، ولولا فضل الله ما سلم في مثلها أحدٌ من المارّين بها، فإنّ الماشي بها كأنّ الشّمس نازلة إليه، ومتوجهة لديه، فلا يكاد الإنسان يعبرُ عمّا أدركهُ من ذلك، ولا يَعرف مقدار ما يصيبه إلا من ذاق من ذلك وشاركه في ذلك السّبب الخاص**» [1].

والمتأمل فيما تحمله هذه الملفوظات في وصف المكان والتعليق عليه وكذا التأويل الذي يستند إليه السّياق يخلصنا إلى إدراك الدلالة المتخفية وراء التّصوير الطوبوغرافي المجرد لهذا الفضاء مما يجعله مكاناً معادياً، فحضور الخوف والموت نتيجة طبيعية لهذه الصّورة الوصفية المرعبة التي رسمها (الرّحالة/السّارد)، فالمفازةُ عظيمةُ صعبةُ الاجتياز ومقفرة من أشكال الحياة، أرضها مغبرة موحشة، وماؤها قليل مرٌّ، وشمسها قريبة حارقةٌ، إنّها مكان لا يمنح الأمان والإحساس بالرّاحة، بل يدفعه الى الإسراع للخروج والتّحرر منه، والتّطلع إلى أماكن أخرى أكثر أمنا وراحة.

وعلى الرغم من امتداد الصّحراء واتساع مساحتها، فقد يُحال فيها الرّحالة على أماكن انتقال تتصف بالضيق والمحدودية، تنتفي فيها صفة الأمن، تكتنفها المخاطر والمخاوف من كل جانب، مما يفقد الرّحالة الشعور بالرّاحة والاطمئنان، فها هو الرّحالة يصف مضيقاً اضطروا للعبور من خلاله، حيث يقول: «**نزلنا قرب الاستشراف على المضيق قُرب الجبل إذ لا يمكن سيره لصعوبة الطريق وكثرة الأحجار وضيقه بين الجبال، فليشكر الله من خرج منه على عافية وسلامة وطيب**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 236.

وقت في نفسه ومع ذلك تكثر فيه فسّاق العرب ومحاربوهم، قلَّ أن يخرج الركب سالمين منهم» [1].

وبهذا التّصور والرّسم الذي أحالتنا عليه القرائن الطوبوغرافية التي أوردها **الورثيلاني** في هذا المقطع لهذا المكان؛ فهو من ناحية ممر ضيق، كثيرُ الأحجار مما تسبب في عزل الرّحالة، وحجب رؤية الجانب الأخر من الطريق عنهم، ومن ناحية أخرى هو مسلك خطير، وملجأ للصوص وقطاع الطرق يتربصون بالعابرين، يسلبونهم متاعهم وأموالهم، مما يولد في نفوسهم الخوف والرّعب، وهذا مؤشر على أنّه مكان يحمل طابعاً سلبياً يشي بمعاناة الرّحالة أثناء عبورهم، بل إنّ عبوره يعدّ مهمة صعبة إن لم تكن مستحيلة.

ومن الأماكن التي أثارت الخوف في نفس الرّحالة السّباخ التي مرّ بها في مناطق متفرقة من رحلته، ومثال ذلك السّبخة التي مرّ بها أثناء الطلعة، والواقعة بعد "المنعم" وقبل "أجدابية" ، حيث يقول واصفاً إياها: «**ومررنا على السّبخة، والسّبخةّ صعبة جدّا كثيرة الوَحل، وفيها غور في بعض المواضع، ولا ينجو منه إلاّ من يعرفها، أو يُقدم خبيراً يعرف المسالك، لأنَّ طريقها أقرب، وإلّا فليترك سبيلها، وليذهب حذوها يمينها عنها حال الطّلوع، وبينها وبين البحر جبال من الرّمل تصعب على الإبل طلوعا وهبوطا، يُعلم ذلك بالعيان، وقد تشتّت حال الرّكب فيها**» [2]، ومنها أيضاً تلك السَّبخة الواقعة بعد "العقبة" أثناء الرَّجعة، حيث يصفها قائلاً: «**وهذه السَّبخة أعظمُ أمكنة الدَّرب وأصعبها لقلة الماء فيها، وحرارة أرضها، وقوة هوائها، قَلَّ أن يسلم الحجاج فيها من العطب، إذ تغلب شدة العطش فيها، فما أقبحها من مكان وقد تركت منزلة التّيه منزلة قبل هذه وليس الخلاص من جميعها إلا بفضل الله تعالى وجوده وكرمه**» [3].

ونشير هنا إلى تلك التّعليقات التي جاءت لتدعم الصّورة الطبوغرافية، وتشحنها بدلالات إضافية لم تكن متاحة في غيابها، خاصة و«أن حاجة الوصف إلى

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 543.
2) ـ نفسه، ص 238.
3) ـ نفسه، ص 558.

التّعليق في إنتاج الدّلالة تظل قائمة لما بينهما من اتصال وتجاذب» [1]، فالسَّبخة حسب ما جاء في هذين المقطعين الوصفيين مكان مقفر خال، لا ماء فيه، ولا ما يشير إلى الحياة، **فالورثيلاني** وقبل ولوجه المكان أبدى قلقه وعدم ارتياحه، ولعلّ ما زاد من خوفه صعوبة الخروج منه، فهو أشبه بالمتاهة الحقيقية.

وفي مقطع أخر يذكر فيه **الورثيلاني** مكان السّبخة نجده يعمد في وصفه إلى المراوحة بين طرفي التّقاطب (خوف/أمن)، حيث يقول: «**والمصانع سواري مبنية في سبخة لا يظهر فيها أثر الطّريق، وكذا الرّمل القريب منها، فجعلوا تلك الأعلام المبنية ليستدلّوا بها عن الطّريق، وجعلوا في رؤوس الأبنية حجرا مستطيلا خارجا لناحية الطّريق ليستدل بها الماشي ليلا، وربّما علّقوا على بعض الأعلام مصابيح ليلاً لبعد ما بينها، وبين كل علم وعلم نحو فرسخ أو أقل أو أكثر**»[2] ومن خلال الملفوظات الوصفية السّابقة (الرمل، البعد، لا أثر للطريق/ الأعلام ،المصابيح، ويستدل الماشي،..) يكون **الورثيلاني** قد سار في تعامله مع مكان السّبخة مناحي شتى مبرراً طابعه الآمن والمخيف.

كما يعدّ الوادي من الأماكن الطبيعية المفتوحة اللامتناهية، التي تسهم في صنع الحياة بما تختزنه من ثروة مائية، فالوديان والأنهار في تاريخ البشرية مهد للحضارات ومكان للتفاعل بين البشر، إلاّ أنّ الرّحالة يستوقفنا عند الجوانب السلبية لهذا المكان، حيث يسجل مساحةً للخوف والرّعب في نفسه، ليكتسب بذلك دلالات سلبية، فكثيرا ما يصطدم الرّحالة فيها بحواجز أو عقبات، أو قوى خارجية لا يقدر على قهرها أو تجاوزها سواء أكانت مياهها جارية أم جافة.

ففي أحد المقاطع يقدم لنا (الرّحالة/السّارد) صورة مكانية مخيفة لأحد الوديان الجافة التي مر بها، وهو "واد النّار"، حيث يقول: «**سرنا إلى أن دخلنا واد النار، وهذا الواد قد وافق فيه الاسم المسمى، إذ لا يخلو من شدة تقع للحاج فيه عطش وموت ومرض، وهو واد كبير قد انطبق عليه الجبلان من النبط إلى الخضيرة فلا**

---

1) ـ حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، ص 60.
2) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 337.

ينفذ فيه الهواء غالبا، لأن الهواء إذا تحرك بالرياح انطبق عليه الجبلان فينعكس الرّيح إلى ما وراء، وتحدث الحرارة والسموم في الهواء، فينشأ الهلاك منه، ولا ماء هناك من النبط إلى الينبع، فإذا قبح الهواء مع الحرارة مات من الناس ألوف مؤلفة في أسرع مدة، فيأخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت»[1]

وهنا يضعنا في قلب تلك البيئة المأساوية التي لا يرجى منها إلاّ الموت بطريقة أقرب ما تكون إلى الفنية، فإذا تتبعنا الملفوظات الوصفية "لواد النار" الواردة في هذا المقطع: الضيق والجفاف والحرارة الشديدة، نجدها تحمل الكثير من الدلالات السلبية التي تجعل منه مكاناً مخيفاً، يشي بما عاناه الرّحالة عند عبوره من خوف وعطش، كما أنّه كان مكاناً لهلاك الكثيرين من المسافرين.

وفي مقطع أخر نجده يقدم لنا صورةً مرعبةً أيضاً لـ "نهر النّيل"، لحظة فيضانه، فيقول: **«والحالة أنّ النيل قد فاض، وخفنا الانقطاع بسببه، فظعنا لأنّه يفيض على أرياف مصر كذا وكذا ميلاً، فلو تأخرنا لأصابتنا مشقة في القطع إذ لا يكون ذلك إلاّ من الزّوارق أعني المراكب والسّفن»** [2]، فمن خلال الملفوظات السّابقة نستجلي تحولاً في الدلالة، فنهر النيل حين يفيض ويغمر الماء جانبيه من القرى والأرياف يصبح مكانا يحمل قيما سلبية لارتباطه بمعاني الخوف والموت بعد أن كان رمزاً للأمن والحياة.

كما لم يسلم الرّحالة من مخاطر الطريق ومصاعبها، خاصة في الأماكن المفتوحة واللامتناهية، فهي أشبه ببوابة مفتوحة دائما على المجهول والمفاجئ، لأنّها تسع سائر المخلوقات من الوحوش الضارية وقطاع الطرق إلى المحاربين الذين يقاتل بعضهم بعضا، لذلك كان هاجس الخوف والقلق رفيق الرّحالة الدائم في هذه الأماكن، وهذا ما يخبرنا به حين يدرك المحاربون ركبهم قائلا: **«تركنا النابغة استعجالا أضر بنا العطش ... ومع هذا وإن المحاربين رجعوا إلينا طمعا في آخر الركب، ... ونحن كذلك إلى بعد العشاء الأخيرة بسويعات، والطائفة السابقة من**

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 389.
2) ـ نفسه، ص 604.

المحاربين تتبعنا في آثارنا أهلكهم الله، فبتنا إلى قرب طلوع الفجر. ثم ظعنا ونحن سائرين طول النهار إلى أن مررنا على الدار الحمراء قبل الزوال، فتغدى الناس فيه كذلك والمحاربون في آثارنا ونحن في جماعة فيها الخيل والبغال ومعنا البنادق والسلاح» [1].

لذلك نجده يحاول ومن معه التّحرر من هذه الأماكن والتّطلع إلى أماكن أخرى، لعدم شعورهم بالألفة والأمان فيها، فيصف ذلك قائلا: «**فظعنا منه متوقعين الخوف من هؤلاء المحاربين، فنادى الناس بعضهم بعضا ليتهيؤوا لهم، فاجتمع أهل بلدنا من قسنطينة إلى الجزائر وجعلنا حومة واحدة**» [2]

ورغم تمكنهم من الفرار وشعورهم بالأمن، إلا أن محاربين آخرين قاموا بمهاجمتهم فاستجد بهم الخوف وزاد في قلوبهم القلق «**فارتفع عنا الخوف منهم وزال، وإنّما خفنا زيادة الأعراب الذين لا طاقة لنا بهم (...) ونحن سائرون، وإذا بطائفة أكثر منهم قد غشيت الطريق تحيرنا منهم وذهلت عقولنا من أجلهم، فلما شاهدنا جمعهم تيقنا الموت، وقلت حينئذ الآن متنا**»[3]، لذلك تبقى الصّحراء من الأماكن التي لا تمنح الرّحالة الإحساس بالرّاحة والأمان، بل تشعره بالخوف والقلق، فهو يعيش أحلك الأوقات فيها، لا يرى إلا الموت يتربص به من كل جانب، وهذه الرؤية العدائية تجاه هذا النوع من الأماكن تدفعه إلى رفضها والتطلع إلى غيرها.

❖ أماكن الأمن:

وإذا نظرنا إلى الأماكن التي تثير الشّعور بالرّاحة، والإحساس بالأمن نجدها تتعدد وتتنوع في الرّحلة، فتجربة الخوف التي عاشها **الورثيلاني** ومن معه في بعض الأماكن المفتوحة والواسعة كالصّحراء والسّباخ، والوديان والأنهار، جعلتهم

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 560.
2) ـ نفسه، ص 561.
3) ـ نفسه، ص 560.

فـي بحـث دائـم عـن الأمـاكن الآمنـة التـي تبعـث الشّـعور بالرّاحـة والاطمئنـان فـي حلهـم وترحالهم.

والحصـن مـن الفضـاءات الآمنـة التـي ذكرهـا **الـورثيلاني**، فهـو فـي نظـره فضـاء يختـزل جميـع القـيم الدلاليـة الايجابيـة التـي يـنهض عليهـا المكـان المغلـق: «**وفـي هـذا المـورد حصـنان متقاربـان، مبنيـان بـأوثقِ بنـاء، يتـرُكُ النّـاس فيهمـا مـا اسـتثقلوه مـن الأزودة والأمتعـة إلـى الرّجـوع، (...) وفـي أحـد الحصـنين اللـذين هُنَـاك، بئـر كبيـرة تُسـقى دائمـا بـالبقر، ويخـرج المـاء مـن البنـدر إلـى بـرك ثـلاث خارجـات، اثنتـان صـغيرتان والثالثـة كبيـرة، وبهمـا عسـكر لا يفارقهمـا أبـداً، وكـذلك غيـره مـن البنـادر فـي كـل سـنة يـأتي قـوم، فيـذهب الـذين كـانوا بـه ولهـم جرايـة مـن بيـت المـال علـى ذلـك ولـولا لطـف الله بالعبـاد بوجـود هـذه البنـادر فـي الطريـق لمـا قـدر أحـد علـى سـلوكها مـع كثرة مخاوفها وقلة مرافقها**»[1]

إنّ الحصـن عمومـاً مكـان إقامـة يتصـف بالمحدوديـة بأسـواره العاليـة، ممـا يقلـص الحركـة فيـه، إلا أنّـه بالنسـبة **للـورثيلاني** ومـن معـه مجـرد مكـان عبـور، مكـان مفتـوح للحركـة والتنقـل والتجـدد، يمـنحهم الرّاحـة والأمـل والإحسـاس بـالأمن ممـا يسـمح لهـم بترك ما استثقلوه من الزاد والمتاع حتى يعودوا لأخذه عند الرجوع.

والمتأمـل فيمـا تحملـه هـذه الملفوظـات فـي وصـف المكـان، تجعلنـا نسـتبطن الدلالـة المتخفيـة وراء التّصـوير الطوبـوغرافي المجـرد للحصـن، فهـو مكـان حمـيم يعطـي للوجـود قيمـة، يتـواتر عليـه العسـكر كـل عـام للحراسـة بمـا يـوحي بالاسـتقرار والأمـان عكـس الخـارج الـذي يشـي بـالخوف ويـدل علـى الطـابع العـدواني، إنـه أيضـا مكـان يوحي بالحياة والأمن والحركة الدؤوبة والتواصل مع الآخر.

ومـن الأمـاكن الآمنـة أيضـا التـي ذكرهـا الوديـان، فعلـى الـرغم مـن أننـاّ كنـا قـد أشـرنا سـابقا إلـى "واد النـار" باعتبـاره مكانـا سـجل مسـاحة للخـوف والرعـب بـل هـو مكـان للمـوت والهـلاك، فـإنّ **الـورثيلاني** يعـود ليحـدثنا عـن الـوادي باعتبـاره مكانـا مفتوحـاً علـى أكثـر مـن جهـة، مسـاهماً فـي صـنع الحيـاة بمـا يختزنـه مـن مـاء، ومـا يبعثـه

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 337.

فـي الـنّفس مـن شـعور بالارتيـاح، إنّـه "واد الرّمـل" الـذي يصـفه بـالملاذ الـذي يهـرب إليـه الرّحالـة طلبـاً للأمـان وإنقـاذاً للحيـاة «**ومررنـا بـواد يقـال لـه "وادي الرمـل"، وهـو واد متّسـع عـذب المـاء، لا ينقطـع مـاؤه كمـا ذكرنـا، ومبـدؤه مـن الجبـل قاطعـاً إلـى البحـر، لابـدّ لكـلّ مشـرّق يجعـل الجبـل يمينـه، ومغـرب يسـرته وهـو واد مخصـب مـن أعـلاه فيـه كـزارع تخـرج إلـه ماشـية أهـل طـرابلس وسـواحلها أيـام الربيـع، وربمـا أخـرج الحجـاج إليـه إبلهـم مـع رعايتهـا أيـام إقـامتهم بطـرابلس واصـل مائـه مـن عيـون تنبع في أثنائه تبتدئ من مسافة قريبة من الجبل**»[1].

ومـن خـلال السّـياقات الـواردة يمكننـا أن نسـتجلي تحـولاً فـي الدلالـة مـن خـلال البعـد الجديـد الـذي أدتـه الملفوظـات السّـابقة (واد متسـع، مـاؤه وافـر وعـذب، أرضـه خصـبة، تكثـر فـي الماشـية ...) فخلافـاً للمـدلولات السّـابقة الـذكر لمكـان الـواد بأنّـه رمـز للمـوت، يصـبح هنـا مكانـاً يحمـل قيمـة ايجابيـة، تشـي بمـا وجـده **الـورثيلاني** ومـن معـه من راحة وأمن، إضافة الى ما تحصلوا عليه من الزّاد والماء.

وانطلاقـا مـن فكـرة أنّ «الرّحالـة لا يقـدم المكـان الجغرافـي بـل يقـدم المكـان مـن خـلال منظـوره الخـاص» [2]، فهنـاك الكثيـر مـن الأمـاكن التـي تبـاين موقـف **الـورثيلاني** منهـا بحسـب مـا تمنحـه مـن إحسـاس الأمـن أو الخـوف وبمـا تتـوافر عليـه مـن أسـباب الراحـة والحيـاة، وهـذا مـا يؤكـده فـي قولـه: «**ولمـا اشـتد بنـا العطـش ذهـب أصـحابنا ممـن اكترينـا مـنهم إلـى قـرب البركـة، فـأتوا لنـا بمـاء عـذب وأظنـه مـن مـاء النيـل فأحيونا به بعد قرب الموت، جازاهم الله أحسن جزاء**» [3].

نستشـف مـن هـذا المقطـع بعـض الاطمئنـان والرّاحـة التـي أحـسّ بهـا **الـورثيلاني** فـي هـذا المكـان، فقـد ذكـر مسـاعدة أصـحابهم ممـن اكتـروا مـنهم وإنقـاذهم لهـم بعـد أن أوشكوا على الهلاك.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 193.

2) ـ نهلة عبد العزيز الشقران: خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، الآن ناشرون وموزعون، عمان، ط 1، 2015م، ص 18.

3) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 561.

ويتواصل حكم الرّحالة على المكان من خلال سلوكيات أصحابه، فيتم ربط المكان بالإنسان، فإذا كانت المعاملة سيئة، فإن النّظر إليه يصل حد السّخرية منه، وإذا كانت معاملة الإنسان جيدة سيكون المكان محبباً إلى الذات، ويتم النظر إليه نظرة إيجابية، أي أنّ الأماكن قد تشحن من جديد باللحظات العامرة «**وصلنا النبط، وإذا بأعرابي أتانا بقربة ماء عذب أظنه من ماء المطر بارد كأنه من ماء الثلج وسقى جماعتنا لوجه الله العظيم، ولو طلب الدراهم لأخذ منها كثيرا لقرب الموت والهلاك منا.**»[1] فالمكان هنا شُحن اجتماعياً وتحول إلى مكان آمن، ليصل عابروه في اطمئنان رغم قسوته، فمساعدة الأعرابي لهم بعد معاناتهم مع التعب والعطش، أعطت صورة ايجابية جميلة فيها الرّاحة والأمان؛ فهذا المشهد كان كفيلا بأن يبعث في نفسية الرّحالة ومن معه بعض الأنس رغم كل الحوادث المرعبة التي عاشوها والظروف الصّعبة التي مرّوا بها.

يعد الرّكب من أماكن الانتقال الآمنة، فالسّفر مع الغير أو التواجد مع الرفقاء في الرحلة مهم جدا، وهو كفيل بأن يشعر الرّحالة بالرّاحة والأمان، فمنذ القديم والإنسان ما يزال يذلل صعوبات الطريق باستحضار من يشاركه الرّحلة أو السّفر، يتقاسم معه مشقة السير ولذة التنقل.

والرّحالة كثيراً ما يكشف عن شعوره بالأمن والاطمئنان كلما تحدث عن تواجده في الرّكب مع أصحابه من رفقاء الرّحلة، فالرّكب يكتسب قيمة ايجابية، حين يصبح مكانا يحتضن مشاعر من فيه، ويوحد مصالحهم، فيمنحهم هويته، فطريقهم واحدة وهدفهم واحد، وهذا ما يؤكده قائلاً: «**فظعنا منه متوقعين الخوف من هؤلاء المحاربين، فنادى الناس بعضهم بعضا ليتهيؤوا لهم، فاجتمع أهل بلدنا من قسنطينة إلى الجزائر وجعلنا حومة واحدة... وأنزلنا كل من عنده سلاح عن مركوبه فجعلنا البعض ميمنة والبعض ميسرة والبعض قلبا والبعض آخرا والبعض أولاً غير أنّ المتأخر أكثر والجميع دائرون بالإبل**» [2].

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 389.

2) ـ نفسه، ص 561.

إنّ **الـورثيلاني** فـي هـذا المقطـع يشـيد بـدور الركـب، ويعتـرف بموقـف أهـل بلـده البطــولي، فشــعورهم بــالخطر وإحساســهم بالتهديــد مــن قطــاع الطــرق والمحــاربين جعلهـم يتحـدون رغـم أنهـم مـن ولايـات مختلفـة، لإنقـاذ أنفسـهم فسـلامة الركـب هـي سلامتهم.

لقـد كـان **الـورثيلاني** ومـن معـه يتحاشـون التّواجـد خـارج الرّكـب، فملازمـتهم لـه مــن شــروط السّــلامة، فهــم يــدركون جيــداً أنّهــم بفضــله يســتطيعون تجــاوز مشــاق الطريـق، ومخـاطر السّـفر، فلـن يحـدث لهـم مكـروه مـا داموا مجتمعـين، فهـا هـو يحـدثنا عــن تراجــع المحــاربين بمجــرد أن رأوهــم فــي الركــب: «**لمــا رأونــا محيطــين بجميــع الإبـل خلـوا سـبيلنا وذهبـوا**» [1] وبهـذا يكتسـب الرّكـب قيمـة ايجابيـة، بمـا يـوحي بـه مـن أمان وسلامة خاصة في المناطق الموحشة والمسالك الوعرة.

وهكـذا يشـكل المكـان فـي هـذه الرحلـة باعثـاً علـى تغييـر الأفكـار والتّصـورات الخاصــة، فهــو يحيــل علــى مفــاهيم وقــيم جديــدة لــم يتمثلهــا الرّحالــة قبــل رحلتــه حيــث أن عــالم الرّحلــة عــالم أخــر تنقلــب فيــه القــيم وتتغيــر الأوضــاع، فيســتجيب الرّحالــة لانفعالات جديدة وتغمره أحاسيس متباينة تفرضها عليه ظروف الرّحلة.

خلاصة القول:

■ تتعدد أنواع الفضاء منها: الدلالي وهو الصورة التي تخلقها لغة الحكي وما ينشأ عنها من دلالة مجازية، والفضـــاء كرؤية ويتحدد بعلاقة الناص بنصـــه والزاوية التي ينظر من خلالها، والفضــاء النصــي ويتعلق بالمكان الذي تشـغله الكتابة الحكائية، والفضــاء الجغرافي وهو مسرح للأحداث وتموضع الشخصيات، ومجموع أمكنة تشكل فضاءً.

■ يتأســس الفضــاء في الرحلة **الورثيلانية** وفق تقاطبات ثنائية، والرّحالة أثناء إرســائه لدعائم الفضـاء في نص رحلته يلتزم بالواقعية ويتعامل معه تعاملاً حتمياً وضـرورياً باعتباره البؤرة المحورية الطريق/المأوى، ومع ذلك فمهما كانت درجة واقعيته فإنه يظل تمثيلا ذهنيا.

---

1) ـ الحسين الورثيلاني: الرحلة، ص 562.

▪ المكان في الرّحلة الورثيلاذية ذو طابع متعدد، حيث زار **الورثيلاني** أماكن عديدة تختلف باختلاف مواقعها ومجتمعاتها وتتوزع وفق فضاءين الإقامة والانتقال: وأماكن الإقامة تتوزع وفق (ثنائية المقدس/ غير المقدس) وأماكن الانتقال تتوزع وفق ثنائية (الخوف/الأمن).

▪ يشـــكل المكان العمراني هيكل الرحلة ويختزل وصـــف المدن، وتتضـــمن الأماكن المقدســة وتظهر حسـب مكانتها الاعتبارية بدرجات متفاوتة فهناك أماكن مقدسـة من الدرجة الأولى يغيب فيها الوصف الموضوعي، فيكتفي **الورثيلاني** بوصف مشاعره اتجاهها وأخرى بدرجة ثانية، ويصـفها وصـفا دقيقا تفصـيليا، أما المكان غير المقدس فهو في إما مكانا مألوفا مشـابها لوطنه وإما مكانا غريبا، لم يألفه الرحالة لخيبة شـعورية (دينيا أو أخلاقيا أو ثقافيا أو اجتماعيا)، ومعاداة رحالة لهذه الأماكن تبنى على تصرفات سكانها وتعاملاتهم معه.

▪ تعددت أماكن الانتقال في الرحلة، وفق ثنائية (الأمن/الخوف)، حيث اتخذت أبعاداً نفسية وأماكن الخوف هي أماكن مفتوحة بقدر ما توحي بالحرية تثير الخوف، فهاجس الخوف كان رفيق الرّحالة في الصّحراء، لذا كانت نظرته إليها عدائية تدفعه الى رفضها والتطلع إلى غيرها.

▪ إن تجربـة الخوف التي عـاشـــهـا **الورثيلاني** دفعتـه للبحـث الـدائم عن أمـاكن آمنـة كالحصـــون فهي مكان يختزل القيم الدلالية الإيجابية، وكذلك الركب فهو من أماكن الانتقال الآمنة، وإحســاس الرّحالة اتجاه المكان مرتبط بالإنســان ومعاملته له، لذا شـكلت الأماكن في الرّحلة عموماً باعثاً على تغيير الأفكار والتّصـــورات فتحيل على مفاهيم وقيم جديدة، فيعيش الرّحالة انفعالات وأحاسيس متباينة تفرضها ظروف الرّحلة.

خاتمـــــة

وفي خاتمة هذه الدراسة لا أدعي أنني منحت الموضوع كامل حقه أو الإحاطة بكل جوانبه، بل إنَّ هذا جهد يُضاف إلى جهود السّابقين، ونأمل أن يعضد بجهود لاحقة تثري البحث في المجال.

وقد خلصت الدّراسة إلى جملة من النتائج هي:

1. تعدّ الرحلة نشاطاً إنسانياً قديما، مارسته الأمم السّابقة، كما مارسه العرب أيضا قبل الإسلام وبعده نحو العالم الإسلامي لأهداف دينية تعليمية، ونحو الغرب بغرض نشر الدين وتنوير الأمة، وقد ارتفع شأنها بفضل عدد من الرّحالة المشارقة والمغاربة الذين أغنوا الأدب بما دونوه في رحلاتهم من علوم ومعارف، تهم الجغرافي والمؤرخ والأديب والباحث والناقد أيضا، لاعتمادها على عناصر أساسية واضحة في الأدب، وتتميز بوصفها فعلا أو نشاطا بشريا يتمثل في الانتقال من مكان لآخر من جهة، ونصا لغويا مدونا ينطلق من تجربة فعلية خاصة من جهة ثانية.

2. ترتبط الرحلة بالسياق التاريخي والاجتماعي والنفسي عند الرحالة العرب مشارقة ومغاربة، فكان تصنيفها حسب طبيعة الباعث، فهناك الباعث الديني بغرض أداء مناسك الحج، وباعث السياحة الصوفية: وغرضهم الزهد، أو كشف الحقائق، وزيارة الشّيوخ والباعث العلمي بغرض زيارة المدارس ولقاء العلماء والأخذ عنهم، وأخيرا الباعث السياحي، وقد يجمع الرحالة بين بعضها مثل الورثيلاني (الديني والعلمي السياحة الصوفية).

3. تنوعت أسباب الرحالة في تدوين رحلاتهم: إما تلبية لطلب الحاكم، أو رغبة في إفادة القارئ بتوضيح مناسك الحج له وبعض المسائل العلمية، ولكل رحالة طريقته في تدوين رحلته: فهناك من كتبها كاملة أثناء الرحلة، وهناك من كتبها من ذاكرته بعد عودته، وهناك من دونها في شكل مذكرات مثل الورثيلاني، وأتمها بعد عودته معتمدا على المعاينة والمشاهدة، السماع والمشافهة، وما نقله من الكتب المصنفة.

4. تعددت مناهج تدوين الرّحلات منها الزّماني الآني محدد البداية والنهاية، المكاني متماسك البناء يتتبع الوحدات المكانية، التّدوين الموضوعي: يختار موضوعا بعينه ويتتبعه التدوين الانتقائي: ينتقي الرحالة أفضل ما دونه في مذكراته. الاستدعائي: يعتمد على تداعي الأفكار، والرحلة الورثيلانية من حيث مسارها تقسم: الى أربع مراحل: الانطلاق وتبدأ من مدينته بني ورثيلان، ثم وصف طريق الذهاب إلى غاية الوصول إلى الهدف مكة المكرمة، بعدها وصف طريق العودة إلى الوطن.

5. إنّ **الورثيلاني** حين يسرد يستعيد تجربته الماضية باسترجاع مسار الرحلة وكل التفاصيل الراسخة في ذاكرته، كما أنّ تشكل السرد في رحلته جاء وفق نظام كرونولوجي خطي تتابعت فيه المحطات الكبرى والصُّغرى من الانطلاق حتى الوصول، وقد تميز بالطابع التّقريري والموضوعية ذهاباً (باعتباره انتقال لاكتشاف معارف جديدة)، وتوالت فيه أفعال السّرد بسرعة إياباً.

6. وظف **الورثيلاني** سرد الإخبار توظيفا مكثفاً: للإحالة على أحداث الماضي من المؤلفات التّاريخية مع حرصه على إدراج المصدر تأكيداً لصدق الخبر، وكذلك أخبار قريبة من رحلات سابقة وهو إخبار هجين بين التاريخ والجغرافيا، كما وظف سرد الحكاية من العامة حول الأماكن والأحداث، واتخذ منه موقف المشكك تارة وموقف الواثق من الخبر تارة أخرى.

7. اعتمد **الورثيلاني** في رحلته السّرد المتقاطع أكثر من المتتابع، فغالبا ما يوقف السّرد، ليقدم معلومات لقارئ ويثير إعجابه، معتمدا النمط التقريري كثيرا، لسرد الأحداث ومهتماً بمراحل السّفر وبمحطات النّزول، أما السّرد الأدبي فقليل لأنّه يتطلب جهداً كبيراً إضافة لطبيعة شخصيته الدينية.

8. إنّ رغبة **الورثيلاني** في تخطيب رحلته هي أهم دافع للسرد، لذلك تباينت وضعياته بين السارد والمسرود له: **الرحالة/ السارد** وهذا ما يعلنه صراحة في المتن الرحلي، فهو الرحالة والكاتب والبطل، وجاء ساردا ذاتيا، **متماثلا/ممسرحا** فاعلا في الأحداث إما ساردا **رئيسا/ أو ثانويا** فاسحا المجال لساردين آخرين، أو

ساردا ذاتيا متباينا: قد يحضر أو يغيب، كما ظهر ساردا موضوعيا : للتأكيد على واقعية السّرد، وأحياناً في وضعية الرّحالة/ مسرودا له: رغبة في فهم المرئيات المبهمة، وقد تنوعت وظائفه في الرّحلة: أهمها التواصلية وهدفه فيها التأثير في المسرود له وإدماجه في عالم الحكاية.

9. يختلف المسرود له في الرّحلة عن القارئ الحقيقي والقارئ الضمني، وهو في الرحلة **الورثيلانية** يمكن أن يكون مرويا له من خارج الحكاية، وبإمكانه التّماهي والقارئ المفترض، وأحياناً تتحول شخصية السّارد/ الرحالة إلى مسرود له ممسرحا أو مسرود له غير ممسرح، ولانّ الرحلة **الورثيلانية** مرتبطة بدافع الديني، وبالطابع التّعليمي فإنّ السّارد يتوجه إليه إما بغرض تنبيهه لصحة أقواله أو ترتيب مناسك الحج له، لذا فسرده تعليمي معرفي تواصلي.

10. إنّ حركة الزّمن في الرّحلة مرهونة بحركة الرّحالة، إذ يسير وفق محاور عدة، الزمن الطبيعي في الرحلة يتحول الى سرد تنازلي وينقسم إلى عدة أزمنة متداخلة، فالحافز يستدعي السفر، والسّفر يتحول الى نص والكتابة تستدعي النسخ، **والورثيلاني** لم يكن على نسق واحد في الدقة الزمنية لتركيزه على الأحداث، فالزمن لا يتحدد بالترتيب المتساوي في ميقاته بل بما يتضمنه من وظائف مرجوة من الرّحلة، مع اهتمامه بزمن الذهاب أكثر، أما زمن المناسك/الوصول: فلم يشر إلى تاريخه لانشغاله بالفرائض وترتيبها، وإعطاء الأولوية لفعل التّعلم، أما في زمن العودة: بقي **الورثيلاني** وفياً لتوظيف الزّمن الاعتباطي بنوعيه فلم يكن متعجلاً المدة استغرقت عاماً كاملاً ، تعامله أمّا وزمن التّقييد فهو لاحق لزمن السّفر لم يحدد بدايته وحدد زمن الانتهاء.

11. رغم واقعية الزّمن في الرّحلة إلاّ أنّ السّارد كثيراً ما يتدخل ليقطعه لغاية سردية، موظفاّ الاسترجاع (الخارجي) الموضوعي الذي طال بشكل لافت خاصة في الذهاب، أمّا الاسترجاع الذاتي: فقد وظفه ليسترجع بعض أحداث رحلتيه السابقتين، والملاحظ أن تقنية الاستباق كانت قليلة في الرّحلة كي لا يفقد القارئ

عنصر التّشويق، أمّا الإيقاع السّردي فيتأرجح بين البطيء والسريع، فالرحلة **الورثيلانية** تبعتها عملية انتخاب لأبرز الأحداث بالتسريع والإبطاء.

12. يتأسس فضاء الرحلة **الورثيلانية** وفق تقاطبات ثنائية، تتوزع بين الإقامة/ والانتقال، ففي أماكن الإقامة/ يشكل المكان العمراني هيكل الرحلة ويختزل في وصف المدن حسب أهميتها منها: الفضاء المقدس ويظهر حسب مكانته الاعتبارية وبدرجات متفاوتة: أماكن مقدسة من الدرجة الأولى مثل البيت الحرام والروضة الشريفة، وأماكن مقدسة من الدرجة الثانية: المساجد والمعالم الإسلامية، وتنفرد بالوصف الدقيق التّفصيلي، والمكان غير المقدس ففي الرّحلة إما فضاءً مألوفاً : مشابهاً للوطن وإمّا غريباً لم يألفه الرّحالة لخيبة شعورية، ولدت داخله إحساساً بمعاداته ورفضه، وأماكن الانتقال/ الطريق فتعددت في الرّحلة واتخذت أبعاداً نفسية مرة آمنة تُشعر الرَّحالة بالرّاحة والاطمئنان ومرة خطيرة تشعره بالخوف والقلق، فتوزعت وفق ثنائية الأمن/ والخوف فأماكن الخوف: أماكن مفتوحة، وهاجس الخوف رفيق الرَّحالة فيها، فكانت نظرته عدائية تدفعه إلى رفضها والتطلع إلى غيرها، وتجربة الخوف هذه دفعت الرحالة للبحث الدائم عن أماكن آمنة تختزل القيم الدلالية الايجابية التي يُوحي بالرّاحة والاطمئنان.

وعموماً، فإنَّه لا يمكن أن يكون ما توصلنا إليه من نتائج في هذا البحث هو كل ما يمكن أن يُقال في أثر غني كهذا، والثابت بالنّسبة إلينا على الأقل أن دراستنا تلخص نظرتنا لتقنيات السّرد في رحلة **الورثيلاني** وللخطاب الرَّحلي عنده، تظل نسبية وقاصرة عن تقليب النّظر وتكثير الفحص في كل المظاهر الإبداعية التي تميز هذا النّص الرّحلي، فما نراه نحن من مزايا قد لا يراه غيرنا كذلك، لذلك يبقى هذا العمل جهداً في حاجة إلى دراسات أخرى تميط اللثام عن جوانب كثيرة في الرّحلة **الورثيلانية**.

والله من وراء القصد.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم برواية ورش.**
- **محمد بن إسماعيل البخاري:** صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1324هـ - 2003م.
- **مسلم بن الحجاج:** صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412هـ - 1991م.

أولاً. المصادر:

1. **الحسين بن محمد الورثيلاني**: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (المشهورة بالرحلة الورثيلانية)، تح محمد خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2017م.

ثانياً المراجع:

أ. المراجع العربية.

2. **إبراهيم رفعت باشا:** مرآة الحرمين، مج1، دار الكتب، القاهرة، ط1، 1433هـ -2012م.
3. **أحمد بن محمد المقري التلمساني**: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، بيروت، 1377هـ -1967م.
4. **أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي**: الرحلة الناصرية (1709م-1710م)، تح عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي، ج 1، أبو ظبي، ط1، 2011م.
5. **أحمد بوغلا**: الرحلة الأندلسية، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط 1، 2018م.
6. **أحمد طاهر حسنين وآخرون**: جماليات المكان، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط2، 1988م.
7. **أميرة الكولي**: البنى الحكائية في الأدب العربي (دراسة في ضوء المنهج البنيوي)، دار التنوير، الجزائر، د ط ،2013م.
8. **بو شعيب الساوري:** الرحلة والنسق (دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2007م.
9. **جواد علي:** المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ 2، دار العلم للملايين، 1970.
10. **حسن بحراوي:** بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990م.

11. **الحسن الشاهدي:** أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، ج 1، الرباط، 1990م.
12. **حسني محمود حسين:** أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1403هـ/ 1983م.
13. **حسين ناصر:** أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، القاهرة، 1991م.
14. **حميد لحمداني:** بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2000م.
15. **زكي محمد حسن:** الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2018م.
16. **سعد الله أبو القاسم:** تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 (1500 - 1830)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م.
17. **:** تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
18. **سعيد بن سعيد العلوي**: أوربا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، ط1، 1995م.
19. **سعيد يقطين:** تحليل الخطاب الروائي (الزمن ـ السرد ـ التبئير)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 2005م.
20. **:** السرد العربي (مفاهيم وتجليات)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1433هـ - 2012م.
21. **:** قال الراوي (البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1997م.
22. **سميرة انساعد:** الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، عين مليلة، دط، 2009م.
23. **سيد حامد النساخ:** مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب للطباعة، القاهرة، دط

24. **شعيب حليفي:** الرحلة في الأدب العربي (التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، د ط، 2002م.
25. **صلاح الدين الشامي:** الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، دار منشأة المعارف، الإسكندرية مصر، ط2، 1999م.
26. **عبد الجليل مرتاض:** البنية الزمنية في القص الروائي، دار المنشورات الجامعية، الجزائر، 1993م.
27. **عبد الرحمن بغداد:** "مصطلح السرد-المفهوم والمكونات تجربة جيرار جنيت نموذجاً"، السرديات والترجمة العربية، تنسيق سيدي محمد بن مالك (دار ميم، الجزائر، ط 1، 2018م).
28. **عبد الرحمن بن خلدون:** ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر(المقدمة)، دار الفكر، بيروت، 1428هـ - 2007م.
29. **عبد الرحمن عزي:** التواصل القيمي في الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والاخبار، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 1432هـ / 2011م.
30. **عبد الرحيم الكردي:** السرد في الرواية المعاصرة (الرجل الذي فقد ظله نموذجا)، مكتبة الأدب، القاهرة، ط1، 2006م.
31. **عبد الرحيم مودن:** أدبية الرحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1996م.
32. **:** الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2006م.
33. **عبد الستار الجامعي:** تحليل الخطاب فصول في النظرية والتطبيق، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2018م.
34. **عبد القادر بن سالم:** بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد، منشورات الاختلاف ط 1، 1434هـ - 2013م.
35. **عبد الله إبراهيم:** السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي)، لمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1992م.

36. **عبد الله بن محمد العياشي**: الرحلة العياشية (1661-1663م)، مج1، تح: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2006م.
37. **عبد المالك مرتاض**: في نظرية الرواية (بحث في تقنيات الرواية)، دار الغرب، وهران، 2005م.
38. **عبد الواحد الحميري**: ما الخطاب وكيف نحلله؟ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2009م.
39. **علي إبراهيم كردي:** أدب الرحل في المغرب والأندلس، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2013م.
40. **علي بن الحسين أبو الحسين** (المسعودي): مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة مصر، ط2، 2002م.
41. **عليمة قادري:** رحلة السرد (السندباد يعود من بعيد)، دار الكتاب، عنابة، ط 1، 2013م.
42. **عماد خالد:** تجليات الخطاب الروائي (مقاربة في تقنيات السرد)، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2016م.
43. **عمر بن قينة:** اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون ـ الجزائر، 1995م.
44. **عواطف محمد يوسف نواب**: كتب الرحلات بالمغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري (دراسة تحليلية نقدية مقارنة)، دائرة الملك عبد العزيز، الرياض، 1429هـ - 2008م.
45. **عيسى بخيتي:** أدب الرحلة الجزائر الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2017م.
46. **عيسى بخيتي:** أدب الرحلة الجزائري الحديث (مكونات السرد)، دار هومة، الجزائر، 2014م.
47. **فؤاد قنديل:** أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة مصر، ط 2، جمادى الأولى 1431هـ/ يوليو 2010م.

48. **كمال بولعسل:** رحلة أبي حامد الغرناطي (دراسة في فضاء الرحلة)، نوميديا، قسنطينة، ط2، 2013م.

49. **محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي ابن بطوطة**: مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، دار القصبة للنشر، الجزائر، د ط، 2001م.

50. **محمد بن محمد بن جبير أبو الحسن**: رحلة بن جبير، دار القصبة، الجزائر، دط، 2001م.

51. **محمد الحاتمي:** الرحلات المغربية السوسية (بين المعرفي والأدبي)، مختبر البحث في التراث والأعلام والمصطلحات، الرباط، ط1، 1433هـ /2012م.

52. **محمد العبدري البلنسي:** الرحلة المغربية، تق: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة ـ الجزائر، ط1، 1428هـ ـ 2007م.

53. **منى بشلم:** شعرية الفضاء (في الرواية الجديدة مقاربة تطبيقية في النقد الجغرافي)، عالم الكتب الحديث، عمان، ط1، 2018م.

54. **نازك سابا يارد:** الرحالون العرب وحضارة الغرب (في النهضة العربية الحديثة)، نوفل، ط2، 1992م.

55. **ناصر عبد الرزاق الموافي:** الرحلة في الادب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، دار النشر للجامعة المصرية ـ مكتبة الوفاء، القاهرة، ط1، 1995م.

56. **نهلة عبد العزيز الشقران:** خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، الآن ناشرون وموزعون، عمان، ط 1، 2015م.

57. **نوال عبد الرحمن الشوابكة:** أدب الرحلات الأندلسية المغربية (حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، دار المأمون، عمان، ط 1، 1438 هـ ـ 2008م.

58. **يحي بوعزيز:** أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1995م.

59. **يمنى العيد:** تقنيات السرد الروائي (في ضوء المنهج البنيوي)، دار الفارابي، بيروت، ط3، 2010م.

ب. المراجع المترجمة:

60. **أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفيسكي:** تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم مطبعة لجنة التأليف، ج1، القاهرة، 1963م.
61. **بشار سامي يشوع:** "الراوي والمروي له والهوية المزدوجة"، الراوي والمروي له والقارئ، تر بشار سامي يشوع، (دار الرافدين، بيروت، ط 1، 2018م).
62. **تزفيتان تودوروف:** الشعرية، تر: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2، 1990م.
63. **جيرار جنيت:** خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، تر: محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، ط 2، 1997م.
64. **غاستون باشلار:** جماليات المكان، تر غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1404هـ - 1984م.

ج ـ المعاجـــم

65. **أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسن:** معجم مقاييس اللغة، تح شهاب الدين مهران بو عمرو، دار الفكر، بيروت، 2005م.
66. **إميل يعقوب وبسام بركة ومي شيخاني**: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: عربي ـ انجليزي ـ فرنسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م.
67. **جبور عبد النور**: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984م
68. **جمال الدين محمد بن مكرم** (ابن منظور): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط8، 2014م،
69. **جيرالد برنس:** المصطلح السردي، تر عابد جزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2003م.
70. **جيرالد برنس**: قاموس السرديات، تر السيد إمام، ميريت للنشر، القاهرة، ط 1، 2003م.
71. **سعيد علوش:** معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1985م.

72. **مجد الدين محمد بن يعقوب، الفيروز آبادي:** القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 8، 1426هـ/ 2005م.
73. **مجدي وهبة وكامل المهندس:** معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1984م.
74. **يوسف حطيني:** مصطلحات السرد في النقد الأدبي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2019م.

د. الدوريات:

75. **حسين محمد فهيم:** أدب الرحلات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 138، شوال 1409هـ/حزيران 1989م.
76. **حيفي هلايلي:** (الجزائريون والرحلة إلى الحجاز على ضوء رحلتي الورثيلاني وأبو راس الناصري)، مجلة الشهاب الجديد، مج 07، السنة السابعة، ع 07، 22 ربيع الأول 1429/ 30 مارس 2008م.
77. **عبد الرحيم مودن:** (الرحلة بوصفها جنسا أدبيا)، مجلة ألف الشعر المقارن، ع 39، القاهرة، 2006م.
78. **عبد العالي بو طيب:** (إشكالية الزمن في النص السردي)، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع 2، 1992م، مج 12.
79. **محمد حليم حسن:** (المروي له في قصص جاسم عاصي ورواياته)، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، ع 18، كانون أول 2014م.
80. **مصطفى بو جملين:** (ثنائية (السارد /المسرود له) في كتاب (في نظرية الأدب) لـ عبد المالك مرتاض)، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر بسكرة، ع 10، 2014م.

هـ ـ الرسائل الجامعية:

81. **إسماعيل زردومي:** فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، مخطوط رسالة دكتوراه دولة، جامعة باتنة،1426هـ/ 2005م.

82. **الطاهر حسيني:** الرحلة الجزائرية في العهد العثماني (بناؤها الفني أنواعها وخصائصها)، مخطوط أطروحة دكتوراه، جامعة قاصدي مرباح –ورقلة-، 2013م/2014م
83. **عمران بن محمد الأحمد:** أدبية الرحلة عند العبودي (رحلاته إلى البرازيل نموذجا)، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة القصيم (المملكة العربية السعودية)، 1436- 1437هـ.
84. **نعيمة منصور:** جماليات الخطاب في رحلة ابن بطوطة (دراسة تحليلية تطبيقية)، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة السانيا، وهران، 2010م -2011م.
85. **يسمينة شرابي:** الموروث الثقافي في أدب الرحلة الجزائري (نماذج من رحلات القرن العشرين)، مخطوط رسالة الماجستير، جامعة البويرة، 2012م - 2013م.

و. مواقع الأنترنت:

86. **إيمان صابر سيد صديق:** الراوي والمروي له في رواية عادل كمال، مركز جيل البحث العلمي،13 أفريل 2014م،https://jilrc.com .
87. **نبيل معين عساف:** من أعلام التصوف الشيخ زروق، دار الإيمان،05 ديسمبر 2015م، https://daraleman.org.

ز- الدواوين:

88. **زياد بن معاوية** (النابغة الذبياني): الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 1416هـ - 1996م.
89. **عمرو بن كلثوم**: الديوان، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1411هـ - 1991م.
90. **لبيد بن ربيعة العامري**: الديوان، دار المعرفة، بيروت، ط1 ،1425هـ - 2004م.
91. **ميمون بن قيس** (الأعشى الكبير): الديوان، تح: محمد حسين، مكتبة الآداب جماميزت، مصر، د ت.

92. ح - مراجع الأجنبية:

93. Odile Gannier : la littérature de voyage, Ed. Ellipses, Paris, 2001, p.9

فهرس الموضوعات

مقدمـــــة: ..... أ
الفصل الأول: الرحلة وأدب الرحلة 1
أولا: أدب الرحلة والتّراث 2
1) ـ العرب والرحلة: 2
أ. الرحلة قبل الإسلام: 5
ب. الرحلة بعد الإسلام. 9
ج. مسار الرحلة. 12
2) ـ أهمية الرحلة: 21
أ. القيمة العلمية 22
ب. القيمة الأدبية: 23
3) ـ الرحلة بين الفعل والخطاب: 27
أ. الرحلة: 27
ب. خطاب الرحلة: 30
خلاصة القول: 34
ثانيا: الرحلة الورثيلانية بواعثها، تدوينها، مسارها 35
1) ـ بواعثها: 35
أ. الباعث الديني. 37
ب. الباعث العلمي: 42
ج. الباعث السياحي: 45
2) ـ تدوينها: 45
أ. طرائق تدوين الرحلات: 48
ب. أسس تدوين الرحلات 52
ج. مناهج التدوين: 59
3) ـ مسارها: 62
أ. مرحلة الانطلاق: 63
ب. مرحلة وصف طريق الذهاب: 65
ج. وصف لحظة الوصول إلى المَقْصُود من الرحلة: 73
د. وصف لحظة العودة إلى الوطن ولقاء الأهل والأحبة: 74
خلاصة القول: 76
الفصل الثاني: مكونات السَّرد في الرحلة 78
تمهيـــد: السرد والرحلة. 79
أولاً: السَّرد في الرّحلة 82
1) ـ التَّشكل السَّردي في الرّحلة: 82
أ. السَّرد الإطار: 82

ب. السرد المضمن: 89
2) ـ خصائص السرد في الرحلة: 96
أ. تصنيف السرد في الرحلة: 96
ب. نمط السرد في الرحلة: 100
خلاصة القول: 102
ثانياً: السَّارد في الــرّحلة 103
1) ـ الوضعيات السَّردية للرَّحالة. 106
أ. الرحالة في وضعية سارد. 108
ب. الرَّحالة في وضعية مسرود له. 120
2) ـ وظائف السارد 126
أ. الوظيفة السَّردية: 127
ب. الوظيفة التنسيقية: 129
ج. الوظيفة الاستشهادية: 132
د. الوظيفة التقويمية: 135
و. الوظيفة التَّواصلية: 135
خلاصة القول: 138
ثالثا: المسرود له في الرّحلة 139
1) ـ مفهوم المسرود له: 139
2) ـ تشكُلاته في الرّحلة: 143
أ. المسرود له الممسرح: 144
ب. المسرود لـه غير الممسرح: 147
خلاصة القول: 153
الفصل الثالث: بنيات السَّرد في الرّحلة 155
تمهيد: 156
أولاً: بنية الزمان في الرحلة: 157
1) ـالزمن الطبيعي (التزامن): 161
أ. زمن الحافز (ما قبل الرحلة) 162
ب. زمن السفر (الانتقال) 163
جـ. زمن التقييد (النسخ) 177
2) ـالمفارقة السَّردية (التشظي الزمني): 178
أ. تأطير نظري 179
ب. مستويات المفارقة في الرحلة: 181
ج. وظائف المفارقة في الرحلة: 188
3) ـالسرعة: 192

أ. تأطير نظري: 194
ب. الحركة الزمنية في الرحلة: 197
خلاصة القول: 207
ثانيا: بنية الفضاء في الرحلة..... 209
1) -إشكالية المصطلح (الفضاء / المكان): 209
أ. الفضاء الدلالي: 211
ب. الفضاء كمنظور أو كرؤية: 211
ج. الفضاء النصي: 212
د. الفضاء الجغرافي: 212
2) -تأسيس فضاء الرحلة: 213
3) -فضاء الرحلة بين (الإقامة/الانتقال): 215
أ. فضاء للإقامة/ المدينة: 217
ب. فضاء التنقل/ الطريق: 227
خلاصة القول: 237
خاتمـــــة..... 239
قائمة المصادر والمراجع..... 244
فهرس الموضوعات..... 253

الطالب: عيسى طهاري

عنوان الأطروحة: تقنيات السرد في الرحلة الورتيلانية

الملخص:

الأطروحة[**تقنيات السرد في الرحلة الورتيلانية**]،في ثلاثة فصول، تدرس **أولا**:(**الرحلة وأدب الرحلة**) من خلال أدب الرحلة والتراث، ثم الرحلة الورتيلانية بواعثها، تدوينها، مسارها، **وثانيا**:**تدرس**(**آليات الخطاب الرحلي وبناء الشخصية**)، **وتشمل**:**1**. **السرد في الرحلة. من خلال**: السرد الإطار، والسرد المضمن، 2. **السارد في الرحلة، من خلال**: الوضعيات السردية للرحالة، ووظائف السارد، 3. **المسرود له. ثالثا**: **تدرس**(**البنية الزمكانية**)،**وتشمل**: **1**. **بنية الزمان في الرحلة من الزمن الطبيعي في الرحلة** (**التزامن**)، **وكذلك التشظي الزمني في الرحلة**(**المفارقة السردية**)، **و الاستغراق الزمني في الرحلة** (**الحركة الزمنية /الديمومة**)، **كما يدرس** 2. **بنية الفضاء في الرحلة**، إشكالية المصطلح: الفضاء/ المكان، وتأسيس فضاء الرحلة، وفضاء الرحلة بين الإقامة والانتقال.

الكلمات المفتاحية: الرحلة الورتيلانية، الرحلة، تقنيات السرد، آليات الخطاب، بنية الزمكانية، التزامن.

Summary

The thesis of narrative techniques in the Werthilanian trip studies, first, the trip and its literature (through heritage, tracks, notatioins and motives). Second, the mechanisms of nomadic speech and character building which covers narration in the trip through embedded and framed narrative, the narrator through the narrative modes of travelers and their functions, and the reader. Last, the space-time structure that deals with time's structure in the trip; the natural trip time (synchronization), temporal fragmentation (the narrative paradox). And trip's time (permanence). The trip's space between habitation and movement.

Key Words: Werthilanian trip, narrative techniques, the mechanisms of nomadic, the space-time structure, synchronization.